عبد ا لباقي يوسف

# دِيـــــــــن

روايـــــة

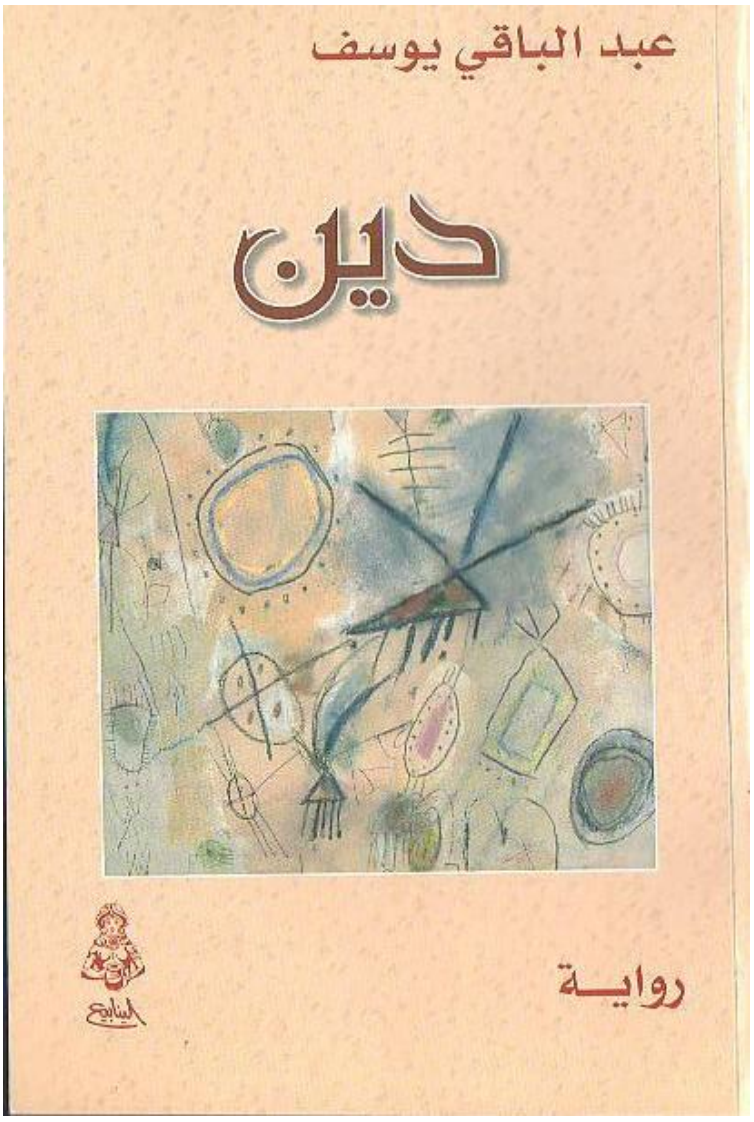


**الطبعة الأولى : دار الينابيع- دمشق ٢٠٠٤**

تتالت النداءات على مسمعه متداخلة بأزيز الريح وطقطقة احتراق الخشب في الموقد المستقر بجنبه، رغب بفتح عينيه لكن النعاس حمله مرة أخرى إلى السكينة ، لقد تناول زجاجة كبيرة من النبيذ منذ ساعتين والآن يستمتع بالدفء الذي يسري في عروقه ، تناولها على جرعات متلاحقة ليتغلب على البرد من جهة ، ويتمكن من النوم الذي لم يذقه طيلة ثلاثة أيام سابقة ولكن النداءات ذاتها لبثت تتوالى عليه دون انقطاع ، أحس بثقل جبل في جسده لدرجة عدم قدرته لإبداء أي حركة تشجّعه على فتح عينيه ، لبث متنقلاً بين النوم واليقظة وأحس بلحظة أنه زوج لامرأتين ، المرأة الأولى هي النوم ، والثانية هي اليقظة ، وليس هو لكنها رموشه التي أخذت تستيقظ هنيهة هنيهة وتتباعد مثلما تتباعد غيوم عن شمس محتجبة ، عندئذ أخذ كل ما في الخيمة شكل أشباح تدور حوله تارة ، ويدور حولها تارة أخرى .

تشبثت كفاه بطرفي الإسفنجة التي يتمد د عليها، وحدها نيران الموقد تبدد الظلام وتحيل الأشياء المحيطة إلى أشباح تتراقص ، أدرك للتو أنه يكاد يختنق عطشاً ، وأن نسبة الماء في جسده هبطت إلى درجة الصفر وفي لحظة قفز حديث رسوله إليه أن : مدمن الخمر يموت عطشاً . مد يده إلى بيدون الماء أمسكه بيده وكأنه سفينة النجاة ، رفع رأسه قليلاً إلى أن تمكن من التقاط فم البيدون بفمه فأخذ يمتص الماء البارد ويشعر بأنه يخترق عروقاً قاحلة يمدها بالحياة ، لم يكن يصدق أن كمية الماء كلها فرغت في جوفه لولا أنه شعر بفراغ البيدون ، عندها قذفه بعشوائية وجلس القرفصاء على الإسفنجة واستطاع أن يميز صوت ابنه هذه المرة ويميز الكلمات التي يقولها . لملم أجزاءه المشتتة ووقف على قدميه ، لكنه سقط في مدخل الخيمة ، بدت الرغبة في النوم أقوى من مقاومتها وبدا الخروج كالموت .

لا يدري أي جزء من الليل تمضّى ، وأي جزء منه تبقى ، لكن النداءات المستغيثة تبعد احتمال أي محاولة نوم أو حتى استرخاء ، إنها نداءات

ابنه الوحيد في هذا العالم ، ابن الخامسة عشرةالذي هو الآخر لاأحد له في العالم كله سواه ، هذه النداءات ذاتها استطاعت أن توقفه على قدميه مرة أخرى ليخرج إلى ضفة النهر ، ويرى علامات الابن من خلال الضوء الموجه إليه وهو يعطي إشارات الالتحاق به في المركب الواقف على مسافة خمّنها رغم ثملة بكيلو متر .عندها وضع إصبعين من أصابع كفه اليمنى في فيه وأطلق صفير الاستجابة ، فانطفأ ضوء البيل وتوقفت النداءات ، ترك ثيابه على الضفة تحت حجرة ملساء وقذف بجسده المترنح في المياه ، تحسس حرارتها وهو يمضي في الاتجاه غطساً فيشعر أثناء عملية الغطس بأنه يدخل تحت بطانية فيواصل العوم تحت الماء ، وبغتةً أحس بخفقات شديدة في قلبه اضطرته إلى التمهل ، تناولته نوبات إقياء حادة ، واستولى ألم مباغت على جهة الرأس اليسرى ، تهدلت عضلاته ، انقلب يواصل السباحة على ظهره من خلال ما تبديه يداه بحركات متباطئة على سطح الماء وقد صدرت منه غرغرة : الحقني يانجم .

كان إذ ذاك قد قطع ثلاثة أرباع المسافة ، رأى نجم الذي تناهت إليه غرغرة الاستنجاد أن أباه سيغرق ، وتذكر للتو أنه تناول زجاجة كبيرة من النبيذ ، وماكان عليه أن يناديه ،لابد أنه ثمل الآن لا يقوى على الاستمرار في العوم ، وعلى عجل ربط الحبل الطويل ببطنه وقذف جسده في النهر وهو يحس بقوة عشرين رجل تندفع إليه ٠ كانت المرة الأولى التي يستجديه فيها الأب ، ذاك الأب الصارم القاسي الملامح القوي البنية كالجبل ، ناول لأبيه الحبل المعتض بالمركبة ثم آب إليها يسحب الحبل إلى أن أمسك بيديه وأعانه في الصعود على ظهر المركبة . إتجها إلى الشبك الذي كان خلف كل تلك النداءات .

لقد كان ما علق به فوق قدرة نجم ولذلك استنجد بأبيه ليعينه على سحب السمكة الضخمة قبل أن تفلت وهذا الثقل ذاته منعه محاولة قيادة المركبة التي تربط الشبك ، مد الأب يديه إلى الشبك وأخذ يتفنن بسحبه والشبك

يستجيب رويداً رويداً مع الحركات المتقنة بمهارة ، ونجم يلتقط تلك الحركات ويختزنها في ذاكرته. بهتا في فجاءة الاحتمالات عندما لاحت أسمال من بين الشبك ، تبادلا نظرات الهلع بيد أن الأب لبث يستجر حتى تبد ت امرأة غارقة بكامل ثيابها الشتوية ،ترك بشري كل شيء وكأنه لم يعد قادرا على مقاومة حالة الإنهاك التي استبدت بعضلاته ، تمد د منهوك القوة في أرضيةالمركبة يتقفقف، عند ئذ أخذت خيوط بيضاء تبدد ظلمة الليل ، بعد دقائق معدودة نهض محاولا مقاومة الإنهاك ، هز رأسه هزات سريعة في محاولة لاسترداد صفاء الذهن ، وثب بحركة رياضية نشيطة ووقف أمام المرأة المشبوكة : ماذا سنفعل يا بشري ؟ ! . قالها نجم وقد اعتاد أن يناديه باسمه في المواقف الجدية .

أشار إليه الأب أن يوجه المركبة إلى الخيمة وفي أثناء الاستدارة غدا يحل عنها الشِباك إلى أن أخرجها كما يُخرج سمكة ، وقفت المركبة على الشط فحمل بشري الغريقة على ذراعية داخلا الخيمة والماء يسح من فمها بغزارة ، وضعها على الإسفنجة : سندفنها يا نجم . قالها بلهجة لا تقبل النقاش وخرج من الخيمة ، فلحقه الابن يبحثان عن موضع بالقرب من الخيمة ، ولما رأياه عادا إلى الغريقة لحملها إلى الحفرة ، عندئذ وكأنهما يرياها للتو لفتت الثياب الشتوية الكثيرة أنظارهما، تلك الثياب التي توحي بأنها تنتمي إلى عائلة ثرية ليست من القرى المجاورةعلى قدر ماهي ابنة مدينة. أشار لابنه أن ينزع عنها كل تلك الثياب ويبقيها بثوب واحد، وانصرف ينتظر في الخارج ،عند ذاك انبعث صوت فزع من الابن وهو يهرع كالسهم الطائش إلى أن سقط على مسافة بعيدة، لحقه الأب فزعاً، حمله على ذراعيه إلى النهر، هناك انتفض الإبن ورمى بنفسه في حضن أبيه والهلع يسيطر عليه: تحركت الميتة عندما نزعت عنها الثياب .
قال الأب: هذا تبدّا لك .
قال: ليست ميتة!.
قال: لكنها ميتة.

وامتنع الابن الاقتراب من الخيمة .. دنا الأب بخطا وئيدة صوب الخيمة وكأنه يدنو إليها أول مرة ، مد قدمه بشيء من تردد وولج ، كانت بعض الثياب مرمية بجانبها فمد يده إلى جبهتها ، سمع أنيناً خافتاً، مدّ رأسه إلى الخارج وهتف : تعال يا نجم إنها حية . ثم عاد يوقد النار بالقرب منها ، يخفف من ثيابها المبلولة ويغطيها بكل ما في الخيمة من ثياب ناشفة إضافة إلى البطانيتين الوحيدتين ، وفي لحظة خاطفة وهو في ذروة الانشغال لتوفير دفء للغريقة قفزت إلى مخيلته / باهرة/ المرأة الوحيدة التي دخلت حياته وأمضى معها ست سنوات من عمره، قفزت مهنة المحاماة إلى ذاكرته ، تذكر مكتبه ، زبائنه، مرافعاته، قضاياه، دعاويه،زملاءه، قصر العدل ، كل ما كان يملأ عالمه ، شقته المغلقة وسط المدينة تلك الشقة التي لا يتصور نفسه أن يفتح بابها ، وتذكر صبيحة الإخفاق الكبرى ، تذكر الساعة العاشرة التي عاد فيها إلى البيت وقد نسي إضبارة أحد أصحاب الدعاوى فرأى رجلاً معها على سريره ،أوهم نفسه بأنها ما تزال نائمة وأن ذلك تبدّا لناظريه ، لكن الرجل لم يترك له حتى الوهم عندما حطم زجاج النافذة وفرّ منها .

فأ شار إليها أن تلحقه من ذات النافذة المحطمة ، كان نجم آنذاك في الخامسة من عمره،ورأى نفسه وحيداً في العالم مع ابنه ، مزق إجازة الحقوق ، ترك كل ما يعنيه في المدينة ، حمل ابنه واتجه إلى أي فسحة تبعده عن ضجيج المدينة ، فسحة بعيدة عن الناس ، رأى بأنه لن يحتمل البقاء ليلة واحدة في هذا الضجيج ، اتجه صوب النهر ولجأ إلى خيمة أحد الصيادين ، أحس بأن رؤية الماء تخفف عنه هول الصدمة التي يبذل محاولاته لنسيانها وكأنها لم تقع ،كان يقول لنفسه أن كل شيء في هذا العالم ممكن الحدوث حتى تلك الأشياء التي لانتوقع حدوثها ولو بنسبة واحد بالمئة ، بعد أيام استقر على فكرة شراء خيمة وعدّ ة صيد ، وراح ينصب خيمة على بعد من الصيادين . عشر سنوات متواصلة أمضاها في هذه الخيمة، عشر سنوات لم ير فيها وجه المدينة ، يرفض لقاء أي شخص مهما كان قريباً، وسنة بعد سنة يكبر معها نجم إلى أن أصبحا

صديقين يمكن له أن يذهب إلى السوق ويجلب كل حاجات الخيمة، يمكن له أن يقبض قيمة السمك من التجار الذين يأتون ويشترون منه على النهر ، عشر سنوات لم يشتر ثوباً ، لم يرتد حذاء جديداً ، ويتمتم لنفسه بسرية : ما دمت أملك ثمن النبيذ فإن العالم سيكون بخير، مادمت قادراً على الشرب فإنني سأكون بخير، وعندما يحل أجلي فإن هذا الرجل الصغير سيكون قادراً أن يحفرلي حفرة صغيرة : / يا شجرة الخوخ عند بابي إذا لم أعد يوماً فالربيع آت دوماً ازهري أنت / . في المساء استطاعت الضيفة أن تفتح عينيها وبشري يقدم لها وجبة من السمك وبعض فاكهة أحضرها نجم للتو من السوق، قالت وهي تفتح عينيها وكأنها استفاقت من نوم دام سنة : في أي سماء أنا، ثم رنت إليهما : عند أي ملكين أكون؟٠

قال الرجل بوقار: كنت عالقة في شباكنا وأتينا بك إلى هنا ، هذا ما جرى فجر اليوم . ثم خرج ليلحقه ابنه حتى تتناول شيئا من الطعام ، وبعد ساعة عادا ليرياها قضت على قسم من السمك والفاكهة .

قالت : كنتُ جائعة ، يبدو بأن الطعام أعاد إلي بعض وعيي ، الآن أدرك ماحدث ، لكن بحق الله هل لكما استضافتي لأيام إلى أن أتدبر أمري .. الليلة أو غداً سيأتون يبحثون عني في النهر ..أطلب منكما أن تخفياني عنهم . ما قالته المرأة حدث بالفعل ، ففي صبيحة اليوم التالي جاءت دوريات من الشرطة والغواصين يبحثون في عن فتاة قيل بأنها غرقت في النهر وطيلة شهر كامل لم تنقطع السيارات عن المكان ، حتى رجال الشرطة لبثوا يمشطون الموقع إلى جانب الغواصين الذين يبحثون عنها في كل مكان من النهر المسجور حتى فقدوا أمل العثور عليها ، لكن الناس لم يفقدوا الأمل عندما علموا أن من يعثر عليهاحية أو ميتة له مكافأة بمئتي ألف ليرة ، وكان هذا يدفع حشوداً كبيرة من الصيادين و الغواصين للبحث ليلا نهاراً علّهم يجدوا لها أي أثر فينالوا المكافأة المجزية . ذات يوم لاتدري كيف خرجت منها عبارة : ألا تفكر أن تمنح نجمك مئتي ألف ليرة ؟ .

حمل زجاجة النبيذ وخرج يتناولها عند مدخل الخيمة . أحست ذكرى بأنها جرحته فطلبت من نجم أن يعتذر بدلاً عنها .

فتاة فتية في الثانية والعشرين ، وجهها دائري كأن النور يشع منه ، تتمتع بلياقة صحية ، تتقد بالنضارة والحياة ، تنضح بالقوة والنشاط ، تتبع نظاماً دقيقاً للاهتمام بصحتها حتى يبدو للناظر إلى فمها أنها تغسل أسنانها سناً سناً في اليوم ثلاث مرات ، ترتدي ثياباً سوداء تمنح جمالاً مدهشاً لبشرتها وقامتها ورشاقتها ، يبدو للناظرة من جهة أخرى أن هذا التناسق الجسماني الذي تتمتع به هو الذي يمنح السواد كل ذاك الجمال والجاذبية ، شعرها أسود طويل كثيف ينزل إلى منتصف الظهر إذا ما أسدلته ، لكنها على الأغلب تلفه وتغطيه بإشرب أبيض فيزيد الوجه دائرية ونوراً وإشراقاً، تقيم كل صلاة في وقتها، لا تكاد تبدي حركة إلا وتذكر معها الله وهي مع الأيام تتخذ نظاماً دقيقاً في النظافة والاهتمام بنوعية وتنوع الطعام، ولا يخفي بشري عن نفسه بأنه يشعر بشيء من الارتياح لهذا التغير المفاجئ الذي طرأ على نمط العيش في عزلته ، وهو الذي قرر أن يتخذ من اللامبالاة والفوضى طريقة جديدة لحياته، لكن ما لهذه المرأة- التي تبدو له وقد هبطت عليه من السماء وليس هو الذي سحبها من النهر شبه ميتة- تأتي بهذا التغيير وهو يستجيب بليونة وود لما تطلب من أدوات التغيير للعيش في هذه الخيمة المنعزلة حتى أنه تجرأ وقال لها بلهجة إعتذارية :

أنا لا أصلي لأنني أشرب ، ظروفي لا تسمح لي بالصلاة ، ألا ترين حرجاً بالعيش مع شخص يشرب ولا يصلي وأنت في كل هذا التدين ؟٠
قالت : لو لم أرك بهذا النقاء لترددت طويلاً قبل إتخاذ قرار البقاء ، ولكنني ما ترددت ساعة واحده عندما رأيتك فيما أنت فيه .
مع بدء فصل الربيع هدأت الأوضاع ويبدو أن الناس الذين تفرغوا للبحث عنها غدوا على يقين بأنها لم تنتحر في هذا المكان وهكذا فحتى أهلها انقطعوا عن التردد وبدأوا يفكرون بمكان آخر لجأت إليه، لكن أمها بقيت

مصرة على أنها رمت نفسها في النهر ، فذكرى دوماً كانت تقول لها بأنهم لو أجبروها على هذا الزواج من كافور فإنها ستلجأ إلى الله عبر النهر لأن الماء هو الأمان وهو الستر، هذه الأقوال كانت ذكرى تكررها على مسمع أمها حتى أنها في صبيحة الاختفاء قالت لهم جازمة : إنها في النهر.. لقد ذهبت إلى الله تشكو له ظلمكم لها هناك .

صار بمقدور ذكرى أن تخرج من الخيمة نهاراً بعد أن بقيت نحو شهرين حبيسة الخيمة لا تجسر على الخروج إلا هنيهات قليلة في منتصف الليل عندئذ بدأت تحس بآلام في صدرها ومعدتها وخاصة في الليل فتشعر بأن أمعاءها تتمزق وأن صدرها ساحة حرب، إقترح بشري أن يأخذها إلى الطبيب ، لكنها خشيت أن يراها أحد في المدينة ويخبر أهلها فآثرت السقام على عودتها مهزومة للبيت. بدأت الآلام تغزوها حتى إنها لم تعد قادرة على النهوض من الفراش وأخذ جسدها في الذبول وفي لحظات يخطر لبشري إنها تودع الحياة ،آلمه هذا الشعور واهتدى إلى فكرة ان يأخذها للعلاج في مدينة أخرى ويبدو أن ذكرى لم يبق أمامها إلا أن تتحدى خوفها وتخاطر بهذه الفكرة وهي تميل لنمط جديد من الحياة . طلب بشري من ابنه أن يذهب إلى المدينة لشراء بعض الحاجات ، ثم صمت قليلا وقال له بأن يجلب عدة حلاقة .

افترت بسمة على ثغر نجم بهذا الطلب وهو يتخيل أن أباه يزيل هذا الشعرالكثيف الذي ملأ وجهه بشكل عشوائي ، وكان في السنوات السابقة عندما يضيق وجهه بالشعر الزائد يحمل مقصا صغيرا ويخفف مايراه يزيح الضيق عن وجهه الدائري . عند الظهيرة اتجه نجم إلى المدينة، ابتاع لها ثياباً واتفق مع سيارة خاصة على موعد لأخذهما إلى العاصمة . وقف بشري طويلا أمام المرآة وهو ينظر في ذقنه ، في هذا الوقت أمسكت ذكرى بيد نجم وخرجا حتى يبعدا عنه الحرج وهو يحلق ذقنه بشكل جيد لأول مرة منذ عشر سنوات . في المساء كانت كل الترتيبات

مجهزة للسفر و لبعد احتمال الشبهة ابتعدا عن الخيمة ليقفا على الطريق العام بانتظار وصول السيارة التي وقفت أمامهما بعد الغروب بساعتين . دخلا عيادة طبيب للأمراض الصدرية ، وهناك تم التحليل والتصوير فقال الطبيب بأنها مصابة بمرض ذات الرئة ، إضافة إلى مرض قديم أخذ مداه عندما تعرضت لبرد شديد نتيجة غرقها في النهر والبقاء فترة طويلة في الماء ، وقال أن برودة الطقس كان عاملا في إنقاذ حياتها لأن الإنسان ليس بوسعه أن يبقى ساعة تحت الماء إلا في حالات استثنائية مثل شدة برودة الجسد لأنه عندذاك يحافظ على قدر من الأوكسجين لفترة أطول من الحالة المعتادة ٠ ثم قال لبشري بأن العلاج يتوجب البقاء في المشفى أياما ريثما تتماثل للشفاء ، وبالنسبة للمرض القديم فهو يحتاج لعملية جراحية بعد علاج مرض ذات الرئة الجديد ٠استفسر عن التكاليف ففوجئ بمبلغ لم يكن يتوقعه .

عندما علم الطبيب بأنه لا يملك هذا المبلغ أخبره أن بإمكانه المعالجة و إجراء العملية في إحدى المشافي العامة لكن المشفى الخاص يوفر لها العناية التامة والراحة والدقة في العلاج .
لبثا ثلاثة أيام وعادا إلى الخيمة بخفَي حنين قالا لنجم الذي كان ينتظرهما : القضية أعقد مما كنا نتصور يانجم . وشرد بشري بتدبير المبلغ : لابد أن أدبر النقود ، أظن بأنني سأستطيع أن أحصل على نفقات علاجها في مشفى خاص، لقد وهبها الله لنا وعلينا أن نحافظ عليها .

تمتم نجم بحزن : لا نستطيع العيش بلا ذكرى يا أبي .. اعتدنا عليها .
قالت ذكرى : أنا أيضا لاأفكر بالذهاب إلى البيت ليعالجني أبي لأن علاجه لي سيضعني أمام مطلب العائلة بالزواج من إبن عمي ، سأكون قد شفيت له، وأنا أفضل الموت الذي يبعدني عنه .
تستيقظ ذكرى بعد نوم عميق من إرهاق السفر وإذ ببشري ليس في فراشه ، تستغرب ، تنظر إلى الخارج ، السفينة في مكانها ونجم لا يزال

نائما فالوقت باكر والشمس لم تشرق بعد ، يتحرك نجم في فراشه يستيقظ ، يتناول إبريق الماء ولا يرى أحدا في الخيمة ينادي :
ياب .. ذكرى .
مع انتشار الصوت تلج ذكرى إلى الخيمة : صح النوم نجمي ، وقبل أن يجيب : أبوك يا حبيبي .
- أبوي أحلى أب في هذا العالم .
- لم ينم الليلة في الخيمة ! . ولفتت الثياب نظرها ، لقد ترك ثياب العمل وارتدى الثياب الجديدة التي اشتراها للسفر .

في التاسعة والنصف صباحاً كان بشري يجلس في مكتب عقاري يتناول كأس شاي من يد صبي :متى يأتي معلمك يا ولد ؟
هلاّ ..هلاّ عمو .. صار وقته .
يدخل رجل قصير القامة يرتدي نظارة سوداء وما إن يرى بشري حتى يتسمّر في المدخل ، ينهض بشري واقفاً قبالته ، يخلع الرجل نظارته والصبي مبهوت بينهما ، صدرصوت من الرجل : خالي بشري ، أنت خالي بشري ؟!.. يتقدم نحوه بفرح مباغت .

قال بشري وهو يفتح ذراعيه : صدّيق ،ابن أختي يا غالي . واحتضنا بحرارة ، لم يجلس الرجل وقال بأن المكتب لا يكفي لاستقباله بعد هذا الغياب ، لكن بشري قال بأنه حضر لأمر طارئ ولا بد أن يعود إلى ابنه ، عند ئذ قال : وكيف هو نجم ..هل كبر .. لماذا تحرمنا منكما هكذا يا رجل .. ليس على لسان أمي غير بشري وكأن لا أخوة لها غيرك .
أحياناً في منتصف الليل تقوم من فراشها وتقول : بشري أين أنت الآن يا أخي .
حتى أنها عندما تلكم بقدميها فإنها تستغيث بك قائلة : بشري أخي انجدني .
وعندما تؤكّد على شيء تقول : برأس بشري الذي هو أغلى من العالم كله عندي .

مرة قلت لها : يا أمي تحبينني أكثر أم تحبين بشري ؟
قالت : الابن يمكن تعويضه بابن آخر ، لكن الأخ إن ذهب لا يمكن تعويضه٠
وأمام إصراره على البقاء في المكتب جلسا فقال بشري : إي يا ابن أختي أنا جئت إليك لتبيع لي الشقة .
- خير إن شاء الله
- أنا بحاجة لثمنها
- إذا كنت مصراً يوجد شخص منذ شهرين يبحث عن شقة
- اتصل به الآن إذا كان ممكنا لأنني مستعجل.

رفع صديق سماعة الهاتف واتصل بالمشتري لكن قيل بأنه ذهب إلى القرية لعزاء وسيعود غداً ، وأمام هذا الجواب تمسّك ابن أخته به وأصر أن يأخذه إلى البيت وحتى يضعه أمام أمر واقع ، أتصل بالبيت وقال لأمه بأنه سيأتي ببشري بعد قليل ٠ثم على عجالة كتب على ورقة بيضاء : يرجى مراجعتنا غداً.
أعطاها للصبي ليغلق المكتب ويعلقها على الباب .
كان يوماً حافلاً فقد اتصلت أخته بكل الأهل والأقرباء وعزمتهم .

أمضى بشري يوماً عائلياً حميمياً وكلهم يصرون أن يعود إلى مكتبه وعمله ويعرضون عليه الزواج مجدداً لأن خيانة امرأته لا تعني نهاية العالم.
وقال أخوه زهدي الذي يصغره بثلاث سنوات وهو صاحب مطعم كبير في قلب المدينة :
يا أخي لو عمل كل واحد مثلك كانت الحياة انتهت من ملايين السنين ٠
وقالت عمته عائشة : أقسم بأن محبتي لك لا تقل عن محبتي لأبيك عليه رحمة الله لأنك رائحته في الدنيا .

أرجوك يا بشري تعود لأهلك وتتزوج وتنجب لنا الأطفال نحن خسرناك يابن أخي وأنت خسرتنا من أجل امرأة راحت بحال سبيلها وأنتهى كل شيء.
في الصباح اتجه صديق وبشري إلى المكتب وعلى الفور اتصل بأبي حمدي الذي سيشتري الشقة فأتى بعد ساعة من الاتصال .
ذهبوا إلى الشقة وبعد أن رآها وأعجبه موقعها اتجهوا إلى السجل العقاري ، حصلوا على بيان قيد عقاري بملكيتها وعادوا ثانية إلى المكتب واتفقوا على السعر.
ثم ذهبوا جميعا إلى الكاتب بالعدل ، هناك أعطى بشري وكالة خاصة لصديق تخوله القيام با جراءات التفريغ من اسمه إلى اسم المشتري .

عند العصر عاد بشري إلى الخيمة وهو يقول بأنه باع الشقة حتى يتمكن من أخذ ذكرى إلى العاصمة وإجراء عملية لها في مشفى خاص . إنها خطوات غاية في السرعة ، لايفكر بشري بشيء من خلالها سوى السرعة في إعادة ذكرى إلى الطبيب ، هكذا يشعر بأنه يفعل شيئا مجديا ، يشعر بأنه يقوم بكفاح في سبيل أمر يهمه ألا يخوض في البحث عنه ، ولكن رغم ذلك يشعر بأن نورا يضيء كل خطوة من خطواته ، هذا النور الذي يزيح كذلك جانبا من الظلام الذي يستعمر كل خلية من خلاياه .
في أمسية اليوم التالي إتجها للمرة الثانية إلى العاصمة وذهبا إلى ذات الطبيب في مشفاه الخاص .

تفاءل الطبيب لهذه السرعة لأن كل ساعة تأخر تمكّن المرض من جسمها وبذات الوقت تقلل فرص الاستجابة للعلاج .
لبثت عشرة أيام تتلقى الاستراحة والعلاج المتواصل في المشفى وبعدها سمح لها الطبيب بالخروج على أن تبلغه هاتفياً فور حصول أي طارئ على صحتها .

عادت ذكرى تتلألأ على ضفة النهر وفي الخيمة ، وغالباً تخرج في الليل معهما للصيد . في إحدى المرات كانت تسحب الشباك فسقطت في النهر ، قفز بشري إليها حملها على ظهره وقال لها : نجم أثقل منك وأنت في الثانية والعشرين عليك أن تأكلي جيداً لتكوني قوية .
وقالت : هل ستخفف النبيذ وتحلق ذقنك كل أسبوع من أجل خاطري ؟
نظر إليها مطولا ولم يجب ٠
أضافت : أنت في الثالثة والأربعين لكن إهمالك لصحتك يجعلك تبدو شيخاً .
قال : بنيتي قوية وأستطيع أن أزحزح جبلاً ٠

قالت : أجل لكن الصحة لا تدوم إلا بالمداراة٠٠هل تظن بأن الحياة انتهت بالفعل ، لكن الشمس ستلبث تشرق ، الخيانة تستمر ، وكذلك يستمر الإخلاص ، يمكن لك أن ترفض الخيانة وهذا موقف إيجابي تبديه ، بالنسبة لي كان علي أن أقبل العيش مع خائن طوال عمري ، كان مفروضاً علي وعند ذاك قلت أن الموت سيكون الحل الوحيد في الليلة الأخيرة بعد تهرب وتأجيل وتعذير دام خمس سنوات ، لقد رأيت الخلاص في الموت الذي كان سينهي كل شيء ، أنت لم يفرض أحدعليك العيش معها ، وكان موقفك سامياً بالرفض٠
الآن تعرفت بعالم آخر ، عالم العزلة والصيد والاعتماد على الجهد العضلي لتأمين لقمة العيش ، وأظنني كنت سأخسر الكثير ، كان سيفوتني جانب هام من الحياة لولا قراري ٠
لم تعد قادرة على إخفاء حقيقة إعجابها برجولته ، وأنها تميل لأن يكون الرجل الذي يملأ عا لمها ، وهي تدرك أن لديها ما يمكن أن تقدمه لهذا الرجل الذي بدا وجوده في تلك اللحظات مقترنا بوجود الحياة بالنسبة لها ، الرجل الممتلئ بالحياة الذي يملأ فراغ الأب والأخ ، ويكون الزوج المحب لزوجته التي تصغره بعشرين سنة ، إنه كالجبل الذي يمكن لأي امرأة أن تسند ظهرها إليه وهي مطمئنة على المستقبل . فقالت العبارة

التي طالما أرقتها في الليالي الطويلة ، قالت بشجاعة دون أن تدع مجالا لأي تردد هذه المرة : هل تقبل أن نكون معا ياسيدي ؟
بدت المفاجأة واضحة في وجهه ونهض ، لكنها نهضت معه
وقالت : هل سترفضني يا بشري ؟
قال : أنا أفكر بشيء آخر .. أن تعودي إلى البيت لأنه يستحيل عيشك هنا إلى الأبد .
قالت : لكنني جادة ٠
قال : وهل تظنين أن ذلك سيجدي ، أظنني أخذت حصتي من الحياة في هذه المسألة ، وأظنني سأكون سعيداً في النحو الذي أنا فيه ، مثل هذه القرارات الكبرى لاتُتخذ وأنت هنا ياذكرى ، تُتخذ عندما تكونين في بيتك وبحرية تامة والعالم كله مفتوح أمامك .
في أكثر اللحظات الكونية حساسية ، تلك اللحظات التي تستقبل الطبيعة فيها أولى أنفاس النهار وتودع آخر تلويحات ليل مضى ، يبلغ بشري ذروة الخدر ، يشعر بأنه يصعد إلى السماء لكنها ذكرى التي تمسك به فيترنح بين الأرض والسماء : أظنني كنت مريضاً بالمرأة منذ سنوات طويلة وأنني ما أزال أتنفس مخلفات الشفاء ، وأظنني على وشك حمّى بامرأة جديدة ، هذه الحمّى تأتيني بالدوار وتعيدني إلى جحيم أرتعب من ذكر تفاصيله ، ما تزال آثار حريقه في حواسي وروحي ، إنني مصاب بحمّى الحب مرة أخرى بحمّى المرأة وأظنها الحمّى التي تقف خلف كل هذا الوهن الروحي الذي أخذ يستوطن ننى مرة أخرى .
يهتف لها وهما يبركان على ضفة النهر المسجور في ظلمة دامسة دون أن يرى أحدهما وجه الآخر : لو تعلمين أن حزن العالم كله يسكنني ولا أجد غير هذه الزجاجة تخفف عني ،آه يا ذكرى كم أشعر بقوة الألم تحتلني وتنهكني . وتأتي نبرات ذكرى عذبة رقراقة إلى سمعه : ألا ترى ياسيدي أن الإنسان هو أكثر المخلوقات شاعرية لأنه أكثر المخلوقات حزناً ، يأتي الإنسان حاملاً حزنه ومعاناته على أكتافه ، إنه حمّال الأحزان .. كل ذرة تراب ،

كل ورقه شجرة ، كل منخفض ، كل فصل لهو شاهد على معاناته .
عندما يولد يُقال له أول ما يُقال : تذكّر أيها الإنسان بأنك فان . لكنة يصر على الحياة ويقبل العيش فيها ،لأن الحياة أفضل من العدم .
أجل يا بشري ألم نفتح عيوننا على معاناة عمر بأكمله ألا نروض أنفسنا لاحتمال هذه المعاناة والانسجام معها ؟
الإنسان جاء ليعاني ويتألم ويكافح لا ليقطف الزهور ويمضي، مايهم هو نجاحك في محاولة الانسجام مع كونك مخلوق حزين ، لا أن تكافح للتجرد من هذا الحزن ، إذا حذفتْ الطبيعة الحزن منك ، حذفت الإنسان منك ، أنت جئت لتضع لبنة في عمارة الحياة هذه العمارة التي بُنيت بلهاث الإنسان ودمه وعرقه وأرقه ، استفدتُ من تجربتَي النهر والمرض بأن الصحة العامرة تستقر في لحظات تخالها الأخيرة لك في هذا العالم ، هناك في آخر لحظات الاحتضار لأول مرة تنفتح شهيتك الكبرى على الحياة التي لم تكن رأيتها من قبل وتعانقها بنبضاتك الراعشة الأخيرة عند ذاك عند ذروة المرض الجسدي عند ذروة المرض الروحي تنفتح عيناك على حقائق أخرى وأنت مطروح في حديقة الموت والاحتضار ، وتتساقط على أسماعك كلمات نورانية : أنت ابن الألم ، الألم هو الذي صنعك، كن على حذر من السقوط أنت مخلوق قابل للسقوط ، قابل للسمو . قدر رغباتك كما يقود الراعي الماهر قطيعه ، لا تدع القطيع يقود الراعي . أنت ابن التراب لا تنس للحظة بأنك من صلصال . ليس بالرخاء وحده يحيا الإنسان ، بل بالألم أيضاً ، ليس بالشبع يحيا الإنسان، بل بالجوع أيضاً ، ليس بالصحة يحيا الإنسان ، بل بالمرض أيضاً . إن الله أكرمك فلا تذل نفسك ، هيا قم إلى الحياة هناك في القبر متسع من الموت لن يبقى منك إلاّ ما شيدته روحك ، عندما تقوم إلى الحياة وتفتح عينيك عليها ستدرك أن روح الله تسكنك ، أنك تحمل أمانته ، تحمل سره الخفي ، في تلك اللحظات النورانية ستدرك سر الله فيك ، تدرك معنى الإنسان فيك ،وستدرك كل الإساءات التي وجهتها إلى نفسك ، ستدرك كم كنت غارقاً في ظلمة الجهل . يحس بشري بأن الدموع تنهمر من عينيها وهي تردف بنبرة بكائية : كثيرون

يفشلون في مسعى الانسجام بواقعهم فيعيشون في هامش الفعل الحراري للحياة ، هذا الفشل يعكس علىالمفهوم العام للحياة ، وعلى هذا المفهوم يهدرون أعمارهم دون أن يقدموا شيئاً . الشرف الكبير يكون في تقديم الهدايا إلى الحياة من خلال التصارع مع هذا الألم وهنا تبرز قدرات الإنسان وكفاءاته ويصنع من الألم ملحمة إنسانية كبرى ٠ المعاناة يا سيدي هي شرط وجود الإنسان في الحياة وشرط تواصله الإنساني ،إنسان بدون معاناة لهو إنسان ناقص . الإنسان يحب الحياة يا بشري فهو الذي يبنيها ويجملها ويزرعها ويلطفها وبنجب أطفاله ليعيشوها ، إنه يؤمن بجدواها ولذلك يعقد فيها الصداقات والعلاقات الحميمية ويصر على السيرة الحسنة والسمعةالطيبة .. الذين يبنون الحياة هم أكثر من الذين يدمرونها فإذا عملية بناء مدينة تستغرق ثلاثين سنة فإن تدميرها لا يستغرق ثلاثة أيام ، ومع هذا فإن الأرض عامرة ،وإذا عملية ولادة طفل واحد تستغرق تسعة شهور فإن عملية تدمير آلاف الأشخاص لا تستغرق يومين ومع ذلك فإن مليارات البشر يعيشون ٠الإنسان بخير ياسيدي رغم كل مظاهر الشر التي تبدو لنا في العالم ، الذين ينجبون ويربون هم أكثر من الذين يقتلون ، والذين يبنون هم أكثر من الذين يدمرون ، الذين يصلحون هم أكثر من الذين يفسدون ، كل ما حولي يصرخ : قم أيها الإنسان ، عليك أن تقول ما لم يقله غيرك ، عليك أن تغني ما لم يغنه غيرك ، عليك أن ترى ما لم يره غيرك ، عليك أن تسمع ما لم يسمعه غيرك ، عليك أن تكون ما لم يكنه غيرك . كل ما فيك يتميز عن غيرك .. صوتك بصماتك ، رؤيتك ، شكلك ، عليك أن تنفرد بتميزك وتتجه إلى ما لم يتجه إليه غيرك .

إنها حياتنا الرائعة يا بشري إنها حياتنا السحرية المدهشة التي ستهبنا أسرارها ودفئها وشمسها ونسيمها وأوراقها ،غداً يا بشري ستنفتح ورود أكثر أريجاً ،

نرى أنهاراً أكثر أمناً ، نسكن بيوتاً أكثر دفأً ، نعرف أصدقاء أكثر إخلاصاً ،نستمع أغنيات لم نسمعها من قبل ، نلبس ثياباً لم نلبسها من قبل ، نعيش حياة لم نعشها من قبل ٠٠

غداً يا بشري الذي يكون كله لنا،وغدا ننجب أطفالاً لم ننجبهم من قبل نرى أعياد لم نرها من قبل ننشد أناشيدا لم نشدها من قبل ، غداً ستكون الحياة دافئة أكثر من قبل ، أجل يا بشري أقول لك بسرية أسراري كلها أهمسها لك كما أنك
لاتسمعها كما أنك لست هنا ، إنني سعيدة يا بشري سعيدة لأنني أتمتع بحواسي وأستطيع أن أميز الوجوه والأشياء حولي أستطيع أن أميز الكلمات التي أسمعها أميز المكان الذي أعيش فيه وأحفظ أسماء الأشياء أستطيع أن أفكر بحرية وأمشي وأقف وأتحدث وأصمت وأركض وأغتسل وأضحك وأنظر إلى الجهات، إنني أستمتع بالنظر والنوم والطعام و المسير وتمييز الأشياء و لحظات الإيواء إلى الفراش ولحظات النهوض منه ..
ياه كم تسحرني الحياة إنني يا سيدي ممتلئة بالحيوية ، أنظر كم أن الحياة حلوة أنظر إليها جيداً قبل أن نخرج منها أنظر إليها بقوة .

* * *

في الصباح بينما كانت ذكرى تجلس جوار الخيمة تتأمل الأسماك التي ترتفع من النهر ،هبط قلبها وقد بوغتت بسيارة حكومية تقف أمام الخيمة ، أجالت بنظرها في النهر ، لم تجد السفينة التي تحمل بشري ونجم ٠
نزل شاب من السيارة وألقى عليها السلام ثم أردف على الفور : هل هذه خيمة الأستاذ بشري عبد المجيد ؟ ٠
أجابت ذكرى : هذه خيمة بشري ٠
ألقى نظرات حول الخيمة والنهر قائلا : أين هو ؟
إنه في النهر مع إبنه يصطادان السمك .
- هل سيتأخر إلى أن يعود ؟
- تفضل انتظره ، ليس له موعد ثابت في العودة
أنا في عجلة من أمري ، له مظروف هل لي أن أتركه لديك ؟٠

هزت ذكرى رأسها بالموافقة لاستلام المظروف ، عندها سحب مظروفاً مغلقاً من السيارة وقال : هذا المظروف من معلمي القاضي إياد للأستاذ بشري ٠
تناولت منه المظروف فقال الشاب : رجاء بلغيه سلام الأستاذ إياد ، وأدار السيارة عائداً . نظرت ذكرى في المظروف وأحست بريب نحوه فراحت تفضه لتقع على رسالة مؤلفة من صفحتين ، لبثت واقفة وبدأت في القراءة : بشري هاأنذا أتجرأ وأكتب لك رسالتي الأولى بعد كل سنوات الانتظار ولو بقيتْ لدي قدرة على الصبر أكثر لما كتبت، إنني مدين لك بكل هذا الذي أنا فيه وهو ذاته يشعرني بالإثم نحوك على كل ما أنت فيه لكن كل سنوات الدراسة و الخبرة لم تعلمني شيئاً مما علمتني إياه ، أصارحك بأنني وقتها كنت على علاقة بخمس نساء في وقت واحد إضافة إلى زوجتي ، كنت كالكلب المسعور ألهث خلف النساء وتعلم أن مَن يكون في وضعي يسهل عليه أن يسرق ويكذب ويغدر ويحتال ،لكنك جئت لتطهّر روحي من الآثام وكأن الله أرسلك إلي ٠
في ذاك الصباح الأثيم خرجت' من بيتك مسعوراُ ودخلت بيتي أنتظر دخولك إلي شهراً كاملاً لكنك لم تأت وظنت زوجتي بأنني جننت ، لن تتصور كم كنت' خائفاً على حياتي ، وفي أوقات أخرى كنت أتمنى فيما لو تحضر وتجهز علي بطلق ناري لتريحني من عالم كله قلق واضطراب ،كل طرقة على الباب كانت تعصر حواسي فحتى لو لم تكن أنت سيكون من يحمل إلي نبأ فصلي من مهنة المحاماة لأنني خنت زميلي وكيف ينطق بالحق خائن ، لكنني قررت الخروج وأنا أتوقع كل احتمال أسوأ من الآخر ، سألت عنك في قصر العدل وعلمت بأنك لم تدخله منذ ذاك الصباح ٠
ذهبت أسأل الجوار فقالوا بأنك اختفيت منذ شهر مع ابنك ، تلك التفاصيل التي لن أنساها ، تلك الشوارع التي مشيتها شارعاً شارعا ، تلك الأماكن التي ترددت' إليها مكاناً مكانا وأنا أبحث عنك لكن لماذا كنت أبحث عنك بذاك الإصرار حتى الآن لا أعلم ، ألأجل أن تعاقبني ،ألأجل أن أرى ما فعلَته بك خيانتي لا أدري ٠٠ لا أدري . لكنني علمت من أقربائك كل

شيء ،من يومها وحتى الآن وأنا أتتبع كل أخبارك . لقد علمت بأنك سامحتني ولا أستطيع أن أصف لك شعوري حينها ، أنقذتَ حياتي يابشري وأنقذت سمعتي والسمعة في واقعنا هي أهم من الحياة لأن الإنسان هنا إذا مات سينتهي ، لكن السمعة السيئة ستبقى تلاحقه وتصب اللعنةعليه آلاف السنين، وعلمتني يا بشري يومها أن أحافظ على سمعتي ، إنسان بسمعة سيئة هو أشبه بزبالة تتراكم عليها القمامة، وإنسان بسمعة طيبة هو أشبه بحديقة ورود فيها جمال الطبيعة والريح الطيب وتغريد البلابل ، أتعلم كم أنا مدين لك يا بشري أتعلم ، أتعلم لم نفذ الصبر على ألاّ أكتب ، لعلك لا تدري بأنني الآن صرت قاضياً وكان من المفترض أن تكون أنت القاضي وأكون أنا مكانك في عزلة عن الناس ، لكنني أحكم الناس بمبادئك وأفكارك ، أحكمهم بك يا بشري والإنسان لهو أسمى من أي قانون ، علمتني أن عدل الإنسان لا يكون في توجيه العقاب إلى المذ نبين على قدرما يكون في توجيه السماح لهم ، علمتني أن البطولة السامية تكون في مدى القدرة على التسامح لا على العقاب ، علمتني أنني لن أكون قاضياً فاضلاً ما لم أكن قاضياً متسامحاً أكثر مما أنا قاض معاقب ٠

أصارحك يا بشري أنني منذ تلك الصبيحة الأثيمة حرّمت على نفسي الخيانة ، سماحك لي طهّر نفسي من الآثام،أدخلني إلى رحاب عالم النزاهة والنقاء والصدق ، إنه عالم حافل بالنور لم أكن أدخله ولم أكن أتوصل إليه لولاك . بشري أنا آسف على كل ما سببته لك من ألم وأنني أحني رأسي أمام ذكرك وأذرف دموع الندم ، يكفيك يا بشري أنك أصلحت إنساناً فاسداً بعفوك ، يكفيك أنك استطعت أن تزرع أشجار فضيلة في تربة نفس أثيمة .

أنهت ذكرى قراءة الرسالة ، نظرتْ حولها جيداً ثم أدمتها في حفرة خلف الخيمة .

ذكرى تحفر حضورها في مخيلته ، تسكن حواسه وفي أثناء حديثه تخرج كلمة منة بلهجة ذكرى ، تبدرحركة تقوم بها ذكرى ، ينتبه إلى أشياء

تنبهه إليها ،وبدت ذكرى كمدرسة كبرى يتعلم منها أوقات العمل والراحة ،وطريقة المشي والكلام ، وكم يخجل من إعلان هذه الحقيقية ، لكنة لا يستطيع الهروب ، فكل شيء يفضحة، مثلا أن يردد مثالا كانت قد قالته ذكرى ،أو يروي حادثة كانت قد روته ، أوفي تغيير نمط حياته . بدت ذكرى تسحره وتسيطر على تصرفاته ، وتفرض عليه كل ماتؤمن به ، حتى أنه يستمع سورة /آل عمران / عندما تغيب عن الخيمة ،ويواري عنها كل شكل للتأثر ٠لا يستطيع اكتشاف مصدر القوة الهائلة التي تدفع عينيه للنظر إلى مشيتها ، للإصغاء لحديثها ، لتناول ماتصنعة من طعام بلذة عجيبة ، للتحديق في كل حركاتها وهي تلاعب نجم لعبة رش الماء في النهر ، وأحيانًا تدفعه رغبة جامحة لارتداء ملابس سوداء قاتمة كما تلبس ، ويحلم ببنطال أسود ، بقميص أسود بحذاء أسود ، بثياب داخلية سوداء ، بجراب أسود ، وأيضاً بمشية سوداء كتلك التي تمشيها ، وكم يهرب في آخر الليل من الخيمة هرباً من لهيب رائحتها بقربة يرتعب من مجرد التفكير بالعودة إلى عالم مازال منذ عشر سنوات يهرب من جحيمه ويتمتم بيأس : ستكون هربت من امرأة لتقع في شباك غيرها ، ستعيدك عشر سنوات إلى الوراء٠ تقول وهي تحدق في نظراته إليها : يا سيْدي عندما تتضايق من وجودي لن يبقى أمامي غير النهر مرة ثانية ٠

يقول : يا ماما أنت ضيفة وأنا أعتذر عن التقصير ٠ ويسعى لإخفاء حبوره وهى تناديه / سيْدي/ ويناديها بفرح طائر: يا / ماما/ ويقنعها بأنه يفكر بحل لتعود إلى بيتها ويقنع كافور ليتركها في سبيلها ويشرح لها بأنه رجل متحرر في نمط حياته كما ترى ، وهي محافظة في طريقة حياتها ، وتحرره ربما يسبب لها الحساسية ، يواصل شرحه لها في هذا الإتجاه ، فهو في الظهيرات الحارة يكون ثملاً يتمدد شبه عارٍ على ضفة النهر يغني ويتمتم بما يخطر له ،وهي تكون بكل ثيابها حتى بالإشرب على شعرها تصلي أو تسمع سورة آل عمران ، فتقول له :

لكن ليس من حقك أن تتركني رغم كل ما ترى ، وما يجمعنا لهو
أكثر أهمية مما يفرقنا لدرجة أنه بات من المستحيل علي أن أفكر

بذاك النحو الذي تذهب إليه . إذا ذكروا أسماء ثلاثة أثرياء في البلد فإن أبي سيكون أحدهم ومع هذا فإن هذه الخيمة تساوي عندي كل قصور الملوك، وأي مكان آخرأنت فيه سيكون الأكثر أمناً بالنسبة لي .
بدأ بشري ينسجم مع الحياة الجديدة التي يعيشها مع ذكرى ولا يريد أن يتصور فراقها، لقد ملأت عليه فراغ العزلة وأحالت الخيمة إلى قصر . فهي ترتب أوقات العمل وأوقات الاستراحة وتجعل يوم الجمعة عطلة أسبوعية ، في كل صبيحة تعجن وتخبز على الصاج واستطاعت أن تقنع بشري بتربية الدجاج والأرانبب فاشترى نجم أربع دجاجات وديكاً وزوجاً من الأرانب مع ستة من صغار هما وذات يوم بينما هي تحوش الحشائش للأرانب على بعد من الخيمة وقع نظرها على غنمة تائهة فجلبتها وربطتها بجانب الخيمة بالقرب من قنَي الدجاج و الأرانب.

إن أي ناظر لمنظر الخيمة والزهور المحيطة بها يتوقف للجلوس فيها وهو ذاته يشتم لمسات أنثوية تفوح من كل ركن ومن كل ذرة تراب تحيط بهذه الخيمة التي أصبحت تشرق . أما بشري فإنه اضطر أن يقول لتجار السمك بأنه مريض وأن الأطباء وصفوا له أن يكون في مكان نظيف منشرح كي لا يغلبه المرض ، وأن نجم هو الذي يتولى كل هذا التغيير .
في الصباح بشري ونجم يصطادان في النهر وذكرى تسقي الغنمة المربوطة بجانب الخيمة ومن بعيد تتراءى سيارة يراها نجم فيقول لأبيه : أنظر يا أبي .
يدير بشري نظره فيرى سيارة قادمة صوب الخيمة وعندها يدير اتجاه السفينة قائلاً : ألا تلتفت حولها .. مليون مرة قلت لها كوني حذرة من قدوم السيارات ، كأنها لصقت بالغنمة ..
انظري خلفك يا مجنونة . السفينة تدنو والسيارة تدنو يجلس فيها شخص إلى جانب السائق يشير بسبابته : أنظر يا مرعي .. امرأة تجلس عند خيمة بشري . يفرك مرعي عينيه بيد ويواصل القيادة بيد : لا أرى شيئاً يا أبا شاهر. يقول أبو شاهر: رحم الله نظرك يا مرعي أيام كنت تصطاد

الأرانب في البرية .. امرأة يامرعي ، بعلمي أن بشري قاطع كل أقربائه ، مَنْ أتى بها هنا ، أول مرة أرى امرأة عند بشري منذ عشر سنوات !.
تفرغ ذكرىمن سقي الغنمة وتنهض ، ومع نهوضها تلتفت فترى السيارة بالقرب منها . تشعر بأن صاعقة وقعت عليها .. تنظر إلى النهر فترى بشري ونجم يهرولان ، تتسمر مكانها في ذهول دون أي حراك .

تقف السيارة جانبها ، ينزل منها الشخصان يلقيان عليها السلام، فتجيب بإرباك: أهلاً وسهلاً ها هو بشري جاء . يأتي صوت بشري سابقاً هرولته :هذه أختي جاءت تطمئن علي . ثم يصوب نظرة عجلى إلى إرتباكها : ياماما اعملي لنا ابريق شاي . تدخل ذكرى الخيمة ، تضع ابريق الشاي على النار ثم تضع كفها على خدها وتعض بأسنانها على شفتها السفلى وتتجحظ عيناها كأنهما يريدان الخروج من وجهها . يبرك بشري مع الشخصين على حصيرة مهترئة بجانب الخيمة ، يمر نجم مسلما وهو داخل الخيمة .

يقول بشري في محاولة لتجنب الحديث عن ذكرى : السمك يفل هذه الأيام يا جماعة، الناس يفجرون الديناميت ويقضون على السمك بالزهر ، حرام ، السمك ينتفخ على الشواطئ حتىالطير لايأكله . يقول أبو شاهر: أنت بنعمة يا بشري الصيادون يعانون من الجمعية التي تمنعهم من البيع للتجار إضافة للضرائب . يطلق بشري ضحكة : أنا لست صياداً لتأتي الجمعية وتعاملني كالصيادين . أنا هربت لأتسلى وأضيّع عمري . السمك الذي أبيعه لك يا أبا شاهر منذ عشر سنوات لا يكفي حاجتي من الإنبيت والدخان ، كانت سيارة الجمعية تأتي في السنة الأولى وكنت أضيفهم الإنبيت، قلت لهم : أنا لا أبحث عن النقود ، أنا اخترت هذا المكان فقط لأشرب وأنسى عمري . ومن يومها لم أرهم .
يطلع نجم من باب الخيمة حاملاً إبريق الشاي وسفرة عليها ثلاث كاسات وعلبة سكر وعلبة دخان حمراء طويلة . يجلس قبا لتهم ويبدأ في سكب الشاي وتقديمه، بعدها يذهب إلى البيكاب ينزل صندوق النبيذ . بعد

شرب الشاي ، ينهض الجميع ، بشري وأبو شاهر ونجم ساروا نحو القارب بينما تقدم مرعي سائقا البيكاب . وعندها بد أوا يزنون السمك ويضعونه في السيارة وعندما فرغوا عادوا مرة أخرى إلى الخيمة .. أخرج أبو شاهر دفتر الحساب من جيبه مع آلة حاسبة صغيرة ، وعندها قدم لهم نجم إبريقا جديدا من الشاي الساخن . بعد الحساب ناول أبو شاهر نقوداً ليد بشري قائلاً : هذا حقك كاملاً بعد أن حسمنا منه قيمة صندوق الإنبيت . وقبل أن يصعد السيارة نظر أبو شاهر إلى ساعته وقال : يا مرعي نصلي الظهر ونتيسر . فمد كل واحد شماغه على الأرض وأخذا يصليان . انصرفت السيارة ولبثوا جميعاً في اضطراب قالت ذكرى : ماذا نفعل يا بشري ؟!

قال : لا نفعل شيئاً . عندها قال نجم وكأنه لم يعد يملك نفسه: / إي هذا أبو شاهر يبيع أمه بعشر ليرات / ٠عند حلول الظلام جلسوا جميعاً داخل الخيمة يسهرون على ضوء اللمبة ، وقد خيم سكون عليهم ، ذكرى تنظر إلى بشري وهو ينظر إليها فينظران إلى نجم وكأنهم في انتظار حدث سيء لا يعرفون عاقبته. استمر السكون إلى منتصف الليل وبشري لم يشرب لأول مرة ، لكنه حطم رأس زجاجة فارغة وأحتفظ بها داخل الخيمة، تقول ذكرى : ألن تنام يا بشري .
- : لا لن أنام ، لا أريد أن يأتوا وأنا نائم ، أريد أن أكون يقظاً ، ليحدث كل شيء وأنا يقظ ٠ تقول ذكرى : مضت عشر ساعات ولم يأت أحد ، لو علم ( كافور) لأتى في نصف ساعة ٠ لبثوا مستيقظين حتى الصباح وعندها نهضت ذكرى ، اغتسلت من النهر ولفتت الغنمة نظرها ، تذكرت بأنها نسيت أن تحلبها ليلة أمس ، لنجم كي ونسيت أن تصنع اللبن فتمتمت في نفسها : لكن سأضع الحليب الساخن مع الفطور ٠ ودخلت الخيمة حملت إناء وأشارت لنجم كي يمسك لها برأس الغنمة حتى تحلبها .. أخذ نجم إناء الحليب ووضعه على النار بينما راحت ذكرى إلى قن الدجاج وأتت بخمس بيضات ثم أوقدت النار وبدأت تخبز على الصاج .. استغرقت عملية تحضير الفطور مع الخبز الساخن أقل

من ساعة فقال بشري : كان يمكن لنا أن نفطر بخبز البارحة ولا ترهقي نفسك يا ماما . قالت : ليس هناك أطيب من فطور الصباح مع الخبز الطازج الساخن ، أفضل ما فعلناه هو تربيتنا للدجاج وأن الله أرسل لنا غنمة ضائعة ٠ نظر بشري إلى أنواع الطعام : البيض المقلي .. الزيتون .. الحلاوة .. الحليب وقال : كنا قبلك نفطر السمك أو المعلبات وخبز الصمون الذي نبلله بالماء.

قالت ذكرى : أدام الله علينا النعمة وحفظها من الزوال . وبعد أن فرغوا من الفطور قالت ذكرى : أرى بأنها عدّت على خير ، ما رأيك يا سيدي ؟ قال بشري وقد أشعل سيجارة : لكن كوني حذرة في المرات القادمة ، مارأيك أن تكوني معنا هذا اليوم ؟ ٠صعدت ذكرى المركبة دون أن تتحدث واتجهوا جميعا نحو مساحات النهر نحو استقبال يوم جديد ورزق جديد .

في المساء وقفت سيارة أمام مدخل الخيمة ، نزل منها ثلاثة أشخاص اقتحموا الخيمة ، لكنها كانت خاوية ، انتظروا حتى لاحت لهم أطياف القادمين ، تقدمت المركبة إلى أن رست على الشط ونزلوا متجهين نحو الخيمة ليروا الأشخاص الثلاثة في انتظارهم ، عند ذاك صرخت ذكرى : إنه هو ، كافور . فقال ذات الرجل متوجهاً إلى بشري : أهو أنت الذي أخفاها عنا طيلة سنة ؟!.

قال بشري : سآكلك حياً إن لم تذهب الآن .

دنا إلى بشري بخطوات واثقة ، ولكن بشري قفز إليه ورماه أرضاً وصار يسدد لكلمات على وجهه، وعندما اقترب الآخران اتجه نجم إلى واحد واتجهت ذكرى إلى الثاني يمنعانهما الدنو من بشري . دام عراك لمدة نصف ساعة حتى انطلق عيار ناري ، فتوقفو جميعاً ، رفع كافور مسدسه أطلق عيارات أخرى في الأجواء ، واستطاع أن يأخذها تحت التهديد بإطلاق الرصاص ، كان له ذلك عندما تدخلت ذكرى بنفسها وترجت بشري أن يبتعد عن سلاح هذا الطائش ..بسرعة خاطفة كانت ذكرى في السيارة و دارت العجلات بين الطين وبقايا الرمل مخلفة عاصفة من الدخان غطت الخيمة وما حولها ، وما إن هدأت العاصفة

حتى كانت السيارة متوارية عن أنظار بشري وابنه . عندها هتف نجم بغصة مَنْ فقد شخصاً حميماً : أتظن أن كل شيء قد انتهى يا بشري . ولم ينتظر الإجابة.. ذهب شطر حافة النهر يقذف ما يقع في يده من حصى بقوة وكأنه يجرب عضلاته ٠
في هذه الأثناء دخل بشري الخيمة، فتح زجاجة نبيذ بأسنانه وجرعها على دفعتين في محاولة أخيرة للهرب من طيف ذكرى وما تركته من حضور بهذا الإختطاف القسري ، لكن الحضور بدا أكثر اشتعالاً مع أخذ النبيذ مفعوله : ليس للإنسان إلاّ الإنسان يا بشري لذلك أنا أرفض عزلتك .

أتظنين أن بوسع هذا الإنسان أن يحتمل كل الآلام التي تقع عليه فجأة كالصاعقة ،عندها سألتُ نفسي : يا إلهي أيمكن للإنسان أن يعيش مخدوعاً خمس سنوات مع من يراها كل يوم أكثر من أي شخص آخر ، هل تظنين أنه كان علي أن أواصل الحياة كما أن شيئاً لم يكن ، لقد انفجر الخبر بنظري في المدينة كبر كان ، وعندها كل شخص ، كل رصيف ، كل شارع ،
كل زميل ، كل قاض ، كل قريب ، كل شجرة ، كل جار ، وكل ما في البيت كان سيصرخ في وجهي :
إنه أنت الذي أمضى خمس سنوات مخدوعاً .

عشر سنوات في هذا الضياع ما تزال تهدئني ما تزال تحيل ما وقع إلى حادث وقع في الماضي وتراكم عليه الغبار ، لقد كان هذا القرار بديلاً عن قرارات كثيرة أقسى وقعاً من هذا كله.

تقول له بعد شهرين من وجودها : يا بشري كنت في البيت دوماً أستمع لسورة آل عمران .
في صبيحة اليوم التالي يرسل نجم ليحضر شريطاً مع آلة تسجيل صغيرة وعلبة بطاريات .

هاهي ذكرى تقع عليه في المنخفض المجاور للخيمة يشرب ويدخن وعندما يسمع صوتها يخفي الزجاجة ، هاهي تمسك بيده تعيده إلى الخيمة ، تمد يدها إلى زجاجة ، تفتحهاوتملأ له كأساً : اشرب يا بشري في خيمتك بعد اليوم ، سأكون مطمئنة عليك .
وها ذكرى بحضورها تجلب أنواع الزهور .. أنواع ما يمكن أن يؤكل من تعاشيب ، تصنع الزهورات .. في يوم تقود غنمة كانت تائهة ، تصنع اللبن تقدم لهما الحليب صباحاً وتهتف ذات مساء لا ينسى : لقد جعلت يا بشري هذه الخيمة أحب إلي من قصور العالم والنوم فيها أأمن من كل أسرة الملوك .
وتحترق روحه بنيران الذكريات خطواتها تناديه من كل ذرة تراب ، من سكون النهر ، من زجاجات النبيذ الفارغة التي كانت تلملمها في المنخفض ، من الورود التي زرعتها حول الخيمة .
- ما الذي يدفعك لكل هذا الإرهاق يا ماما كوني مرتاحة كأميرة .
- ألا أريد أن أعطي شيئاً لمن أعطاني كل شيء .
لكنك تبذلين إرهاقاً أكثر منا ، من الفجر وحتى نصف الليل .
و إن لم أقم بهذا ما الذي سأفعله أكره ألا أعمل لساعة واحدة ، ألا ترى أن الإنسان جاء ليعمل ويعمل فقط ، ألا ترى أن هناك راحة طويلة أطول مما نتصور ألا ترى يا سيْدي بأنك رغم موقفك تعمل حتى الإرهاق لتكون منتجاً وليس عاطلاً عن العمل ألا ترى كم أسرة ترتزق من أسماكك ألا ترى بأنك تقدم لمن هربت منهم طعاماً شهياً ، وما الذي تراه فيما أقدمه ألا ترغب نفسك أن أكافئها أن أزرع لك زهرة أن أمنحك لبني وحليبي . .

ينظر إلى نجم الذي بدا أكثر كآبة منه ويتذكر قولها له : يا نجمي ألا تحب ألد راق والتين والليمون ، ألا تريد أن تحمل شيئاًلأمك الصغيرة من المدينة في الأسبوع القادم .
وتغدو هواية نجم شراء الدراق و التين والليمون لها كلما نزل المدينة .

هاهو مخمور في ليلة باردة يخرج مترنحاً إلى ضفة النهر ، يتحسس وقع خطاها خلفه ، ستجلس على البعد في العتمة حتى تراه ينهض للعودة، لكنه يلكم بمنخفض و يقع قبل وصوله الضفة فتهرع إليه ، ترفعه ويمضيان إلى حافة النهر ، ترى أن الشرب أثقله فتقول : لكنك يا بشري تصير أكثر وضوحاً ، تصير أكثر شفافية ، أكثر نضجاً ، أكثر امتلاءً وأنت تشرب ، لقد غيرت مفهومي عن الشرب ، كانوا يقولون لي أشياء أخرى عن هذا العالم .
يتمتم بألم :هاهي لحظات طيبة أمضيها معك لكنني خائف من استيقاظ الجرح ٠
عندما طلبتُ باهرة للزواج جاءني صديق وقال لي كلمات لاأنساها ، قالها بغضب وكأنه يشد أذنَي : يا بشري هذه مغامرة ، أنت تراهن على مستقبلك ، باهرة امرأة جاهلة أمضت حياتها في بيت منغلق ، وأنت تتزوج كضربة حظ ، عليك أن تتعرف عليها وتكتشف طبيعتها بطريقتك ثم تتخذ قرارا كبيرا كهذا ٠ أعلم بأنها لاتنتمي لأسرة عريقة ، ليست متدينة ، لاجمال بها ، تربيتها متواضعة ، لاعمل لها ، ستكون عبئا عليك ، فتضطر لتتحملها ، أو تضطر لتتغابى حتى تنسجم معك وتنسجم معها . يابشري هذه طامة ، حتى أنها في المستقبل لن تمنح أولادك خالا طيبا أو خالة طيبة ، ولاتمنحهم جدا ناضجا ولا جدة عطوفة ، هؤلاء يتشاجرون مع أعضائهم ، لاتنجح في الدخول إلى عالمهم ، ولا هم سيقبلون الدخول إلى عالمك ، هناك تاريخ كامل يفصل بينكما ، تاريخك الذي خلفته ، وتاريخها الذي خلفته ٠ لن تكون لك قرة عين ولا قرة قلب ، ولا تصدق أن عينك سوف تقر برؤيتها ولا حتى قلبك . لا أدينها ياصديقي ، فهذا هو الواقع الذي نمت فيه وهي تصلح لمن نما في واقع مثله ، هذا هو الوفاق ٠ هل تريد للنحلة أن تحط على الزبالة وللذبابة أن تمتص رحيق الوردة لتمنح العسل ، حتى لو منحت الذبابة عسلا فإنه سيكون عسلا فاسدا ولا أحد يقربه ٠ لماذا نهرب من الوقائع ونصر أن نضع الذبابة على الورود ، لا أدين الذبابة لأن هذا هو طبيعتها ، ولكنها الحقائق التي علينا أن ندركها ٠

- لكنني ياصديقي بحاجة إلى امرأة ، أي امرأة ، عجزت من البحث عن المرأة التي أحلم بها ، يبدو بأنها غير موجودة ، هل سأنتظر إلى آخر العمر ٠العبارة التي تصدر من أي شخص يلتقيني بعد السلام وأحيانا قبله : هل تزوجت ؟ ضجرت سماع هذه العبارة ٠أمام هذه النداءات التي لاتنتهي ضجرت الوحدة في بيت مغلق علي ٠اختلت كل الموازين يادكرى فقلت بيني وبين نفسي : صديقي على صواب ، لكن لتكن مغامرة العمر ، علها تصيب وتنقلب الموازين ٠ أجل اتخذت قرارا مزلزلا كهذا وأنا في حالة مضطربة لاتؤهلني لاتخاذ قرار سوي حتى لشراء قميص من البالة .

هل يعرف نجم شيئاً عنها ؟.

- قلت له كل شيء ، فصار يرى بأنها قضيته أكثر مما هي تعنيني و يرى بأنها لم تحترم مشاعره عندما نامت مع غير أبيه ، يرى بأنها خانته وخدعته وصار من يومها يكرهها كرهاً غريباً ولا يتصور أن ينظر إليها حتى النظرة الأخيرة في الموت . أتصور أن صلته بها تحمل له الألم أكثر من صلتي بها ربما لأن الأم هي أقرب من الزوجة وربما لأنها بكلمة واحدة يمكن أن تذهب الزوجة وتحل زوجة أخرى بدلاً عنها ، لكن الأم هي واحدة ولمرة واحدة ولا يمكن لأحد أن يحل محلها ، لا يمكن لأحد أن يولد مرتين ولكن يمكن أن يتزوج مرتين وأظن عندما أنسى سيكون هو في ذروة معاناته التي ستكون حادة عندما يتزوج وينجب ويرى الأمومة مرة أخرى في بيته . عندما يأتي ذكرها وأرى حجم ألمه يجعلني أكثر قلقاً على مستقبله ، لقد طلب أن أغير اسمه الذي أسمته إياه أمه ، قلت له بأنني سأعيش في ليل طويل ما رأيك أن تكون نجمي الوحيد في هذا الضياع .

فقال :أنا نجمك يا أبي ٠ من يومها صار اسمه نجم بدلا عن عقبة ، يؤنسني في ليالي الوحدة والضجر إنه أنيسي الوحيد في هذا العالم ، كنت أقول له : يا نجم تعال واشرب معي ، شرب سنة واحدة هي سنته الثانية عشرة لكنه أصبح يكره الشراب ولا يطيقه . ها هو نجم يبدو أكثر ألماً يشعر بحجم الخسارة الفادحة مرة ثانية ،

المرأة الوحيدة التي كان يمكن لها أن تمنحه قليلاً من عاطفة الأمومة المفقودة ، المرأة الوحيدة التي تقول له بكل ما في الأمومة من رقة وعذوبة : / يا نجمي /.
مضى الليل كدهر ، وعقبه نهار لاضوء فيه ٠ ثلاثة أيام متتالية مضت عليه دون أن يغفو لحظة ، إنه يقظ كنسر ، في فجر اليوم الرابع بينما كان مستلقيا في الفراش جوار نجم
انتفض كجبل وانتفضت معه كل الصور المتراكمة في الذاكرة دفعة واحدة ، وانتفض نجم من رقاده خائفاً على أبيه لأول مرة عندما رآه يترك الخيمة و يتجه في ذات الدرب الطويل الذي أخذ ذكرى : المدينة بعيدة يا أبي والمكان مقطوع ألا تنتظر الضوء؟ . لكنها ذكرى يا نجم ، ذكراي ، وذكراك . قالها وخطا خطوات واثقة في الدرب ، مشى دون أن يتأمل أي سيارة تتوقف لتحمله.
كان يزداد امتلاء بأنه يمضي نحو مَنْ تنتظر منه هذه الخطوات أو أنها تناديه .
عند الظهيرة أشرف على دخول المد ينة وعندها فقط أدرك أنه قطع مسافة أربعين كيلو متراًعلى قدميه، اتجه نحو بيت عمها وهو على معرفة بأسماء أولاد عمها وأسماء إخوانها و أخواتها وخالاتها وبنات خالاتها ٠ من مدخل الشارع تناهت له خيمة ضخمة ، دنا إليها بقلق ، لمح بعض أشخاص على شبه بها ، كان هؤلاء يستقبلون المعزّين ويودعونهم ، دخل الخيمة بخطوات باردة وقد نسي إنهاك الطريق ، ولما صافح أحد هؤلاء أقسم بأنه شقيقها ،عندما باوسه معزياً فاحت رائحتها بقوة منه ، تمتم قائلاً : البقية بحياتك ، دون أن يعرف شيئاً سوى أنها خيمة عزاء بدت منتصبة حديثاً ، وقد أدرك لدى جلوسه بأنه ترك لديهم إنطباعا عن شخص مخبول جاء يدخن سيجارة ويمضي بعض الوقت تحت خيمة عزاء وينصرف ، وتحسس هذا الشعور لدى نظرات الجميع إليه .. شخص يبدو أطول من جميع الحضور ، ضخم الجسد ،، تبدو آثار نعاس دائم في عينيه المتورمتين ، لكنه يبدو قوياً ونشيطاً كحصان ،

يدخن بفظاظة ويرشف إبريقاً كاملاً من الماء من يدي صبي تقدم يسقيه ، عند ئذ همس لمجاوره : ما حدث يا صديقي ؟.
يا سيد ثلاثة شباب راحوا في شربة ماء ، اسمع لما علم المرحوم كافور مكان ابنة عمه الهاربة منذ سنة أخذ معه عاملين من عماله في القرية وأعادوها، في الطريق اصطدمت سيارتهم بستير محروقات ، البنت وحدها أصيبت ببعض الجروح و نجت من الحادث بقدرة قادر ، يقولون بأنها تتلقى العلاج في المشفى .
عندئذ انتفض بشري دون أن ينتظر لحظة واحدة ليكمل الرجل حديثه ، انتفض فاقد الصواب متجهاً إلى المشافي يبحث عنها إلى أن وقع عليها في إحدى المشافي الخاصة ، انبعث إلى غرفتها كالسحر ، وأحست هي أيضاً بسحرية الموقف لحظة وقعت عيناها عليه وبدون وعي أرادت أن تتأكد بأنها ليست في حلم ، انتفضت من السرير وسقطت على الأرض بينه وبين سريرها ، لم تستطع الأم أن تخفي استياءها ودهشتها وظنت هي الأخرى بأنها في غفوة من جهة مظهر هذا الداخل ، ومن جهة انتفاضة ابنتها ، ولكنه سارع في حملها على يديه كما يحمل أرنبة ووضعها على السرير ، عندها تمتمت بالكاد : / سيدي / وبدت تقاوم آلام السقوط على الأرض وتجاهد لفتح عينيها والتحديق في وجهه . كم شعرتْ برغبة جامحة لاحتضانه أو لمد كفها إلى كفه ، لكنها تملكت أن تقمع هذه الرغبة كما تملكت أن تقمعها طيلة سنة كاملة على النهر ٠ جلس على كرسي قبالتها والأم ما تزال تنظر إليهما بدهشة فاضحة ، قال وهو ينظر إلى ذكراه : هل أستطيع أن أفعل شيئاً يا ماما ؟٠
اعتراها شعور غريب بأن حياة كاملة أشرقت في أعماقها ، وكم شكرت الله بأنها لم تمت ، فقط حتى تعيش هذه اللحظات من إشراقة الحياة ، هل يمكن أن تتلخص الحياة كلها وبهذه القوة في شخص واحد .
- هاهو الله ينقذني مرة أخرى ، يبدو بأني مستعجلة كثيراً وأنه متريث في هذه المسألة٠ والتفتت إلى أمها : هذا هوا الشخص الذي حمى ابنتك سنة كاملة في خيمته المهجورة ، هذا هو الشخص الذي لا يمكن تقديمه بالكلمات ،لا يمكن التعريف عليه إلا عبر معاشرته .

أعتذر منك يا سيدي لأن كل ما لدي من كلمات ومشاعر لا تكفي للترحيب بك ، لكنك تدري أن طاقة الإنسان محدودة ، إنهم اعتبروني السبب في موتهم وقاطعوني ، فقط أمي جلبتها أمومتها إلي . عندها نهض بشري عائدا إلى خيمته ، تلقاه نجم قائلاً : أين ذكرانا يا والدي ؟
.
في المستشفى .
تلقى نجم هو الآخر النبأ كالصاعقة وفي صبيحة اليوم التالي راح بمفرده يحمل باقة ورد إليها.
عزم بشري على خوض تجربة نسيان أخرى ، لكنه أدرك بأن التجربة أقسى من الأولى ، فكل ما في الخيمة يصرخ بها : الزهور المزروعة في قناني النبيذ التي تسوّر الخيمة ، رائحة النعناع البري المحيط بالخيمة ، نمط الحياة الجديد ، صوت الغنمة ، ثيابها ، أغراضها .. كل شيء يتفوّح برائحتها ، إنها المكان ذاته ، وأحس بشري لأول مرة بالضعف في المقاومة ، حتى النبيذ الذي يتناوله يملأ حواسه بحضورها فيلتفت علّها تنتظره في العتمة ، كل ما في المكان ينادي بها. شهر مضى عليه شهر وهو فاقد لأي رغبة في العمل أو الحياة ، ويبدو استسلامه واضحاً أمام حضورها ومقاومة هذا الحضور ونجم يراقب ذوبان أبيه الذي يهزل يوماً بعد يوم ، لا يتناول سوى النبيذ ولا ينام إلا في إغفاءات سريعة متقطعة لا يلبث معها أن يمد يده إلى زجاجة النبيذ.
يعلو وجهه الصفار وكل عضو فيه يرتجف كمن سيقضي بعد هنيهات ، لم يترك صخرة إلا ونحت اسمها ، لم يترك جذع شجرة ، لم يترك مكاناً في المركبة والخيمة . تناديه أغراضها في الخيمة ، يتأ ملها يشتم رائحتها يسمع صوتها يرى صورتها على كل غرض : الآن يا ذكرى وقد انتصف الليل أشعر بحاجة لاتطاق إليك ، أشعر بشوق فوق طاقتي لسماع ولو نبرة واحدة من صدى ذاك الصوت السحري ، إنني ياسيدتي ، أجل أقولها ولو مرة واحدة بيني وبين نفسي ولأجرح عزة نفسي ولو مرة واحدة ، أجل ياسيدتي إنني أبدو أضعف مخلوق في العالم وأنا أترنح تحت ثقل جبل الشوق ، وأكثر مخلوق في هذا العالم حاجة لتكوني بقربي

وتطبعي على اشتعالي قبلات انطفاء ، لكنك تبدين أكثر بعدا عني من أي شعور آخر ، هل أنت نائمة أم تتأملين نزيف شوقي بصمت ٠ تقع عيناه على كاسيت ، تسري نشوة في حواسه ، إنه الكاسيت المسجل عليه حديث جلسة ثلاثية حميمة كانوا اتفقوا على تسجيله .
إنها ذكرى التي تنام في هذا الكاسيت، ناوله لباب المسجلة الصغيرة ، إنه الصوت هذه المرة الذي يسحره ، صوت ذكرى، أعذب صوت وقع على مسمعه ، إنها أرق كلمات سمعها من فم مخلوق :
عشت عشرين سنة سأضعها على طرف أمام هذه السنة التي عشتها معك ، أنا مدينة لك بتعلم أشياء كثيرة ، إنها السنة المقدسة التي سأبقى أجلها عمري ، أمضيت سنتين حتى حفظت القرآن ولكن الآن علمتني أن الإنسان يحتاج لأن يتعلم من الإنسان أيضاً .
- ولكن بعض التعلم يحمل قسوة .
- (وأما الزبد فيذهب جفاء وأما ما ينفع الناس فيمكث في الأرض) .
- ما أزال حزيناً على ما أصابني ، ما أزال أتألم .
- ( ولا تحزن عليهم ولا تكن في ضيق مما يمكرون ) .
- يبدو لي بأنني انقطعت حتى عن الله .
- ( إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوابالحق وتواصوا بالصبر ) العمل طقس من طقوس العبادة التي هي تواصل مع الله ، أليس هذا جهاداً في سبيل ألا تموت جوعاً ، ألا تكون صالحاً وأنت تطعم طفلاً وتربيه ، وأنت ترفض الخيانة ، وأنت تصبر على ما أصابك ، وأنت تقوم بإعالتي .
وهل الأعمال الصالحة هي غير الحق والصبر والمعرفة والتربية والعمل والصدق والكرم والمروءة : ( ليميز الله الخبيث من الطيب ويجعل الخبيث بعضه على بعض فير كمه جميعاً) . الطيب لا يلبث مع الخبيث والخبيث لا يلبث مع الطيب .
يتمتم في ذروة اليأس : لكنها ذكرى التي ترفض هذه المرة أن تتحول إلى ذكرى .

مضى شهر ونصف على محاولاته اليائسة و ذات عصر جاء هتاف نجم كأنه الصدى : يا بشري جاءت ذكرانا .. كان آنذاك بشري يقبع على النهر فانطلق إلى مصدر الصوت الذي غدا كالصدى في أذنيه : ذكرانا .. ذكرانا ..ذكرانا . كأن ملاكاً هبط من السماء وحمل إليه البشرى ، أشار نجم بيده ، ونظر إليها تتقدم من بعيد ، هرعا إليها ، كان نجم هو الذي قذف بنفسه في حضنها يباوسها بحرارة ويبكي، وهي تقبله كأنه نزل من بطنها ، عندها لفت منظر بشري نظرها فقالت : هل ألم بك مرض يا سيدي ، سأقضي كل عمري وأنا أخدمك . لا حظ نجم أن الدم بدأ يصعد إلى وجه أبيه وقال : كان بشري مصابا بمرض الشوق .

- : اليوم صار بإمكاني أن أمشي وقررت أن أفي بعهدي لنفسي ، عندما علمتُ بأنك جئت إلي مشياً ، عاهدت نفسي وأنا في السرير بأن خطوة الخروج الأولى من البيت ستكون باتجاهك ، تركت البيت في التاسعة صباحاً لم أقف للحظة واحدة وأنا أمشي ، كل لحظة وقوف كانت ستؤخرني عنك ، لم أشعر بإرهاق الطريق لأنني كنت ماشية إليك ، أكثر من عشر سيارة وقفت لتحملني لكنني رفضت أن أصلك إلا مشياً .

وعادوا جميعاً إلى الخيمة ، رأت كل شيء في ركنه ، قرأت اسمها على كل الأماكن ، نظرت إليه وقالت : هل تقبل أن نعيش معاً يا بشري ؟

قال بشري بدون أي لحظة من تردد : هل تقبل يا سيد نجم أن تأتي معنا وتخطبها لأبيك .

وعند ذاك انطلقت ضحكة مشتركة منهم واتجهوا كشخص واحد صوب المدينة تاركين الخيمة وراءهم .

# الفصـل الثانـــــي

أمضى بشري شهرا يتنقل بين الأقرباء وهو يبحث مع ابن أخته صدّيق عن بيت يتزوج فيه إلى أن وجد صديق بيتا مناسبا بالأجرة في حي شعبي ، وكان قد بقي لديه مبلغ من قيمة الشقة التي باعها فاشترى به آثاثا للبيت وترك منه ما يشتري به أمتعة وذهبا وهدايا لذكرى ٠ في اليوم التالي على تجهيز البيت اتجه بشري مع أخيه زهدي وأخته كانونة وعمته عائشة إلى بيت السيد شوقي يطلبون ذكرى للزواج ، فوجدوا مرونة منه وقال بأن مطلبه الوحيد أن تكون ذكرى راضية ومقتنعة ويكفي أنه ضغط عليها في الماضي بهذا الأمر وقد أنقذها الله له ٠ اتفق بشري وذكرى أن يكون الزفاف بعد شهر آخر حتى يمضي وقت أطول على حادث ابن عمها ، عندئذ كان الزفاف بدون حفلة ولازغاريد وكأنها كانت على خصام وعادت إلى بيت زوجها .

ها أنت يا بشري عدت إلى طقوس المدينة نسيت عالماً من الصمت والسكينة والهدوء ، مرة أخرى أعادتك المدينة إليها هل أنت مستعد لهذه العودة .. ها أنت يا بشري تسكن بيتاً بالأجرة كشخص يبدأ حياته للتو . التجربة المكررة مرة لكنك تحتملها من أجل هذه المرأةالتي تملأ عينيك وعروقك وحواسك ، إنها هي المدينة هي مَنْ أعادتك لأنك لا تريدها أن تعيش في عزلة ، لأنك لا تريد أن تراها منعزلة في خيمة مهجورة .
تقول ذكرى :
الإنسان عندما يصر على فكرة فانه يحققها أظن بأنني انفتحت على الحياة عندما وقعت عيناي عليك لأول نظرة تلك النظرة حملت إلى روحي شعوراً لا أظن بأنني سأعيشه مرة أخرى كانت نظرة سحرية كالمفاجأة، يبدو أنها نظرة واحدة مقسّمة على كل إنسان ينظرها لمرة واحدة أوقد لا ينظرها طوال عمره فتموت معه .

لكنني نظرتها إلى وجهك المشرق لكنها فعلت بي ما فعلت، ها قد تزوجنا يا بشري ها نحن نسكن بيتاً بدل الخيمة .
ينظر إليها بشري : وأنت في كل هذا التدين لا تفوتك صلاة لا يمضي يوم بلا قراءة قرآن تكادين تصومين كل اثنين وخميس ألا يضايقك شرابي ؟
- إنه يضايقني لأنه يؤذيك لأنني أخاف أن يأخذك مني لكن ما يربطني بك لهو أقوى .
- ألا يضايقك عملي في مطعم أخي زهدي بدل المحاماة ؟.
يضايقني لأنك تقدر على مساعدة الناس أكثر من هذا المكان يمكن لأي شخص أن يقدم طعاماً لجائع ، لكن لايمكن لأي شخص أن يبرئ مظلوماً ، ما يسرني هو سعادتك في شرابك وعملك إنك سعيد بهما وهذا ما يجعل سعادتي تغلب ضيقي .

ما يهم هو أن تبقى نزعة المقاومة حية في ضمير الإنسان ألا يستسلم أن يرفض الهزيمة . الطير الحر يرفض أن يقيم حياته في القفص وفي النهاية يرى الموت أكثر سمواً من ذاك القفص كذلك الجندي الشجاع يفضل أن يجهز على نفسه بعيار ناري على أن يرى نفسه في أسر العدو يتعرض لما هو أمر من الموت ، الموت في كثير من المواضع يحفظ الكرامة ، لذلك كانت مريم تتمنى الموت عند ما رأت نفسها في موقف حرج يقال لها :/ يا أخت هارون ما كان أبوك امرأ سوء وما كانت أمك بغياً / . لقد نادت : / يا ليتني مت قبل هذا وكنت نسياً منسياً / . ولم تكن تهدأ لولا أن ظهر ما يجنبها هذا الإحراج .
هذا ما أصابني يا سيدي عندما رأيت بأنني سأدخل الأسر يبدو لي أن مهمتي الأولى في الحياة هي حفاظي على أكبر مساحة من النقاء ، وعندها فقط سأتذوق نكهة الفرح الحقيقية ، أتذوق الحياة لحظة بلحظة لأنني أقف شامخة على كنز نقائي الذي يجنبني كل شكل من أشكال الجبن والذل واليأس والرضوخ للأمر الواقع ، كنت دوما أقول لنفسي أن أولئك الذين يخسرون نقاءهم الروحي يفشلون في أن يتذوقوا أي لحظة

من النجاح والفرح ، وصفاء الذهن ، وفي ذروة المحاولة الجادة ستتراكم كل مواقف الخيانة والتلوث الروحي لتفسد عليهم كل شيء ٠ لقد قاومت حتى النهاية لكن الطرف الآخر كان أشد ظلماً وعدواناً علي حتى رأيت في الليلة الأخيرة أن ألجأ إلى الله عبر النهر ، ويبدو بأنه قادني إليك ليريني بأنني كنت على خطأ وأن الحياة لا تنتهي عند مرحله واحدة أو عند شخص واحد أو حتى في بلد واحد وأنني كنت متسرعة وكان علي أن أستعين بطرق أخرى للخلاص . ها أنا أنفتح على حياة جديدة . هذا هو التنوع الذي دوما يبهرني يابشري ، لو نظرنا في عشرة أخوة سنكتشف أن لكل واحد خصوصية في كل ميزة رغم أنهم ينتمون لأب واحد وأم واحدة ، وهذا يفتح أمام خيالي أفقا أوسع لأرى كيف أن الدمع يختلف عن الماء ، وعن العرق ، وعن البصاق ، كل ماينفرز من الإنسان يتمتع بخصوصية مستقلة، وأرى آلاف اللغات والألوان والطبائع والعروق رغم أنهم جميعا ينتمون إلى الأب الأول والأم الأولى وإلى خالق واحد ٠ ولكنني سعيدة بكل هذا الإنفتاح على العالم ، سعيدة بأن الله منحني فرصة أن أرى وأنفتح على كل هذا الذي يحقق لروحي متعة الإنتماء إلى هذه الأسرة البديعة ، تتحقق مشاعر المسرة في الروح على قدر مشاعر الإنتماء إلى العائلة البشرية ، ولذلك فأولئك الذين يشنون الحروب على الآخرين يخرجون عن إنتمائهم لهذه الأسرة مع الخطوة الأولى لإطلاق نار على كائن بشري حي ٠الحياة أوسع من أن نضيقها على أنفسنا .
علمتُ الآن أكثر من أي وقت مضى بأن الله دوما على صواب ، وما أزال أحياناً أظن بأنني انتقلت إلى حياة أخرى وأنني أعيش هذه المرحلة الآن بعد مرحلة الموت في النهر .

أجل يا سيدي لا أذكر شيئاً ولا أدري كيف انقدت إلى شباكك وكيف لم أمت هذا إن لم أعش الآن المرحلة الثانية التي أظنها . أذكر بأنني في الليلة الأخيرة استأجرت سيارة خاصة أتت بي إلى النهر كان المطر ينزل بغزارة و كنت أحمل بيدي قرآني وأرتعش تحت المطر والريح

والرعد . أذكر بأنني جلست تحت المطر ساعات طويلة أردد في نفسي آيات وأمسك القرآن بيدي ، بعدها شعرت بأن دفء النهر ينادييني .. دنوت منه بشجاعة أذكر بأنني ودعت الحياة كلها . عندما قذفت بنفسي في النهر كنت أرى مصير عزيزة في انتظاري إذا رضخت لذلك الشخص القاسي عليه رحمة الله .الكلام وحده لايؤدي إلى شيء إن لم يقترن بالأفعال ،عندما أقول بأنني مؤمنة ، علي أن أعيش حالة الإيمان ، علي أن أقدم مواقف إيمانية ، كل شيء يمكن له أن يجري على اللسان ، ولكن الذي يثبت هو ذاك الذي يصدقه العمل ٠

قلت بأنني أرفض ذاك الشخص ، ولكن لوسمحت لأحد أن يغير قراري ، لكان علي أن أسمح لغيره أيضا أن يغيرأي قرار آخر، و لرضيت أن أكون كائنا بلا قرار ، وعندذاك كان يمكن لي أن أتنازل عن أي قيمة أخرى لأنني لست متملكة لقراري ٠كان علي أن أقدم موقف ( لا ) بعد أن لفظتها ، وعندما قلت لك ( نعم ) كان علي أن أقدم الموقف ، أولئك الذين ينتظرون الآخرين ليفكروا عنهم ويرسموا خطا المستقبل في دروبهم ويتخذوا القرارات نيابة عنهم ، أولئك الذين يبقون تحت سن الرشد مدى العمر، ويبقون تحت الوصاية مهما تقدمت بهم السنون ، لا يكونوا موضع ثقة لمهمة تقشير بيضة لأنهم سوف يفشلون بها ، فكيف سينجحون في بناء بيت سعيد وتقديم جيل واثق للمجتمع .

كانت عزيزة في السادسة عشرة من عمرها عندما أجبروها على الزواج من ابن عمها كانت ممتلئة ، طويلة القامة ، مليحة الوجه ، رشيقة ، تتفتح للتو كوردة في أول الربيع وكان مروان وهي تسميه / مرضان / نحيفاً كأن لا لحم فيه ولا دم ، أسمر الوجه ، قزم القامة ، في الثلاثين من عمره .
وزواجها لم يبعدها عنا فكنا نراها كل أسبوع ، أما نزورها عندما تكون في بيت أهلها المجاور لبيت أهلي أو تزورنا في البيت ، هذه المرأة علمتني درساً لن أنساه.

بعد سنتين من زواجها جاءت عزيزة إلى صديقتها ذكرى وهي تحمل بيدها طفلاً وفي بطنها جنيناً ولأول مرة تحدثت بجرأة ، رفعت الحياء بينهما حتى أن ذكرى صُعقت بما سمعته من صديقتها و أصيبت بحالة اكتئاب، قالت عزيزة : يا ذكرى جئت خصيصاً من أجلك، عندما علمت أن كافوراً سيتزوجك بالقوة ، جئت خصيصاً يا ذكرى لأعطيك خبرتي التي لم أستفد منها لأنني كنت ضعيفة ، وكذلك لم أكن متربية بشكل جيد بسبب إهمال أبي لي منذ أن طلق أمي وأنا في السنة الأولى ،وكانت زوجة أبي لا تتعب نفسها من أجل تربيتي وتوجيهي .
رأيت نفسي في حضن شخص لا أطيق حتى رائحته وكلما هربت منه ضربني أبي وربطني ثلاثة أيام ثم أعادني إليه حتى مللت هذه العادة .
كنت أقول لمرضان : يا روحي ، وفي نفسي : يا سافل، وأقول له : يا قلبي ، وفي نفسي : يا جبان ، وأقول له : يا عيني ، وفي نفسي يا خبيث . عندما يكون في العمل أدعو الله ألا يعود أن تدهسه شاحنة كبيرة ، وعندما يعود أهرع لاستقباله وأقبله من عينيه أمام أبويه وإخوانه .
ولكنني اكتشفت بأنني الوحيدة التي دفعت ضريبة هذا النفاق ، كنت أريد أن أخمد النار بالنار فازدادت النار لهيبا على روحي ٠
كانت لدي رغبة في الانتقام منه ومن كل عائلته رغم صلة القربى ولذلك انتهزت فرصة زيارة صديق له وبنيت معه علاقة وهذه العلاقة جرتني إلى علاقات أخرى لدرجة أنتهز فرصة دخول أي صديق له لأتعرف به حتى لو كان هذا الصديق يتحدث عبر الهاتف ، إضافة إلى علاقات مع بعض الجوار ، يبدو لي بأنني أشغل نفسي بهذه الخديعة الكبرى حتى لا أموت قهراً فقد نسيت كل ما أصابني من فشل ، وما يشغلني هو مدى حرصي عليه حتى لا يكشف علاقاتي ٠
هذا كل ما يقلقني ليل نهار هذا هو الهدف الذي أعيش من أجله حياتي ، يالـه من هدف سخيف ، لكن ماذا أفعل عندما يكون التآمر عليّ بهذا الجنون .

أصارحك وأنت صديقتي بأن هذا الربع رجل لا يستطيع أن يطفئ شهوة دجاجة وأحياناً ينسى نفسه شهراً ولا يأتيني ، وأما إذا تنشّط في الربيع مثلاً فإنه يأتيني كل عشرة أيام وفي اليوم التالي لا يذهب إلى العمل بسبب الإنهاك الذي يصيبه .

كل مافي زوجي يبعث التقزز في نفسي ، يعمل آذناً في دائرة يصنع الشاي والقهوة والزهورات للمدير و ضيوفه و كل نهاية شهر يسرق من دائرته السكر والشاي والقهوة وعلب الزهورات ويأتي بها إلى البيت ، وكل من في البيت يشرب هذا المسروق . لديه طبيعة أخرى هي أنه يستدين النقود من الناس ولا يعيدها إليهم، إنه يتلذذ بطلب الدين من الآخرين حتى لو كانت ليرة واحدة فانه يستدينها ولا يعيدها٠ كل يوم يطرق الدائنون علينا الباب فيقسم بأنه لا يملك شيئا، وهو يملك ما يفي هذه الديون وهي صغيرة ، يوجد حوالي عشرة أشخاص يطرقون بابنا وكل واحد لا يزيد دينه عن خمس مائة ليرة، الأمر الآخر أنه يأتيه مراجع يحتاج إلى توقيع سريع من المدير ولكن المدير يؤجله ، عندها يطلب زوجي من هذا المراجع نقودا مقابل التوقيع ، فيدخل إلىالمدير بمذلة ويتوسل إليه كاذباً عليه بأنها معاملة قريبه أدخلها لوجه الله للتوقيع ، فيمهر ها المدير قبل أوانها ، يخرج كأنه انتصر ويخبرني بانتصاره .
إنه يفسد أي مكان يحل فيه ، قال لي بأنه عند ما كان طالباً ابتدائيا كان يسرق ما يرى من حقائب ز ملائه والآن عندما يسمع كلمة محظورة يوصلها ويقول لي : اليوم خربت بيت فلان ، ويضحك ولعلك لا تصدقيني إذا أخبرتك بأن الشتاء هو أسوأ فصل عندي فقط لأننا نغلق الأبواب والنوافذ وننام في الداخل . الروائح الكريهة تملأ الغرفة وتكاد تخنقني ، أحياناً أصرخ به : انهض أفعلها في الخارج لقد خنقتنا فيجيب : تعوّدي عليها مثلي . فأتخيل بطنه برميلاً من الغازات وقد تسلط ثقبه على حاسة شمي طوال هذا الفصل .
أما إذا أراد الصلاة في الجامع ، فإنه يرتدي حذاءً بالياً ويعود بحذاء جديد ، اكتشفت فيما بعد أنه إتفق مع بائع للأحذية المستعملة بأن يأخذ إليه أول

كل شهر حصيلة ما أخذه من أحذية المصلين الجديدة فيعطيه البائع مبلغاً إضافة إلى أحذية بالية ليستبدلها مرة أخرى ورغم كل هذه المأساة لا تفوته جمعة إلا ويصليها في الجامع وأحياناً يتردد إلى الجامع في أوقات أخرى فأنفجر في وجهه : بس أنت ما تصلي يامروان .
يقول ضاحكاً : الناس بدهم مين يضحك عليهم ، مادام يشوفوني في الجامع يعطونني ثقتهم٠إنه يُري نفسه للمصلين فقط ويقلد حركاتهم . أما في رمضان فيمكن له أن يسب كل مفطر ويمتنع عن صنع الشاي والقهوة في الدائرة ، يطلق لحيته ، يحمل مسبحة بـ٩٩ حبة ، يرتدي ثوباً أبيض ويضع على رأسه قبعة بيضاء كان قد أخذها من أحد الحجاج فأنفجر في وجهه : بس أنت ما تصوم يا مروان ٠يجعر في وجهي : يا بنت الحرام هذا شغلي . الفرق بين مروان وبيني يا ذكرى هو أنه يصلي ويصوم ظاناً بأنه يخدع الله ويخدع الناس ، وأنالا أصوم ولا أصلي حتى لا أخدع الله ولا أخدع الناس، هذا الرجل الفاسد أفسد كل حياتي يا ذكرى أجل يمكن للإنسان أن يفسد الإنسان ، ويمكن للإنسان أن يصلح الإنسان .
إنه واقع مفروض على عمري بأكمله وأنا أدري بأنني أسير في درب الانهيار . من أجل هذا جئتك يا ذكرى ، وسأذهب إلى كل امرأة أسمع أنها ستُرغم على الزواج ممن لا تريد .
إن من يعيش في قلب واقع لهو أعلم بتفاصيله ممن سيعيش فيه فيما بعد .

# الفصل الثالث

بشري يجلس على الكنبة وبجانبه تجلس ذكرى على كرسي وأمامها طر بيزة عليها كأس النبيذ مع صحن من الفستق الحلبي ومنفضة السجائر وكأس شاي تشرب منه ذكرى ، وعلى الكنبة المقابلة يتمدد نجم وأمامه كأس الشاي إلى جانب الإبريق وبعض الفستق الحلبي على طربيزة يشاهدون برامج التلفزيون يقول بشري : ذكرى أنا مشتاق لقراءة الدفتر الذي حدثتني عنه على النهر ، الدفتر الذي دونت فيه أفكارك عن الله ، أريد أن أقرأه .
كنت على وشك أن أخبرك بأنني عملت في إعادة صياغة تلك الأفكار ونقلها على دفتر جديد بعد استئجارنا هذا البيت بشهر .
بعد غد يوم العطلة الأسبوعية سأمضيه في القراءة .

بشري لي صديقة قديمة اسمها خور شيدة عندما علمتْ بعودتي وزواجي جاءت تهنئني الجمعة الفائتة في بيت أبي . في الفترة التي كنت فيها معك على النهر وقعت معها قصة غريبة لم تستطع أن ترويها بسبب وجود أهلي في البيت وعزمتها على الغداء يوم الجمعة ، ستأتي وحدها لأن زوجها سيذهب إلى قرية أهله لقضاء يوم العطلة أنا عزمتها حتى تسمع معي قصتها .
في صبيحة يوم الجمعة إستفاق بشري من نومه وبعد تناوله الفطور قدمت إليه ذكرى دفتراً جديداً دونت عليه كل أفكارها عن الله والإيمان منذ سنوات ، وفي كل سنة كانت تزيد شيئاً فأعادت صياغة تلك الأفكار المدونة مستفيدة من التجارب التي مرت بها تركت الدفتر وخرجت إلى غرفة أخرى كي لا تلهيه عن القراءة .
ألقى بشري نظرة سريعة على الصفحات
ورأى أنها قسمت هذه الأفكار إلى مقاطع وأسمت كل مقطع باسم ثم أمسك الدفتر بين يديه كأنه يمسك بكنز ثمين وقد أشعل سيجارة وتناول رشفة من فنجان القهوة وأخذ يستمتع بما تعتبره ذكرى عصارة عمر من التأمل والتفكير :

# خالق .. مخلوق

وجود الخالق دليل على وجود المخلوق .
وجود المخلوق دليل على مجود الخالق .
إن الله لا ينكر وجود الإنسان ولذلك ليس للإنسان أن ينكر وجود الله ، عندما يؤمن الإنسان بوجود الله، يؤمن بوجود الإنسان .
درجة النكران بوجود الله عند الإنسان هي درجة النكران بوجود الإنسان عند الإنسان ، درجة الإيمان بوجود الله عند الإنسان هي درجة الإيمان بوجود الإنسان عند الإنسان .

يكون المخلوق موجوداً بقدر وجود الخالق ويكون الخالق موجوداً بقدر وجود المخلوق ، مَنْ لا يؤمن بوجود خالق يضيق عليه أن يؤمن بوجود مخلوق .
إيمان الإنسان بوجوده هو إيمان بوجود الله ، إيمان الإنسان بوجود الله هو إيمان بوجوده٠

الذي لا خالق له ، لا صانع له ،لا مبدع له : لا وجود له ، لا دليل يثبته إنه دائم الريب في وجوده ، إنه يعيش حالات متأزمة في الفصام .
عدم وجود الخالق هو دليل على عدم وجود المخلوق .
وجود الشيء هو دليل على وجود مبدع له ، وجود بناء هو دليل على وجود بنّاء ، وجود كتاب هو دليل على وجود كاتب ، وجود مولود هو دليل على وجود أب٠ البناء الذي لا بنّاء له لا يسكنه أحد ، الكتاب الذي لا كاتب له لا يقرأه أحد ، المولود الذي لا أب له لن يتحول إلى أب .
وجود الخالق دليل مشروعية المخلوق ، وجود الخالق دليل حماية المخلوق ، إن أعظم ضمانة لمستقبل الإنسان هو وجود خالق عادل له .
الخالق دوماً هو مستقبل المخلوق .
المخلوق دوماً يؤدي إلى خالق .
لا وجود لمخلوق دون خالق .
إن أظلم مستقبل للإنسان أن يكون مستقبله الإنسان، والأ ظلم أن يكون الإنسان بلا مستقبل .
الضياع كل الضياع أن يضيع المبدَع عن مبدعه .

| | | |
|---|---|---|
| الإيمان قوة | .. | اللا إيمان وهن |
| الإيمان جمال | .. | اللا إيمان قبح |
| الإيمان شروق | .. | اللاإيمان كسوف . |
| الإيمان حياة | .. | اللا إيمان موت |
| الإيمان نجاة | .. | اللا إيمان هلاك |
| الإيمان استقرار | .. | اللا إيمان إضطرب |

الإيمان معرفة .. اللا إيمان جهل
الإيمان مودة .. اللا إيمان كراهية .
الخطوط الأولى نحو معرفة المخلوق تبدأ من معرفة الخالق، تكون في عجز عن معرفة نفسك قدر ما أنت في عجز عن معرفة خالقك ، كلما ازددت إيماناً بالخالق ازددت إيماناً بنفسك، ما لا تعلمه من أحد عن نفسك تعلمه من خالقك .
مالا يقوله لك أحد عن نفسك، يقوله لك خالقك ٠
وجود الخالق هو وجود للمخلوق
قوة الخالق هي قوة للمخلوق
جمال الخالق هو جمال للمخلوق
لا يوجد إنسان بدون إيمان لأنه لا يوجد إنسان غير موجود، ولكن يوجد إنسان لا يؤمن بهذا الإيمان، وإنسان يؤمن بهذا الإيمان .

# أنت .. وأنت

أنت هو أنت
أنت الحي وأنت الميت
أنت الجنة وأنت النار
أنت الضياء وأنت الظلام

. . .

ما لا تراه وما تراه هو لك
كتب السماء نزلت لك
أنبياء ورسل أُرسلوا لك
أنت تحمل تاريخ الإنسان
أنت تحمل تاريخ آدم
أنت تاريخ آدم .

. . .

عش يومك في يومك
أعط يومك في يومك
خذ يومك من يومك
لا تعط يومين في يوم
لا تأخذ يومين من يوم
لا يطالبك الله بعمل يومين في يوم لكنه – لو شاء – يرزقك رزق يومين في يوم

يرزقك رزق سنتين في يوم
يرزقك رزق عمر في يوم .

. . .

كن رحيما بنفسك من نفسك
إن الله لا يكلفها إلا وسعها
لا تكلفها فوق وسعها ٠

. . .

دوماً تذكر :
أن ما تطعمه لغيرك ، هو زاد لك في الآخرة
أن ما تبنيه لغيرك ، هو بناء لك في الآخرة
أن ما تكسيه لغيرك ، هو كسوة لك في الآخرة
أن ما تقوله من كلمة طيبة لغيرك ، هي كلمة طيبة لك في الآخرة .
أعط لغيرك ما تحب أن يُعطى لك في آخرتك
قل لغيرك ما تحب أن يُقال لك في آخرتك .

. . .

لا تركض خلف الحياة بل امش فيها
ما يعلّمك إياه المشي لا يعلمك إياه الركض
أنت تكونت بهدوء ، تعلمت اللغة بهدوء
تعرفت على الأقرباء بهدوء ، تعلمت المشي بهدوء ، رشدت بهدوء .
الآن رُفعت اليد التي كانت خلف ذاك الهدوء
الآن أنت تقود نفسك .. قدها بهدوء .

# صـبر

الصـبر رفيـق الإنسـان القـديم رفيـق الإنسـان الـوفي فـي مراحـل حياتـه المتقلبة ، دوماً يأتي نداء الصبر إلى الإنسان : أيها الإنسان الزم حدودك . ويستعين الإنسـان الصـبور بصـبره علـى الحيـاة فهو عنـدما يبلـغ مرحلـة متقدمة من مراحل الوعي ، فإنه يبلغ مرحلة متقدمة من مراحل الصبر .
و هنا تراود الأسئلة عن طبيعة الصبر ،
عن تعريفه ، عن مصدره وهل كل إنسان يمكن لـه أن يكـون صـبوراً أم أن الصبر نعمة تخص فئة دون غيرها من البشر .
ما هو الصبر في حقيقته ، هل له رائحة أو شكل أو لون ، هل يولد مـع الإنسان في أثناء ولادته أم أنـه مكتسَب من الحيـاة والخبـرات والتجـارب ؟.

الحديث عن الصبر يكون غالباً بشكل أوتوماتيكي عابر ولكن الصـبر فـي ذاته يحتاج إلى معرفة وإلمام بـه ، فـا الصـبر هو عـالم مستقل مـن عـوالم المعرفة البشرية ، والصـبر لـيس كلمـة تقـال لشـخص : اصـبر ٠ فيصـبر

.الصبر حالة متقدمة من حالات الوعي والمعرفة ، فالإنسان الصبوريعيش حالة الصبر ويتمتع بها عكس الإنسان غير الصبور الذي يعيش حالة اللا صبر ويحترق في جحيم التوتر والعجالة والإضطراب ، والخلاف شاسع بين أفعال إنسان صبور وأفعال إنسان غير صبور .

إذن الصبر ليس كلمة تُعاز إلى إنسان فيمتثل لها ، وعندما تقال للإنسان في القرآن فهي كذلك لا تعني توجيه كلمة ولكن تدفع الإنسان إلى الإشراق على عالم الصبر ، إلى حالة الصبر الكبرى ، فليس مطلوباً منك أن تصوم بالقوة ولا أن تزكي بالتهديد أو تصلي بحركات ميكانيكية سريعة وكأنك تقذف ماله إليه ليكف عقابه عنك . ولكن أن تعيش معنى الصوم،أن تستمتع بحالة الصوم ، أن تدرك فوائد الصوم ، أن تحب الصوم ، أن تحقق شروط الصوم المادية والمعنوية وتصل بنفسك إلى انسجام كامل مع حالة الصوم التي تعيش في محرابها ، أي أن تصل إلى قناعة بأنك لابد أن تصوم ولذلك ليس مطلوباً من الطفل أن يصوم ولا من المريض ولا من المسافر . وهذا يكون للعبادات الأخرى ، عندما تشعر بأنك تؤديها من أجل نفسك بالدرجة الأولى أكثر مما تؤديها من أجل الله الذي يأمرك بأن تؤديها من أجل تحقيق حالة التوازن لذاتك .

الصبر هو شكل متقدم من الأشكال الراقية للمعرفة ، عندما ترتقي المعرفة بالإنسان فإنها توصله مرحلة الصبر ، والصبر عندها يكون في درجات متفاوتة ، وكلما إزداد الإنسان معرفة ، ازداد نضجاً وهذا النضج يكسبه الصبر الذي يُكسبه الامتلاء بالعالم على نهج مرحلة متطورة من مراحل الكمال الإنساني .

علاقة الصبر مباشرة مع الأعصاب ، والعصبيون يعانون بالدرجة الأولى من نفاذ الصبر لديهم وتأتي مرحلة العقاقير المهدئة لترغم الصبر على الجملة العصبية والحقيقة فإن المهدئات هي شكل من أشكال الصبر القسري على الإنسان لتحمّل الألم والأزمات النفسية ، وأفضل علاج لهذه الأزمات هو الصبر الطبيعي الذي يعكس نتائج طبيعة في العلاج .

الإنسان يولد ولديه بذور الصبر ، لديه طاقة لاكتساب الصبرأكبر مساحة من الصبر ، بيد أن الجهل يمكن له أن يقتل هذه البذور ، كما

أن المعرفة ترويها وتحميها ، فهي بذور تحتاج إلى سنوات من الفصول والتقلبات والأمطار والعواصف وأن يشقى صاحبها ويعرق لقطاف زهورها .

وإذا كان الشكل الأدنى من أشكال الجهل ، اللاصبر ، فإن الشكل الأرقى من أشكال المعرفة هو الصبر ٠وإن عظمة الإنسان تظهر عند تحمله للمصائب الكبرى والتعامل معها بمفاتيح الصبر التي تكون في جيوب حواسه . الإنسان لا يولد صبوراً ، ولكنه يكتسب الصبر ويطوّر طاقة الصبر لديه ، فالطفل قد لا يصبر على ألم وجوع وخوف وبرد ولكن هذا الطفل عندما يكبر يمكن له أن يصطبر ويحتمل .
الصبر يقترن بالمعرفة والمعرفة مكتسبة ، ومن هنا فإن المشاكل تتفاقم في المجتمعات التي تسود فيها الأمية في حين أنها تتضاءل في المجتمعات المتعلمة وكلما تقدم التعليم تلاشت المشاكل وتوجه المتعلمون إلى التربية والإنتاج والعطاء . حيثما يكون الصبر تنفتح أبواب الحياة ، الأم لا تنجب الأطفال لولا صبرها تسعة أشهر .. الطالب لا يكسب العلم لولا صبره في القراءة والدرس سنوات طويلة .. الطبيعة لا تنجب الزهور والربيع لولا صبرها على قر الشتاء وحر الصيف .. المريض لا يشفى لولا صبره على منغصات المرض .. والآباء لا يتحولون إلى أجداد لولا صبرهم على سنوات مشقة نمو أبنائهم . الإنسان لا يستطيع أن يقوم بكل الأعمال دفعة واحدة ، يعلّمه الصبر أن يؤجل البعض للغد ، أن يدع شيئاً ليقوم به غيره . ألم يترك غيره شيئاً كي يقوم به هو . ويقول له : الإنسان لا يستطيع أن يعطي كل شيء ، لا يستطيع أن يأخذ كل شيء . إنه يعطي أشياء ويأخذ أشياء . ودوماً هناك عمل ينتظر إنساناً جديداً ، هناك فكرةً تنتظر إنساناً جديداً ، هناك خطوة تنتظر أنساناً جديداً لم يأت بعد ، أو يفتح عينيه للتو . تبقى الحياة مشرقة بالإنسان ويبقى الإنسان مشرقا بالحياة ، وإذا انطفأ أحدهما انطفأ الآخر ٠

إذا جاءك آلم ،اصبر .. إذا شاتمك شاتم ، اصبر .. إذا ظلمك ظالم ، اصبر .. إذا فقدت عزيزاً ، اصبر .. إذا احترق بيتك ،اصبر . واعلم انه لولا الصبر لما أنجز الكاتب كتابا .. لما بنى البنّاء بناء ..لما صاغ الصائغ إسورة... لما حصد الفلاح سنبلة ٠

وحيثما كنت يمكنك أن تنعم بدفء الصبر ، حيثما كنت يمكن أن يكون الصبر لك ميعنا .

لا تعجل في قول كلمتك ،لا تعجل في شرائك ،لا تجعل في طعامك ، لا تعجل في شرابك ، في مسيرك ، لا تعجل في زوجك ، لا تعجل في ولدك .

الصبر هو السلام ، الصبر هو الأمان ، عندما تكون في الناس لاينفعك غير الصبر ، عندما تكون في عزله لاينفعك غير الصبر ، وعند ذروة الآلام الكبرى التي تقع بغتة كا لصواعق لا يبقى معك إلا الصبر . إنك صامد بمقدار ما لديك من صبر ، إنك قوي بقوة الصبر الكامنة لديك ، وعندما يعجز الآخرون عن تقديم شيء يخفف عنك ، يأتي الصبر ليقدم كل شيء إليك . عليك أن تكون دائم السعي لاكتساب الصبر ، أكبر قدر من الصبر ، أن تطور طاقة الصبر لديك ، أن تعزز مكانة الصبر في نفسك . لارفيق لك كالصبر لاصاحب لك كالصبر لاقريب لك كالصبر ، دوماً يأتي الصبر لينير أمام خطوات روحك الدروب الداجية . الصبر غرسه مباركة في حديقة روحك تُروى بنور المعرفة . تعلم كيف تدرب نفسك على احتمال المصائب الكبرى بالصبر ، تعلم كيف تدرب نفسك على استقبال المسرات الكبرى بالصبر.

# قِيَـم

أنت أكثر المخلوقات شاعرية على سطح الأرض لأنك أكثر المخلوقات حزناً ، ما يهم أنك تنجح في محاولة الانسجام مع كونك مخلوق حزين بالتكوين ، لأن تكافح للتجرد من هذا الحزن .
إذا حذفتْ الطبيعة الحزن منك ، حذفتْ الإنسان منك . جئت لتعاني وتعمل وتعرق ، لا لتقطف الزهور وتمضي ، جئت لتضع لبنة على عمارة الحياة .
الإبداع العظيم ينبثق من أعماق ألم عظيم ، الأبنية الشاهقة لا تُصنع بركوب المراجيح والهراء ، إنها تُبني بعرقك ولهاثك ودمك . أنت ثري بقدر فراغ جيوبك من النقود ، وأنت فقير بقدر ملىء جيوبك بها . عند ما تكون أفقر رجل في العالم ، تكون أغنى رجل في العالم . سيحسدك أغنى رجل ظاهر في العالم على ما توصلت إليه من غنى ، على ما توصلت إليه من فقر .
الصحة العامرة تستقر في لحظات تخالها الأخيرة من عمرك ،

هناك في أخر رعشات الاحتضار ، لأول مرة تنفتح شهيتك على الحياة الكبرى التي لم تكن رأيتها قط وتعانقها بنبضاتك الراعشة الأخيرة، عند ذاك عند ذروة المرض الجسدي ، عند ذروة المرض الروحي ، يموت الشر على وسادة روحك ، يولد الخير وأنت مطروح في حد يقة الموت .

ستدرك أن روح الله تسكنك ، أنك تحمل أمانته ، أنك تحمل سره ، ستشتم رائحته منك ، ترى صورته فيك ، تلمح صبغته على أنحاء جسدك ، وتتذكر كيف أنه لمسك بيديه عندما سواك أول مرة ، وتراه لأول مرة كيف يهرول إليك، يمد يديه ليُجلسك معه على العرش . في تلك اللحظات النورانية ، ستدرك معنى الإنسان فيك ، ستدرك سر الله فيك ، وستدرك كل تلك الإساءات التي وجهتها إلى أمانة الله لديك ، ستدرك كم كنت غارقاً في ظلمة الجهل وكم أنك قابل للإرتقاء .
أنت إبن الألم ، الألم هو الذي يصنعك ، أنت مخلوق مجبول بالألم .

لحظاتك هي اللحظات المذهلة التي لا تموت في الإنسان حتى بعد تركه الكرة الأرضية ، هذه لحظات مباركة تغفو لكنها لا تموت ، تستيقظ وتيقظ نور الحياة في روح الإنسان ..
هاهي الذكرى تهز شجرة الموت وتولّد الإحساس بعدم الموت .
هاهي الولادة الكبرى تظهر ، تهز كل ذرة فيك .. تبشرك .. هنا ستمضي حياتك ، عليك أن تؤمن بهذه الحقيقة وتستقبل كل ذرة من ذرات الحياة بانفتاح .
هنا على هذا الكوكب ستمضي أيامك وستعيش كل التفاصيل التي لم تعشها .قم أيها الكسول ، هيا إلى العمل ، هناك في القبر متسع من وقت ، لن يبقى منك شيء إلا ما شيدته يداك إن هذه الحروب تعلمك كيف تكون سيئاً ، تدربك على أن تكون سيئاً ، عليك أن تتعلم فن قذف كل ما يتعلق بروحك من سيئات وأنت تمضي في حديقة الأشواك ، أو في حديقة الورود .

الوردة التي تنبت في الأشواك تلفت الأنظار أكثر من وردة تنبت في حديقة مليئة بالورود ، إنني أقول لك بسرية تامة مالا أقوله لغيرك ، إنني أعلّمك قيماً :
تعلّم كيف تبني صداقات جديدة ، وتعلم أيضاً كيف تحافظ على صداقاتك القديمة . إن الله أكرمك ، فلا تذل نفسك .
لن تستطيع أن تحب الله ما لم تستطع أن تحب الإنسان .
عندما تريد أن تعطي شيئاً لله ، فإنك لا تستطيع أن تعطيه إلا عبر الإنسان .

# تربيـــــة

الإنسان كائن قابل للتربية في شقيها الإيجابي والسلبي وهو كائن يتربى لا يوجد إنسان غير قابل لاكتساب التربية ،
الحديث عن التربية حديث غير مستقر حيث أن التربية بذاتها تتفرع إلى فروع شتى . التربية ليست مذهباً فكريا ولا عقيدة وليست تيارامن التيارات ٠
الإنسان هو إبن الحياة والحياة هي بنت التربية ، الحياة هي التي تقدم البراهين للإنسان عبر ما في الطبيعة، والإنسان يتربى من تجاربه ومن مشاهدة ما في الطبيعة والحياة .
يتلقى الإنسان أشكالاً من التربية في مسيرة حياته فهو عندما يكون طفلاً يربيه أبواه غذائياً وعندما يكبر يربيه معلمه معرفياً ومن ثم ينفتح على أشكال أخرى للتربية ، فثمة تربية مهنية يتلقاها من المهني ، وثمة تربية اقتصادية يكتسبها من خلال تعامله بالمال ، وثمة تربية صحية يتلقاها من خلال إرشادات الأطباء ، وثمة تربية ثقافية يكتسبها عن طريق الاطلاع والاحتكاك، وثمة تربية جنسية تعلمه أصول التعامل مع الجنس الآخر إضافة إلى ألوان وأشكال تربوية أخرى متفرعة ولكنها في النهاية تنصب في حروف كلمة / التربية/ . كل تصرفات الإنسان تكون من خلفية تربوية معينة سواء كانت سلبية أو كانت إيجابية ، ذلك أن الإنسان هو تلميذ للتربية ولكن ما هي التربية ؟
التربية تنقسم إلى شكلين، شكلها الأول نظري، وشكلها الثاني عملي فيمكن للإنسان أن يكتسب التربية بفروعها وأقسامها من خلال تجاربه الشخصية كما يمكن له أن يكتسبها من خلال تجارب الآخرين وهنا تطرح التربية الدينية نفسها بقوة على ضمير الإنسان فتقدم إليه الخبرة الكافية عبر تجارب الإنسان نفسه وبالتالي تقدم إليه الخلاصة والاتجاه

الصحيح ، وفي الواقع فان أرقى وأهم أشكال التربية تتبدى في صلب التربية الدينية ، فا لتربية الإلهية هي تربية خالصة وخالية من الشوائب وهي تربية صحيحة موجهة إلى الإنسان عبر رسل وأنبياء الله وعبر رسائله .
فالقرآن هو رسالة تربوية جليلة وكان العلم الذي تربى عليه عبد الله ونبيه محمد صلى الله عليه وسلم . والواقع أن محمداً هو أول طلاب هذه الرسالة الإلهية التربوية الكبرى واستطاع القرآن أن يجعل منه أسوة حسنة لبني البشر من بعده .

التربية الخالصة هي التي يتلقاها الإنسان من الله لأن الله يعلم سبل التربية التي ترتقي بالناس الذين يعلمهم جيدا أكثر مما هم يعلمون أنفسهم ، وليست هناك أعظم من هذه الرسالة التربوية التي تركها الله للناس ٠ إن أشكال وألوان التربية الحديثة تقف على أرضية الأخلاق فالإنسان كائناً مَنْ كان يعجز أن يبدع شكلاً تربوياً ولكنه يستطيع أن يقدم هذا الشكل التربوي إذا استند على قواعد الدين . ويمكن معرفة أن التربية هي عملية إنفتاح لانهائي على العالم ، فكل مرحلة من مراحل الإنسان لها مرحلة تربوية ، الشيخ الطاعن في السن أيضاً يحتاج إلى تربية تنسجم مع عمره ، فيبقى الإنسان يتربى حتى لحظات الإ حتضار الأخيرة ، ليس من أحد يستغني عن التربية بالغاً ما بلغ وما دام الإنسان يتعلم في كل يوم جديداً فإنه يتلقى في هذا اليوم درسا جديدا من دروس التربية .
ولعل الصواب لايجانب الذين يظنون أن مهمة الآباء تكون عند توفير الطعام واللبس لأولادهم ، فهذا الأب يمكن له أن يكتفي بهذا مع ما يربيه من حيوان أليف في بيته ولكن الطفل يحتاج إلى أغذية أخرى ، يحتاج أن ينفتح على العالم ويده بيد ولي خبير ، يحتاج من يرسم له خطوات المستقبل ، يحتاج إلى مرشد يرشده وإلا تاه في ظلمة من جهل حتى لو كان آكلاً ولابساً .

إن عظمة الأبوين تكمن في مدى قدرتهما على تقديم أولاد صالحين نافعين للمجتمع .إنها الرسالة الأبوية الكبرى تجاه الرعية ، وبعد أن يكبر الإنسان لن يعود بحاجة إلى تربية أبوية لأن التربية الأبوية ستكون قد هيأته لاستقبال تربية إلهية كبرى وعلى مراحل متقدمة مدى حياته .
الله يخلق الإنسان ثم يربيه ولكن على الإنسان أن يعي هذه التربية ، أن يدركها ويتوسع في أبعادها .
إن الله يعرف الإنسان جيداً ، يعرف ما يعلم هذا الإنسان عن نفسه وما يجهل وعلى هذه المعرفة تأتي التربية الإلهية خالصة للناس الذين هم عيال الله .
ليست مشكلة الإنسان أنه لا يعرف طريقاً لمعرفة الله ، ولكن مشكلته أنه لا يعرف طريقاً إلى نفسه .
إن الإنسان الذي يسلك الطريق إلى معرفة نفسه يكون قد سلك طريقاً لمعرفة الله ، ومن خلال هذه المعرفة يستقبل التربية الإلهية ويبقى في إخفاق لاستقبالها مالم يتمكن من معرفة واهبها .
علاقة الإنسان الكبرى هي مع الله وكل ما حوله يذكره بالله حتى الشجرة تثمر/ بإذن ربها / وما من طير يطير إلا بالقوة التي بثها الله فيه .
العلاقة بين الله وبين الإنسان هي علاقة تربوية في جوهرها والقرآن يحتوي على الدعوة إلى التقوى ويحتوي على الوصايا والإرشاد والهداية والعفو والمعرفة وليس الله الذي يبعد عن الإنسان ولكن الإنسان هو الذي يبعد عن الله ، فالإنسان هو الذي يعود إلى الله ، وليس الله الذي يعود إلى الإنسان والله يفرح بهذه العودة .الإنسان يبقى دائم الحاجة إلى أن يربيه ربه ولكن عليه أن يطور نفسه لاستقبال هذه التربية ، عليه أن يطور نفسه لاستيعابها حتى يرى ربه مربيا ويرى نفسه تلميذا .

# شِـــــرك

كلمة واحدة لها مدلولات متعددة وهي الكلمة / الأحذر/ الموجهة من الله إلى الإنسان وهي كلمة تشبه المشط المغروز أسنانه بالسكاكين الحادة فيأتي التحذير الإلهي ألا تتمشطوا بهذا المشط .
كثيرون يرون بأن الشرك اختفي من عصرنا وأنه كان مقصوراً في أيام الجاهلية ثم إلى سنوات من ظهور الإسلام فأتى الإسلام وحسم أمره فلا أحد هذه الأيام يأتي بالأصنام ويتعبدها ولا أحد يهمه أن يجعل شركاء لله ، فانقسم العباد في أيامنا إلى فئتين اثنتين واحدة مؤمنة والأخرى ملحدة .
والواقع هذا مفهوم محدود لقضية هي من أخطر القضايا التي تواجه إنسان كل زمان ومكان لأنه حيثما وُجد الإنسان كان الشرك على مقربة منه وآية الشرك هي آية باقية بقاء الإنسان ، لكنه يأخذ أشكالاً وألواناً مختلفة على مدى العصور وربما ظهر في كل عصر بوجه ليحقق الديمومة في تاريخ الإنسان .
الشرك أن تقدّم ما هو لله لغير الله وتحس ما تحسه تجاه الله تجاه غير الله وتأمل في غير الله ما تأمل في الله . الشرك لا ينحصر في الصلاة والسجود لغير الله ولكنه يتبدى ويتمظهر بألوان وأشكال مختلفة .
يمكن أن نرى في حياتنا شخصاً يقوم بزيارة بيت فكأنه ذاهب إلى بيت الله فيتطيب ويصطحب معه الذبائح وما أن يدخل باب ذاك البيت حتى يبدأ المديح والثناء والتعظيم لصاحب البيت ويضفي على هذا البيت وصاحبه هالة من القدسية والتكبير والتعظيم وعندما يعود إلى بيته يبدو كأنه قد عاد من بيت الله الحرام وقد غُفرت له ذنوبه ، ويرغم على أهله أن يتعاملوا معه على أنه بالفعل عائد من بيت الله ، وكيف كان بيتاً عادياً

من بيوت الناس وقد دخله طاهراً مغتسلاً وامتثل بين يدَي صاحبه في وقار وخشوع وقدّم إليه الذبائح .
أما الواقع فإنه دخل بيت سوء وفسق وفجور وأن كل ما بدر منه كان من أشكال وألوان النفاق . والناس هنا يذهبون في فرق ثلاثة على الأعم، فأما الفريق الأول فإنه قد ذهب فيما ذهب لأمر امرأة يراها أو يختلي بها ، وأما الفريق الثاني فإنه ذهب فيما ذهب لأمر مصلحة مالية رغب في كسبها ، وأما الفريق الثالث فإنه ذهب فيما ذهب لأمر شيء من خمر على مائدة عامرة يقضي ليله فيها، ويمكن ان تتداخل
مآرب متفرعة .
وفي زماننا نعثر على لون آخر من ألوان الشرك وهذا اللون نجده عند شخص قد قام بتأليه شيخه فعلّقّقّقّقّقّقّقّق له الصور والمآثر ودعا له إلى مجالس الذكر / ذكر الشيخ والثناء عليه / بحيث يرد ذكره في المجلس أكثر من ذكر الله ويستشهد بقوله أكثر مما يستشهد بقول الله ، ويثني عليه أكثر مما يثني على الله فأينما أوليت وجهك في مجلسه فثم وجه الشيخ وقد يتسع هذا اللون من الشرك فيخرج من دائرة البيت ليشمل القرية كلها فلا تجد في طرقاتها سوى صور الشيخ، ولا تجد على جدرانها سوى كلمات الشيخ، ولا تجد في بيوتها سوى صيت الشيخ، ولا ترى الناس يقسمون إلا بالشيخ ولا يستشهدون إلا بما بدر من الشيخ وترى مما ترى أن سكان هذه القرية لا يحتفلون إلا با عياد الشيخ ، فهذا عيد مولد الشيخ ، وهذا عيد جلوس الشيخ وهذا عيد مأثرة الشيخ وهذاعيد زيارة الشيخ .
والواقع أن سكان هذه القرية يقعدون في مذهبين، وأما المذهب الأول فيذهب فيما يذهب اتقاء شر وأذية الشيخ، وأما المذهب الثاني فيذهب فيما يذهب بغية التقرب بسلطان الشيخ والتنعم بنعمه وروائح نفوذه ٠وعندما تزل قدم الشيخ فنجد المذهبَين أول من يتخلى . إن الله لا يخاف أن يُشرك به ولكنه لا يريد للإنسان - هذا المخلوق البديع- أن يكون فاسقاً منافقاً كاذباً لأنه في تاريخ البشرية لا يوجد مَنْ أخلص في الشرك قلباً وقالباً ، فمجرد أن يكون الإنسان مشركاً فهو خائن يكون قد خان أول ما خان

عطايا الله اللا محدودة له ولا يوجد مشرك مخلص ،لا يوجد مشرك غير ذي عوج ولذلك فإن كل الذنوب قابلة للغفران إلا الشرك إذا لبث الإنسان فيه ويومئذ لا تنفعه حتى شفاعة الشافعين ، إنه مطرود من الرحمة والشفاعة والمغفرة . ويمكن أن نرى في زماننا لوناً من الشرك لدى رجل راح يؤلّه امرأة بغية التقرب منها ومتى ما نال منها مراده تخلى عنها، فهو إذا وجدها انهال عليها بالثناء والتعظيم والتكبيروأضفى عليها هالة من القداسة حتى أنه لا يمسسها كي لا يسيء إلى قداستها، فهو بشروهي من غير البشرفيقعد بين يديها خاشعاً مستسلماً ذليلاً من خشيتها حتى تشعر معه هذه المرأة المسكينة بأنه عبد وأنها مخلوقة مُنزَلة .
ما يهم أن يتعامل الإنسان مع الإنسان على أنه إنسان، وأن يتعامل الإنسان مع الحيوان على أنه حيوان ،
وان يتعامل مع الزرع على أنه زرع ، وأن يتعامل مع الجماد على أنه جماد .
إن الشرك لا يؤذي الله ، ولكنه يُخرج الإنسان من دواعي إنسانيته ، ويحيله إلى أسوأ وأبغض المخلوقات بحيث لم يعد يصلح حتى للرحمة والدعاء له .

أمام هذه الألوان نعثر على لون آخر من ألوان الشرك في زماننا وهو شرك الذات بالله فنقع على شخص يميل كل الميل إلى التكبر والعزة والتعظيم والتجليل أمّا لما ل أو لسلطان أو لجاه أو لنفوذ فيتصرف في الناس كأنه إله صغير في الأرض فيأمر بالثواب والعقاب ليس على طريقة البشر ولكن على طريقة الآلهة ويأمر بالعمار والدمار ولا يمشي في الشارع ولا يجالس إلا/الآلهة الصغار / أمثاله في الأرض ٠وبناء على مافي قلبه من مرض فإنه يأمر الناس بالفعل أن يتعاملوا معه بهذه الخصوصية فيجعل من حراسة كملائكة يتسلطون على كل شيء ،لا حاجز أمامهم ، كل الأبواب مشرعة لولوجهم ٠
لا أريد أن أستعرض أبواب الشرك كلها وهي كثيرة في زماننا ولكنني أضرب مثلاً لأبيّن بأن الشرك لا يقف عندالركوع أو السجود أو الابتهال

إلى إنسان أو حيوان أو نصب، ولكنه يتحقق في التعامل الإلهي مع غير الله الذي لا شريك له ، ومهما كان لون أو شكل هذا التعامل صغيراً أو كبيراً فإنه يحتمل درجات شرك . إنه يريد أن يمثل الله تارة ويتمثل الله تارة أخرى وما هو بقادر وفي النهاية فإن كل هذه الأدوار تنتهي وتخلف لأصحابها تاريخاً من الخز والعار ويبقى التعالي لله الذي لا شريك له ، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير .

وعلى هذا فيمكن ملاحظة أن الشرك يتحول لدى فئة من الناس من حالة ظاهرية إلى حالة باطنية فتراها مؤمنة في الظاهر لكن على أساس باطني كله شرك، وتراها تصلي لكن صلاتها لا تزيدها إلا بعداً عن الله ، وتراها تصوم وليس لها من صيامها غير الجوع والعطش ، وتراها تتلو القرآن والقرآن يلعنها فينتقم الله منها : / وإذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها فحق عليها القول فدمرناها تدميرا / .

ونرى تدمير القرى بأشكال مختلفة في زماننا حتى وهي مكتظة بالمساجد / وما يؤمن أكثرهم إلا وهم مشركون / . عليك أن تميز بين ما هو حق الله وما هو حق الإنسان فما لله هو لله وما للإنسان هو للإنسان وحتى النظرة التي تنظرها إلى الله فإنها تحمل خصوصية لا يجوز أن تنظر ها لغير الله .

إن الملائكة تتعامل مع الملائكة على أنها ملائكة ، والجن يتعامل مع الجن على أنه جن ، والحيوان يتعامل مع الحيوان على أنه حيوان ، والزرع يتعامل مع الزرع على أنه زرع ، والجماد يتعامل مع الجماد على أنه جما د ، فما لك أيها الإنسان تتعامل مع الإنسان على أنه ليس إنساناً. إذا كانت أبواب الإيمان تقربك من إنسانيتك فإن أبواب الشرك تلك تجردك من كل حالة صفاء لهذه الإنسانية .

# مُجتَمَــع

الإنسان كائن مشتت ، تائه في ظلمات ذاته وظلمات الحياة من حوله ، يجهل كل شيء حوله يراه أو لايراه ، فيفتح عينيه على الدين الذي ينير أمامه الظلمات ويحدد أهدافاً لوجوده وحياته على الأرض ، يجعل منه قيمة ويمنحه النواميس والمحرمات ، يمنحه أسباب السعادة والاطمئنان ، ويهبه الانضباط النفسي والتقيد بالنظافة واحترام الآخرين واحترام الأعراف وهنا يتميز الإنسان عن الحيوان ، يتميز على الأغلب بسلوكه وتصرفاته على أنه كائن يدين بدين ويحيا على قواعد دين .
في الواقع فان إنسان بلا دين هو رأس بلا عقل ، جسد بلا محرمات .
الإنسان كائن مظلم ولا يجد سبيلا لتبديد ظلمته وما زال يدرك جيداً بأنه أحد الألغاز المربكة في ظاهرة الحياة ، ففي البدء ظن هذا الإنسان بأنه كائن كأي كائن حيواني حوله ويحيا الحياة بدافع بيولوجي ، ولذلك فقد عاش في كهوف وغابات كما تعيش الحيوانات من حوله ، وكان يحقق كل غرائزه متأثرا بهذا الحيوان ، وبالتالي فهو يقلد الحيوانات في أسلوب المعيشة سواء في علاقاته مع غيره من بني جنسه أو مع الحيوان الذي يعامله ذات المعاملة ، بل حتى في العلاقات بين الذكور و الإناث فكان أقرب إلى / القطيع / الحيواني منه إلى / المجتمع / الإنساني ، فكانت الهداية دوماً تأتي إلى الإنسان من السماء سواء بطرق مباشرة أو

غير مباشرة حتى تم تتويج هذا الاهتمام الإلهي بالإنسان وهذا الحرص الإلهي وهذه العناية والرعاية الإلهية بآخر رسالات الخالق إلى عباده في الأرض وبعث آخر الأنبياء والرسل وهي رسالات على الأغلب تخبر الإنسان بأنه ليس حيوانا ولايجوز له أن ينتهج منهج الحيوان في نمط حياته .

إن مجرد النظر إلى تاريخ الإنسان القديم نجده كان باحثاً ومنتظراً لهذه الرسالة الإلهية الكبرى وهذه المعجزة الدينية التي هي رحمة للناس، لقد اهتم الله بالإنسان وبقي يرحمه ، فحال الإنسان بدون الله كحال الغريق في يم بلا قرار وهو إلى ذلك يعيش فراغاً روحياً لا يُطاق ٠الإنسان الذي لا يتقيد بحدود الله نراه ضائعاً يمضي أيامه دون هدف ، يبعثر صحته وما يملك وبالتالي نرى إفلاسه الأخلاقي والصحي والفكري والاجتماعي والاقتصادي إلى أن تنتهي أيامه في الحياة .

يأتي الدين ليحدد للإنسان النظم والثوابت والأخلاقيات ويلزمه بما هو خير له ويوجهه إلى ترك الشبهات ، يعلن النبي هذا الاهتمام الإلهي بالإنسان قائلاً : / الناس كلهم عيال الله / ٠ وهو الرب الكبير يرحم المسيء ويكافئ المحسن ويرحم من يشاء وهو دين لا يدعو إلى العزلة والقطيعة عن العلوم والثقافات

ففيه تتلاحق الثقافات واللغات والأقوام، والنوافذ كلها مفتوحة على كل ما على سطح المعمورة، إنه لا يدعو إلى الانغلاقية وأن لا نرى من نافذة بيتنا سوى حديقتنا ، بل يدعو أن نشاهدماتقع عليه أعيننا من حدائق وأن نتواصل مع الجميع ، فما بناه كتاب كبير مثل / القرآن / لا يزحزحه أي كتاب آخر كائناً مؤلفه من كان من البشر ، لأن القرآن هو رسالة إلهيه وقوة إلهية كاملة وإن شعباً يمتلك القرآن هو شعب لا خوف عليه من عواصف العالم كلها ، فا المسلم قوي بقدر قربه من القرآن وهو ضعيف بقدر بعده عن القرآن .

فأنت تتعامل مع رياح الخارج تعامل المسلم لكن الخوف كل الخوف عليك عندما تتعامل معها وتنسى بأنك مسلم أو تتناسى بأنك مسلم ،إنك

تنتزع من الآخر إحترامه لشخصك وانتمائك الديني على قدر ما تحادثه وأنت أنت ، وليس أنت هو أو غيره ٠
الإنسان يأتي من ظلمة الرحم ويتجه إلى ظلمة القبر وبين هاتين الظلمتين يحتاج إلى نور المعرفة وهذا النور يراه في القرآن ومَنْ حُرم هذا النور كانت حياته ظلاما . بطبيعةالفطرة البشرية ليس مطلوبا منك أن تكون ملاكاً وأنت مسلم ، ولكن أيضاًعليك ألا تكون مع الشياطين وتمضي حياتك مع الشر والخطيئة فهنا /خير الخطائين التوابون / وهنا يتميز الإسلام بأنه انفتاح عام على البشرية لأنه دين عالمي وليس بالدين المحلي ، الإسلام ليس مسجداً مغلقا لا يمكنك الخروج منه ولا طقسا سريا ، ان الإسلام هو النور الذي يبدد ظلمات العالمين .
وكما ان لكل شخص خصوصيته واستقلاليته في نمط التفكير والعمل والسكن والفعل الاجتماعي ، فان لكل مجتمع تركيبته المختلفة عن تركيبة مجتمع آخر وليست هناك مغالطة أشد هولا من إلغاء هذه الخصوصية بين المجتمعات البشرية ، فحتى الأصوات والأسماء وألوان البشرة والأزياء تختلف وتتناقض في هذه المجتمعات ٠إذن تلتقي مع الآخر بخصوصيتك وشخصيتك وعاداتك وتراثك، مثلما الحال مع الآخر الذي تشكل بالنسبة إليه / الآخر/ وعلى هذه الأرضية يتم التلاقح بمختلف مستوياته بين المجتمعات وتتواصل العلاقات البشرية فيما بينها، وعليك أن تدرك أنه لا يوجد مجتمع بدون سلبيات وأيضاً لكل مجتمع سلبياته التي تميزه وكذلك لك سلبياتك التي تميزك شأنها شأن أمراض تتفاقم في بقعة جغرافية وتنعدم في بقعة أخرى .
ما يعني هو قدرتك على الانسجام مع واقعك وتمثيلك لهذا الواقع وتحاورك مع الأطراف الأخرى٠ من هذا المنطلق فأنت تحمل تراثك وتاريخك وحاضرك الذي هو امتداد لذاك التاريخ الذي تحمله وستحمّله للأجيال الفتية لتتحول أنت أيضاً إلى جزء من الماضي والتراث والتاريخ .
كثيرون يخفقون في محاولة الانسجام مع واقعهم بأشكال وألوان متعددة ويسعون للانسلاخ من هذا الواقع ويميلون للعيش في واقع مختلف عن

تـركيبتهم ولـذلك تـراهم يعيشـون أزمـات سـيكولوجية وحـالات حـادة مـن الشيز وفير نيا إذ أن الجسد لا يقبل عضـوا تـم إقحامـه عليـه وذاك العضـو لا ينسجم مع هذا الجسد فيعيش في غربـة عن بقيـة الأعضـاء لأنـه عضـو دخيل .

# رضـــــوان

يسعى الإنسان إلى نور المعرفة والانفتاح لتبديد ظلمته ولمعرفة شيء عن ماضيه وحاضره ومستقبله ، ومن هنا تولد العلاقة بين الإنسان المخلوق وبين الله الخالق إذ أن الإنسان يبحث عن خالقه وماذا يريد منه هذا الخالق ولماذا أتى به وشيئاً فشيئاً تتطورو تجلو العلاقة فيما بين الله والإنسان ، ولعله من حسن حظ هذا الإنسان أن الله قد خاطبه من خلال الأنبياء الذين هم أيضاً أبناء هذا الإنسان وبذلك يمكن لأي إنسان أن يطّلع على رسالات الله الموجهة إليه ، هذه الرسالات التي هي كلمات الله المضيئة تنير الطرق الداجية أمام الإنسان. حيثما تولي وجهك فثمة وجهه ، يناديك من الجهات من أعماق البحار من أعماقك من وجوه الآخرين من الأشجار والأعشاب والأرض والهواء والمياه ، يأتيك حيثما كنت يلبي النداء ويقدم لك ما هو خير .

إن الله لا يتخلى عن الإنسان ولكن الإنسان يتخلى عن نفسه والله لا يريد منك أكثر من أن تلتزم بشروط إنسانيتك ولا تخرج عنها وهذه الشروط ترسم ملامح استقرارك ووجودك وكيانك ومصالحك بالدرجة الأولى ، فالدعوة إلى الحب هي دعوة إلى التكاتف الإنساني بالدرجة الأولى والتقاء الإنسان بالإنسان وحميمية الإنسان تجاه الإنسان ، ما يهم هو أن تبقى إنساناً فأنت أنزه من أن تركع لعجل أو بقرة أو تمثال تصنعه أنت لأنك أنظف وأهم ولأنك الأسمى .

إن الله يدعوك لأن تكون ساميا ، أن تكون أمينا ، أن تكون صادقا ، أن تكون تقيا ، أن تكون ملتزما بشروط إنسانيتك ، ومن الطرف الآخر يأتي الشيطان ليدعوك إلى الهوة السحيقة ، يأتي ليخرجك من طبيعة إنسانيتك

٠ ما يهم هنا أن ليس للشيطان أي سلطان عليك وأن قوة الله هي أعلى من قوة الشيطان وأنت مخيّر بين درب النور وبين درب الظلمة : لايغير الله ما بك ، حتى تغير ما بنفسك ٠ دوما يناديك الله لأن تكون مع نفسك ليكون معك ، إن معيلك لايتخلى عمن يعول ، وهو يريد لعياله أن يكونوا الأرقى والأنزه والأجمل ، ألا يرضيك أن يريد معيلك بك أن تكون الأرقى والأنزه والأجمل ، إنه يناديك حتى تلبي النداء ويشرح لك صدرك ، يرفع عنك وزرك : / ألم تكن يتيما فآوى ، وضالا فهدى ، وعائلا فأغنى / ٠ يأتي نداء الله مخاطبا إياك : إن تقربت مني شبرا ، تقربت منك ذراعا ، وإن تقربت مني ذراعا ، تقربت منك باعا ، وإن أتيتني تمشي ، أتيتك هرولة .

يخاطب ربك محمدا الإنسان : / يامحمد ما بيني وبينك إلا صورة الجمال / ٠

علاقة ربك بك هي علاقة المحبة والعفو والتسامح والإحسان أكثر منها علاقة الحساب والعقاب ، في روح هذه العلاقة الكبرى تأتي الحسنة لالتُسجَل لك حسنة فحسب ، بل تمحو سيئة وهي تسجَل لك ٠ يخاطبك الله : / يا عبادي إني حرمت الظلم على نفسي وجعلته بينكم محرما فلا تظالموا ، يا عبادي كلكم ضال إلا من هديته فاستهدوني أهدكم ، ياعبادي كلكم جائع إلا من أطعمته فاستطعموني أطعمكم ، يا عبادي كلكم عار إلا من كسوته فاستكسوني أكسكم ، ياعبادي إنكم تخطئون بالليل والنهار وأنا أغفر الذنوب جميعا فاستغفروني أغفر لكم / ٠ وهنا تكون قوة الإنسان من قوة ربه وأنه لايكون قويا بدون قوة الله ٠ البعيد عن قوة وسند الله لايخاف الآخرين فحسب ، بل يخاف حتى ظلمات ووسوسة نفسه ٠ الإيمان يمد الكائن البشري بحالة الإستقرار والسكينة حتى يبلغ مرحلة متطورة من التعرف على عدل الله ، فينظر إلى عدالة ربه تجري في كل حدث يراه أو يعيشه أو يسمع به ٠ إن الإيمان بعدل الله وأنه حق يطور في عمقك ثقافة فقه الحياة برمتها ٠ تبقى حاجتك العليا إلى ربك الذي لا أحد لك غيره ، ولا معين لك غيره ، فانظر إلى ربك وقل : ربي ادخلني مدخل صدق واخرجني مخرج صدق ، واجعل لي من لدنك سلطانا

نصيرا ٠ يناديك الله دوما أن تكون دفئا لأخيك الإنسان وتكون عونا وسندا له في مواجهة أشكال الشر والفاقة والإضطهاد ٠ إن الله بمقدوره أن يرفع البأس عن الناس أجمعين ، لكن عندذاك ستفقد حرارة التعاون والتعاضد مع أخيك الإنسان ٠ وهنا يتوحد الإنسان بالإنسان ويتواصل في حميمية إنسانية سامية ، تكون قويا عندما تقدم عونا للضعيف ، وكذلك يؤكد لك الضعيف بأنك استطعت أن تقدم له شيئا ليقف على قدميه ٠ هنا تدرك أن الضعف كل الضعف يكمن في الفردانية والتعزل ٠ يستأنس الإنسان بالإنسان ، ويرى ربه لدى الإنسان ٠ لسوف يخاطب الله الإنسان المقاطع للإنسان : / يابن آدم مرضتُ فلم تعدني ٠ يرد المقاطع دهشاً : يارب كيف أعودك وأنت رب العالمين !!٠

يأتي جواب الله : أما علمت أن عبدي فلانا مرض فلم تعده ، أما أنك لو عدته لوجتني عنده / ٠ إنك تحتاج إلى الآخرين ، إلى حميمية العلاقة بالآخرين ، وتقلع من نفسك أشواك الإنغلاقية والنرجسية ٠ هنا سيكون بإمكانك أن تسلك نهج ربك مطمئنا ومتغلبا على الإشكالات التي تعيق دربك في نهج الله ، لأن وجود الله في أعماقك يقدم لك الحماية والأمن لكل حالة فزع مباغتة يمكن أن تداهمك ٠ فالأمن كل الأمن بيد الله وهو محيط بكل شيء ولا يخفق قلب إلا بإذن الله الذي يكون في أعماقك والذي هو أقرب إليك منك ٠ لن يكون بوسعك أن ترتقي إلى القرب من ربك إلا بمد خطوات ثابتة إلى سلم الحسنات ، أن تحسن إلى كل شيء تراه ، لايكفي أنك تصلي ، ولكن عليك أن ترتقي بصلاتك إلى سلوك الإنسان الذي يسكن الله أعماقه ، يزيد الإيمان عن سبعين شعبة ، أعلاها شهادة لا إله إلا الله ، وأدناها إماطة الأذى عن الطريق ، عليك ألا تتردد في فعل شيء قدّرك الله عليه استجابة لنداء نبيك الذي أوصاك : / وما أمرتكم به فافعلوا منه ما استطعتم /٠ واسمع وصايا نبيك التي تبين مكانة المؤمن عند ربه وهو يخاطب عليا : / ياعلي إن العبد المؤمن إذا أتى عليه أربعون سنة أمنه الله من البلايا الثلاثة : الجنون ، والجذام ، والبرص ٠ وإذا أتت عليه ستون سنة فهو في إقبال ، وبعد الستين في إدبار ورزقه الله الإنابة فيما يحب ، وإذا أتت عليه سبعون سنة أحبه أهل

السموات وصالحو أهل الأرض ، وإذا أتت عليه ثمانون سنة كُتبت له حسناته ومُحيت عنه سيئاته ، وإذا أتت عليه تسعون سنة غفر الله له ماتقدم من ذنبه وما تأخر ، وإذا أتت عليه مائة سنة كتب الله إسمه في السماء : أسير الله في أرضه ٠ وكان جليس الله تعالى / .

علاقة الله بالإنسان تحمل المعاني السامية وتنزهه عن كل ماخبث ، مايفيد هنا أن الإنسان يعجز أن يكون معصوما عن الخطأ ويفشل في محاولاته ، وإن أصر فسوف يتحدى طبيعته البشرية وتركيبته الإنسانية ، فإن الجد الأكبر أقدم على خطيئة كبرى ، يرتكب الإنسان الخطايا والمعاصي سواء راغبا أو مضطرا ، ولكنه يتراجع ويتوب إلى ربه طالبا منه المغفرة : / لو لم تذنبوا لجاء الله بقوم يذنبون ويتوبون فيغفر الله لهم ويتوب عليهم / ٠ يستغفر المذنب ربه ، وإن لم يذنب لايطلب الإستغفار ، هنا يقوده الإستغفار إلى ربه ٠ ليس مطلوبا من الإنسان أن يكون ملاكا ، لأن الله شاء له ألا يكون ملاكا ، والحديث الذي أخرجه مسلم عن أبي هريرة ليس دعوة لارتكاب الذنوب والسعي إليها حتى يتوصل الإنسان إلى ربه عن طريق الإستغفار ، بقدر ما هو بيان أن طبيعة الإنسان تقوده إلى ذنوب ، وعليه أن يستوعب هذا الأمر ويتعلم من أخطائه ، وهنا أذكر الحديث الذي يقول عن ثلاثة لايغفر لهم الله ، أحدهم الشيخ الزاني ٠ يكون هذا الشيخ مصرا على الذنب ومستمرا به في حين أن الحديث يقول بتعلم المذنب التوبة من ذنبه

٠والواقع فإن روح الحكمة الإلهية تتبدى في هذه الدعوات ، فالإنسان الذي يولد ويموت دون ذنوب سيكون قد فاته أن يذنب ، وسيكون قد فاته أن ينادي الله باسم الغفور ، وعندها لم يكن يعرف ربه بالوجه الذي يعرفه وهو يناديه بهذا الإسم المبارك ٠

فلولا الذنوب لما أدرك الإنسان حلاوة التوبة ، لولا الجهل لما عرف الإنسان حلاوة المعرفة ، لولا الاضطراب الفكري لما عرف نعمة صفاء الذهن ٠ الإنسان الناضج هو ذاك الذي تعلم من أخطاء سابقة ، لقد بنى نضجه على خلفية من الفوضى ، يتعرف الإنسان بالله أكثر عندما يسأله

الستر فيستره ، عندما يسأله العفو فيعفو عنه ، يتعرف بربه من خلال تبادلية العلاقة بالسؤال والاستجابة حتى ليبدو له أنه يرى ربه رأي العين ، ولذلك فإن الإنسان المؤمن كلما يتقدم في العمر يتعرف على ربه أكثر وتخف ذنوبه ٠

يبني الله عبده ويربيه وفق نهجه الذي أراد من خلال هذه المراحل من العلاقة ليصل إلى ربه ناضجا ، فالعلم القليل الذي يتلقاه من ربه هو كثير بالنسبة للإنسان وبهذا القليل يمكن له أن يقدم منجزات عقلية هائلة ، وهذا القليل أيضا يأتيه على مراحل في عمر البشرية ٠ العلاقة بين الإنسان وربه هي علاقة تكاملية وتبقى حاجة الإنسان دائمة إلى العناية الإلهية به إذ أن الإنسان ليس بوسعه أن يشعر بالأمان وهو بعيد عن سكينة الله الذي أتى به إلى رحاب هذا الكون الفسيح

٠ ما يهم هو أن الإنسان ومن مختلف مواقعه وميولاته وذنوبه وعصيانه عندما يتجه إلى باب الله يجده مفتوحا لم ينغلق في لحظة ، ويرى الله قائلاً : / ما تقرب إلي عبدي بشيء أحب إلي مما افترضته عليه ، ومازال العبد يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه ، فإذا أحببته كنت سمعه الذي به يسمع وبصره الذي به يبصر ويده التي بها يبطش ورجله التي بها يمشي ، ولئن سألني لأعطينه ، ولئن استعاذني لأعيذنه / ٠

يبقى هذا النداء مفتوحا لإنسان كل زمان ومكان ، لإنسان كل لغة ولون وأمة ود ين ، ذلك أنها صادرة من رب السموات والأرض ومابينهما الذي هو / نور السموات والأرض ، مثل نوره كمشكاة فيها مصباح ، المصباح في زجاجة والزجاجة كأنها كوكب دري يوقد من شجرة مباركة زيتونة لاشرقية ولاغربية يكاد زيتها يضيء ولو لم تمسسه نار / .

# سَـــمـــتْ

بزغت شمس نهار جديد فزادتهم ظلاما زادتهم دورانا زادتهم تيها ، إنهم يهرولون يلهثون يلكمون ببعضهم وبالأشياء ، ينطرحون على الأرض وعندما ينهضون يكتشفون بإنهم مابرحوا أماكنهم ولاتركوها قط فتلبث أحداقهم منتظرة بزوغ شمس جديدة علها تكون أقوى شعاعا فتنفذ إلى ظلمتهم . القضية لا تعني فردا واحدا منهم أو اثنين ، لكنها تعنيهم جميعا ، تعني البيت كله بسكانه سبعة الرجال وثلاث بنات والأم العجوز التي تؤكد لهم أن أباهم موجود ، ولكنه يتوارى عن الأنظار وأنه يعد أن يأخذهم إليه ليعيشوا معه ، وتأتيهم بالبراهين على ماتقول ، فعندما تعرض أخوهم الأكبر للسقام الذي كاد يودي به ، توارت الأم عن الأنظار وعادت حا ملة الدواء الشافي قائلة بأن أباهم الذي علم بسقام ولده الغالي أرسل إليه هذا الدواء ، ويبلغهم حبه الشديد ومتابعته لأحوالهم لأنهم يحملون صبغته ، ولايوجد مَنْ هو أقرب وأحب إليه منهم ٠ هذه الكلمات تقنعهم لبضعة أيام ، إلا أنهم يعودون إلى خلاف فيما بينهم عندما يسمعون شكوك الآخرين عن نسبهم فيتساءلون : إذا كانت هذه هي أمنا ، فأين أبونا الذي بذرنا في حرثها ؟!٠

ثم ينظرون في بعضهم البعض : ولكن لايعقل أن نكون ولدنا دون أب ٠ إذن لماذا يتوارى عنا ويدعنا في هذا الريب حوله ، ويدعنا عرضة لشكوك الآخرين ، حتى لو لم يكن أبا شرعيا لاعترفنا به لأن الأمر وقع وانتهى وأتينا منه ، وسنعترف بصلتنا إليه ٠٠ وشيئا فشيئا سيمسي الأمر واقعا طبيعيا يعترف به الناس كلهم جميعا وسنتخلص من هذه الأقاويل التي تنال منا ومن أمنا ٠

وتسعى الأم إلى تخفيف معاناة أبنائها وهي تقول لهم بكل هدوء أنها أنجبتهم وهي متأكدة من هذا الواقع ، فقد خرجوا جميعا أجنة من بطنها الصغير هذا وأرضعتهم ورعتهم وعانت مع كل واحد أشد المعاناة، وليس ذنبها إذا كان أبوهم يصر على تواريه ، وهي عاجزة من فرض رغبتهم عليه رغم اعترافها بأن هذا يثير حولها الشكوك حتى من أقرب الأقرباء الذين يدركون الحقيقة بيد أنهم يستغلون الواقع لإ ثارة الشبهات في نسب أبنائها ، ولكن هذا كله لايشكل شيئا أمام الحقيقة الكبرى التي تدركها وتسعى لإقناع الأولاد بها ، وتروي لهم كيف أنه دوما يرسل لهم العطايا والهدايا وكلمات الحب والوصايا ويقول لها : هذا كله لعيالي ٠

منذ أيام عندما تردى أحد الأخوة من السطح وسال الدم من رأسه ، قالت لهم الأم : هذا الدم الذي نز من أخيكم ، أتعلمون أنه سار إلى أن بلغ أباكم وأصبح بين يديه وسبب له السخط ، إنه يبلغكم مجددا وصيته أن تكونوا حذرين على أنفسكم ، يوصيكم أن تغتسلوا جيدا وتهتموا بنظافة فمكم وأناملكم وأجسادكم وثيابكم ، إنه معكم أكثر مما أنتم مع أنفسكم ، حريص عليكم أكثر من حرصكم على أنفسكم لأنه هو الذي أتى بكم وأنتم منه ، من شبهه ، أنتم الخلف ، وأنتم السلف ، أنتم السيرة الطيبة بالنسبة إليه ، إنه يقول لكم ألا تحاسدوا ، ألا تباغضوا ، وتحابوا فيه ٠

رغم كل هذه الشروحات الهادئة ومناقشتهم بحكمة لم تنجح الأم في إقناعهم جميعا فانقسموا إلى شعب شتى ، فمنهم من يلغي وجود أب غائب كهذا يتوارى عن أبنائه ويعيش في بعاد عنهم ، ومنهم من يقول بأننا أبناء غير شرعيين ، ومنهم من يقول بأن ذلك لايشكل أي أهمية ، المهم أنهم يعيشون واقعا وعليهم أن ينسجموا معه دون أسئلة كهذه . هذه المواقف أدت إلى خلاف فيما بينهم ، فكل طرف يريد أن يكون موقفه هو العام والغالب ، ونتيجة حدة الخلاف وقع شجار فيما بينهم حتى قتل أخ وأخت ووقع سقام فيهم لبثوا فيه سبع سنوات ممددين على ظهورهم

يعانون الألم والجوع والضنك ٠ فقالت الأم أن غضب الأب حل عليهم وأن أخاهم وأختهم لم يذهبا في مجهول ، بل ذهبا إلى أبيهما وشكيا له ، وأنهما الآن يعيشان بالقرب منه ٠ فتوسلوا إلى أمهم أن تشفع لهم عنده ليسامحهم ويزيح عنهم الضنك ،وأنهم لن يعودوا إلى ماكانوا عليه من شجار ٠ بعد سنة جلست الأم إليهم وزفت إليهم بشرى السماح من أبيهم وقد عفا عمّا مضى وقد أرسل لهم أدوية شافية وأنعام وفاكهة ممايتخيرون ، ولحم طير ممايشتهون حتى يستردوا عافيتهم ولاتذهب ريحهم ويذهب عنهم الوهن ٠ بعد ذلك بستة أيام رأى الأولاد أن العافية عادت إليهم ودب فيهم نشاط وكأن شمسا جديدة أشرقت على بردهم ٠ وأضافت الأم أن أباهم ينبئهم أنه سيبث بما هم فيه يختلفون ، ولبثوا منتظرين هذا البث حتى كاد الخلاف يأخذ مجراه كرة أخرى ففزعت الأم خوفا على أولادها من غضب الأب فهي تدرك شدة غضبه في مثل هذه الخلافات المتصاعدة ، فغدت تهدئهم وتصبرهم وتقول بأن أباهم هو الذي وعدها بهذا التدخل ، وأنه ليس من عادته أن يخلف وعده ، وكل ماعليهم أن يتحلوا بصبر جميل ٠ فقال أحدهم : إن أمنا تلقي الكلام على عواهنه ٠ وقال آخر : أي تدخل هذا الذي يوعدنا به أبونا ٠ وقال آخر لو كان لنا أب لأتى وعاش بيننا ٠ وقال آخر : علينا أن ننتظر حتى يتحقق الوعد .

وعاد الخلاف يتصاعد فيهم حتى إذا اختفى أخوهم الذي كانوا يلقبونه / خاتم أخوته / لأنه كان كما يقولون / آخر العنقو د / عن البيت ذات ليلة فلبثوا مستيقظين قلقين على مصيره وهو الذي لم يسبق له أن غاب عن البيت ، وإذا جاء الصبح باغتهم بحضوره فنهضوا جميعا يستفسرون عن سبب غيابه ليلة البارحة عن البيت ٠ فقال دون تمهيد وبشجاعة أنه أمضى الليلة كلها عند أبيه ، وأنه عندما كان يحادثه يذكرهم أخا وأختا بالأسماء : حتى ظننتُ بأنه لم يغب عنا ساعة ونحن نتحدث كحديثنا هذا ، بكلماتنا هؤلاء ، كان يحادثني ويخبرني بما أعلمه ولا أعلمه عن أحوالنا وعن ماضينا ومستقبلنا ، وهناك شاهدت أخي وأختي وأنهما

يبلغانكم شوقهما وسماحهما ٠ ثم أبلغه رسالة وأوصاه أن يقرأها على أسماعهم ، وأنه بعد قليل سوف يقرأها ٠ عندذاك أحضر أحد الأخوة قلما وبدأ يكتب ما يرويه خاتم أخوته ، أو آخر العنقود ٠ فقال بأنها الرسالة التي تبث في خلافهم ، وهي الدليل على وجوده وعلى مشروعية وجودهم ، وأما من يتشكك في نسبهم فيروه هذه الرسالة فهي برهانهم الأكبر ٠ عندذاك تسربت طمأنينة إلى أفئدتهم فأحاطوا خاتم أخوته بحبهم وعنايتهم وهم يرون صورة أبيهم في وجهه الذي أصبح ينير بنور الأب ٠ فهو قد حادثه ولبث معه ليلة وأتى منه برسالة ، وتولى خاتم أخوته إعادة قراءة الرسالة عليهم لأن قراءته الشخصية تحمل أكبر التأثير فيهم ، فالتفوا حوله وركنوا إليه ، واطمأنت قلوبهم .

ولكن هذا الصفاء لم يدم عندما سمع بعض الأقرباء والجوار بهذا الأمر وقرأوا الرسالة ، فقالوا لبعض الأخوة أن خاتم أخوته هو الذي قام بتأليف هذه الرسالة من وحي خياله وهو الذي عُرف عنه ميله إلى التعزل والتفكر والشرود الطويل ، وما ذلك إلا لينصب نفسه وصيا وحكيما عليهم ، فهو أصغرهم سنا وأن عقدة النقص هي التي أزجته إلى هذا التأليف ، فهو كان مهمشا فأصبح بهذا التأ ليف معززا مكرما ذو رأي ومشورة ، فأي أب هذا الذي يختفي عن أبنائه ٠

عندذاك تدخل خاتم أخوته بنفسه في الرد على هؤلاء وقال : إن أبانا الذي يهبنا كل شيء عن بعد لهو أكثر حضورا من أبيكم الذي يعجز من أن يهبكم شيئا عن قرب ٠ فحدث شجار بين خاتم أخوته وبين هؤلاء ، لتعود الشروخ والإنشقاقا ت إلى التصاعد من جديد بين الأخوة نتيجة تدخل أصحاب هذه الأقاويل .

هذه المرة خرج الأمر من دائرة الأخوة لينتشر بين الجوار والأقرباء ، فذيع سيط الرسالة وتم انتشارها في الملأ ، بهذا الإنتشار انقسم الناس بدورهم إلى ثلاثة أفواج ، فمنهم من وقف مع المؤيدين لهذه الرسالة ، ومنهم من وقف مع المعارضين لها ، ومنهم من وقف مع الحياديين منها وأصبحوا فيما يشبه الأحزاب والتكتلات الكبرى حتى كبرت أحجام

الأحـزاب وتعاظمـت وانتشـرت فـي أرجـاء الأرض وشـملت كبـار أهـل الرأي والفكر ، فتم تأليف رسـائل وكتب ومـذاهب عن هذه الرسـالة التـي أتى بها خاتم أخوته حتى أصبحت الرسـالة مقترنـة بـه وغدا مقترنـا بهـا ، فكان هو البرهان الأكبر على وجود هذه الرسالة التي لم تكن فيهم قبل أن يأتي بها .

فانهـال النـاس يأتونـه مـن مشـارق الأرض ومغاربهـا ليـدونوا مايقولـه ، حتى أمسى كل مـا يقولـه ويقوم بـه ويفعلـه من أوقـات نومـه ، إلـى أوقـات طعامه ، إلى أوقات ذكره لأبيـه ، إلـى لـون ثيابـه وجلوسـه وطريقـة غسـله يُدَوّن فـي كتـب وينتشـر فـي النـاس بسـرعة البـرق ، حتـى إذا تـوفي خـاتم أخوته حل الحزن بمريديه وأصحابه وازدادوا تمسكا بالرسالة التـي خلفهـا وجعلوا من قبره مزارا خالدا تقديرا لجهود خـاتم أخوتـه الـذي اسـتطاع أن يذهب إلى أبيه الغائب ويأتي منه برسالة .

إنه السطر الأخير ، إنها الكلمات الأخيرة التي نزفت من مخيلة أقرب كائن إلى روحه ، إنها ذكرى المجيدة ، ذكرى التي بوسعها أن تبني عالما في صحراء قاحلة .
المرأة الاستثناء التي جاءت لتترك بصمة نسائية ذهبية على كوكب الأرض : إنها الشمس التي أشرقت على ليلك يابشري ٠ لم يستطع مقاومة قبلة سبقته إلى غلاف الدفتر الذي كله رائحة من روح ذكرى وقد هتف صوته باسمها ، عندها دخلت ذكرى وهو ينظر إليها بعينين مليئتين بالشوق وقال : رغبت أن أظفر بقبلتين على عينيك ، وأهمس في سمعك : إن من يبلغ كل هذا الإيمان لن يسقط ٠ قالت وهي في حضنه : لكنه الله يابشري .. الله الذي ملأني بكل ذرة إيمان به . أشعر بأنه أقرب إلي من نفسي ، إنه أكثر رحمة لي من نفسي ، كل شيء حولي مكتوب عليه اسم الله ، أقرأ اسمه على شربة الماء ولقمة الطعام وجدران البيت ، أقرأ اسمه حتى في لون عينيك ونبرات صوتك ٠ عندما وقع صوتك علي كنت أنظر إلى بصلة خضراء طويلة وأنا أعد الغذاء لضيفتنا ، كنت أردد في نفسي : هاهو الله قد جعل أذيال أوراقها الخضراء مغلقة حتى لاتدخلها حشرات ، عندها كان يصعب علينا إخراج تلك الحشرات وغسلها من الداخل : أليس هو الله الذي جعل هذا ياذكرى .

إن الله هو الذي يملأ كل وقتي وليس من شيء يتردد في خاطري وفمي أكثر من اسم الله ٠
ليست هناك نظرة أنظرها إلا باسم الله ، ليست هناك خطوة أخطوها إلا باسم الله ، ليست هناك كلمة أقولها إلا بسم الله ٠كل هذه المساحات الشاسعة من الأرض يابشري هي أصغر من أن تتسع لنعم الله ولذلك ترى النعمة تفيض عندما تضيق بها الأرض ، حتى بيتنا هذا فإنه يفيض بنعمة الله ، وبرادنا الذي ضاق بالنعمة لم يعد يتسع لكسرة خبز ٠ عندئذ تناهى صوت الباب فسارت ذكرى إلى فتحه وهي تقول : إنها ضيفتنا ٠ استعد بشري لاستقبالها وإلى جانبه نجم ، بعد قليل رآ ها تدخل غرفة الضيافة برفقة ذكرى التي سرعان ما قامت بمهة التعريف بينهم ، وما

لبثت أن دعتهم إلى تناول الغذاء ٠ لقد صنعت مائدة عامرة احتفاء بزيارة صديقتها ، ولمحت خورشيدة هذا الاحتفاء فقالت وهي تأكل : إنها وليمة وليست عزيمة ياذكرى ، ولكن هل لي أن أتناول كل هذه الأصناف . بعد الانتهاء من الطعام قدمت ذكرى عصير البرتقال ، وبعد ذلك الشاي ، ثم قدمت صحنا من الموز والتفاح .

بعد ذلك قالت وهي تجلب القهوة مع صحن من الفستق الحلبي وبزر القرع : صرنا على استعداد لسماع قصتك ياغاليتي ٠ ورغم أن صديقتها ألمحت إلى أن القصة تحمل بعض المواقف المحرجة التي تنحرج منها أمام بشري ، إلا أن ذكرى رأت أن يسمعها بشري كذلك ، وفي أثناء ذلك نظرت إلى نجم الذي نهض من إثر نظرتها وهو يقول بأنه سيزور أحد الجوار ٠

عندها قالت خورشيدة لبشري بأن ذكرى صديقة طفولتها وكانت منذ أيام الدراسة في المرحلة الابتدائية تشعر بسعادة وهي تروي لها أسرارها : هذه القصة لايعلم بها أحد غير عزيزة التي كانت جزءا منها ، وهي تخرج من فمي لأول مرة ، أرويها يابشري وأنا أعتبرك زوجا لأختي فأرويها أمامك ٠
صمتت خورشيدة قليلا ثم بدأت في القصة وقد لمعت دمعتان من طرفي عينيها :
لم أكن أصدق أن هناك علاقة حميمة تجمع بين أي زوجين في العالم كتلك التي تجمع بين أبوَي ، وليست لدي أمنية مثل أمنيتي أن يكون الطالب يدي للزواج يكن لي المحبة التي يكنها أبي لأمي ، وكثيرا ما رددت بيني وبين نفسي : كم أن أمي محظوظة بحب أبي الكبير لها ٠
ولذلك في الليلة الأخيرة من ليالي أمي في الحياة ، لم أحس بأنني خسرت أمي فقط ، بل خسرت معها أبي . مسحت خورشيدة دموعها وأردفت بنبرة مثقلة بالبكاءالذي بدأ يغلبها :

خـرج الطبيـب الجـراح مـن غرفـة العمليـات وأنبأنـا بموتهـا . فقـد أبـي السيطرة بنفسـه فـأطلق صـراخا مرعبـا فـي ردهـة المشـفى وراح يخـبط رأسه في جدار الغرفة التي قضت فيها أمـي فـي المشـفى الضـخم ، وأمـام هذا المشهد المرعب ، نسيت موت أمي وانشـغلت بمـا آل إليـه حـال أبـي ، كان ينوح مثل طفل بكبرياء رجل . تغير لونـه بشكل مفزع وبعد قليل نقلـه بعـض ممرضـين وممرضـات إلـى غرفـة هادئـة بعيـدة عـن الزحـام ورائحة الأدوية ٠

كانت الساعة قد شارفت الحادية عشر ليلا عندما أنهينـا تجهيزات نقلها إلـى بيتنـا بواسطة سيارة إسـعاف المشـفى ، عنـدذاك صـعد أبـي الشـاحب الذي لم تكن الدموع قد فارقت عينيه ومضت بنا السيارة ، لاأدري لمـاذا شعرت بأنها تحمل شخصـين ميتين هما أمـي وأبـي ، هذا الإحسـاس كـان يدمرني والسيارة تمضي بنا إلـى البيت ، قبيل وصـولنا البيت أوقف أبـي السيارة بصـوت كأنـه الأنـين بجانـب محـل لبيـع الكحـول ، تركنـا لـدقائق وعاد من المحل حـاملا بيده كيسـا تصـدر منـه أصـوات ارتطـام زجاجـات ببعضها .

كانت هي المرة الأولـى التـي أرى فيهـا أبـي يحمل كحـولا إلـى بيتنـا وقد بلغتُ الثامنة عشرة من عمري ٠

أنزلنا الجثة ، وعند انصـراف السيارة ، قـال أبـي بأنـه سيغلق بـاب غرفـة نومهما على نفسه ، ولايريد أن يعلم أحد بوجوده في البيت ، وقبل أن أرد عليه نفذ مـا قالـه ٠ بقيت سـاهرة أنتحـب علـى أمـي المفقودة حتـى طلـوع الضـوء ، ولبـث هـو الآخـر سـهرانا يغـرق فـي عـالم الشـرب ٠ تصـرفت بنفسي وبمساعدة الجوار في مراسيم الدفن وأنا أخبر كل مَنْ يسـألني ، أن أبي غائب عن البيت .

عند العصر كان قد انتهى كل شيء فبدأتُ أستقبل المعزين حتـى التاسـعة ليلا ، عنـدذاك فرغ البيت وقد هدني الإرهاق ، ولم يكن بوسعي النـوم قبـل الاطمئنان علـى أبـي فطرقت عليـه البـاب وناديتـه بصـوت خـرج للتو مـن حنجرتـي الجافـة ، فأجـاب بأنـه لـن يخـرج ، ولكنـي اسـتطعت إقناعـه بتناول شيء من لحم مطهو جلبه لي بعض جوارنا .

عندها فقط فتح الباب بالكاد ليتناول الصحون ، وفي أثناء فتحه اندفعت رائحة الكحول المخنوقة إلى الصالون وملأته ، وبسرعة خاطفة تراجع وأغلق الباب على نفسه .
بعد أسبوع من عزلته خرج لأول مرة من البيت دون أن يتكلم معي بحرف واحد ، ورأيتها فرصة لأقوم بتنظيف غرفته التي بدت لاتطاق من الفوضى ، ولكنها بقيت الغرفة الغالية التي ولدتُ فيها والتي تحمل كل ذكريات أبي وأمي ، إنها الغرفة الأكثر خصوصية بالنسبة إلي لذلك حرصت أن تبقى أنيقة وكأن أمي ماتزال فيها من خلال صورة الزفاف التي تجمعها بأبي والمعلّقة على الحائط .
قلت بأن أبي خرج وعسى أن يحمل هذا الخروج تغييرا لوضعه النفسي فيعود إلى عمله ، لكنني فوجئت به يعود بعد ساعة بواسطة سيارة ويُدخل إلى الغرفة ثلاثة صناديق ضخمة من زجاجات ، ويقفل الباب على نفسه .
لم يكن بوسعي أن أفعل شيئا سوى أن أنتظر، مضى شهر كامل دون أن يرى أبي وجه الشارع ووجه أحد ممن يزورونا من أقرباء وجوار ويأخذون بخاطري .
وصرت أنفق مما كانت أمي ادخرته للطوارئ ، وجر الشهر خلفه تسعة شهور من عزلة قاتلة يعيشها أبي وأعيشها معه وأبتلع مرارتها لحظة بلحظة ، إنه أبي ، صاحب التضحيات الكبرى معي ومع أمي ،
لاأفكر للحظة واحدة أن أتركه ، حتى فكرة الزواج من موسى الذي يحبني وأحبه بدت بعيدة عني ، فهل أتجاهل كل تلك المواقف الكبرى التي أوقفتني على قدمي وأقول لأبي أمام أول محنة : وداعا .
لا لن أكون كذلك ، ولا أفكر أن أكون كذلك .إنه الواقع الذي قال بأنني لم أعد أملك شيئا أنفقه ، فقد نفذ كل ما كانت أمي ادخرته ، ولكن أرى أبي يخرج بين أيام وأخرى فيجلب الكحول وبعض طعام للبيت، وعلى الأغلب يجلب المعلبات والزيت والسكر والشاي والرز فيناولها لي ويعود إلى غرفته .

كان أبي ينتهي ، وكنتُ أنتهي ، وكان البيت ينتهي ، وأنا أتخيل منظر أبي قابعا بين الزجاجات المحطمة وأعقاب السجائر وبقايا الطعام ، فهو كلما ينهي زجاجة يحطّمها ويقضي كل حاجاته في الغرفة دون أن يسمح لي بالدخول ولا بالتنظيف ولا حتى بفتح النافذة إ لا إذا خرج ليجلب مايريد مرة أخرى ٠

في هذه الأوضاع المأساوية زارني موسى في البيت وكان على وشك أن يتقدم لخطبتي ، ولكنني أخبرته بأن أوضاعي لاتسمح لي مجرد التفكير بأمر كهذا ، فقال بأنه يشاركني حزني وكذلك لايفكر أن يتخلى عني في محنتي ، وسوف ينتظر إلى أن تنتهي الأزمة .

وهو شاب شفاف يعمل معلماوكيلا في القرى النائية ويسكن في الحي المجاور لنا -وأرجو أن أتمكن من التعارف بينكم فقد بات يعرفكِ جيدا ياذكرى من حديثي الطويل عنك - أجل قلت له بأنني لاأفكر بشيء غير أبي فأنا ابنته الوحيدة التي يمكن لها أن تقدم إليه شيئامن العزاء في محنته ، وهو الذي سبق له أن قدم كل شيء لي ، سبق له أن قدم لي حياة كاملة .

عاهدني الرجل أن يبقى إلى جانبي في هذه المحنة ومستعد أن يمنحني راتبه شهريا ، فكبر بعيني وأدركت حينها أنه الرجل الذي تُعقد عليه آمال عمر بأكمله ، إنه الرجل الوفي الذي يكون أكثر قربا وقت الشدة ، فشكرته على موقفه وقلت أنني لست بحاجة إلى مال رغم أنه قال بأنه سيمنحني على سبيل الاقتراض حتى يشفى والدي ويسدد له . فكررت بأنني لاأحتاج ، ولم أصل مرحلة كهذه من الحاجة ٠

كان يطرق علي الباب في الأسبوع مرتين عندما كان يعود من التعليم من تلك القرى البعيدة لأنه كان ينام هناك ولايأتي إلا يوم الجمعة ، ولكنه من أجلي كان يأتي يومي الثلاثاء والجمعة حتى يراني ويسأل عن أبي ٠

كان يجلس في الصالون نصف ساعة يشرب كأس شاي أو فنجان قهوة ويعود ٠

في إحدى الأيام فوجئت بشخص يطرق بابنا ويسأل عن أبي الذي تراكمت عليه ديون الدكان ، فعرفت للتو أن أبي يستقرض مايجلبه ، وقلت للرجل أن أبي لايستطيع ٠لقاءه الآن ، ولكنني سأخبره .
كان رجلا مهذبا فانصرف وهو يعتذر . بعد ذهابه بنحو ساعة طرقتُ الباب على أبي : منذ ساعة جاء رجل سمان سأل عنك . فتح الباب وتركني أدخل ، وعلى الفور فتحت النافذة وشرعت في التنظيف والتشطيف .
أمضيت نحو ساعتين لا أتكلم معه حتى يدعني أكمل التنظيف وتنقية الغرفة لهذا الرجل الذي هوأغلى وأعز وأقرب كائن لدي . حتى في لحظات يريد اليأس أن يقترب فيها مني أردد بيني وبين نفسي :
لكنه ذاك الذي حملني على كفيه في الثالثة صباحا عندما أصابني التسمم وأنا في السادسة من عمري ، أخذني ركضا في تلك الليلة الشاتية المطيرة إلى المشفى الذي يبعد عن بيتنا ثلاث كيلو مترات ، لكنه الرجل الذي كان يقوم بأعمال مضنية طوال النهار ليجلب لي علبة حليب عندما جف حليب أمي ، الرجل الذي طالما مد يده إلى لقمة طيبة ليضعها في فمي .
هل يمكن لي أن أتخلى عنه لمجرد محنة طرأت عليه ، وعندها هل يمكن لي أن أخلص لأي شخص آخر لدى مروره بمحنة .
بعد تفرغي من ترتيب الغرفة وحواري مع نفسي بركت جواره وطلبت منه أن يعود إلى عمله لينسى لأن الحياة لاتجمد أبدا أمام حدث ودوما تحمل مفاجآت جديدة وسارة خاصة لأولئك الذين فقدوا الأمل . عندئذ صوّب إلي نظرة زلزلت كياني وبذات الوقت أدخلتني إلى حالة غريبة رأيت معها صورة أمي ترتسم في داخلي . وتذكرت بأنني دون أن أدري اتبعت أسلوب أمي معه عندما كان يمر في أزمات مالية أو جسدية أو نفسية .
واسترجعتْ ذاكرتي بنشاط تلك النظرة التي كان دوما ينظرها لأمي في أحوال متأزمة كهذه ، ولا أدري لماذا رأيتني أنهض وأخرج من الغرفة مهرولة وكأنني أهرب من أنامل أشباح أرادت أن تخنقني ، فوقفت أتأمل

الشارع وأنا أستغفر الله . عدت إلى غرفتي وللتو تحسست مأساة الرجل الذي يعيش دون امرأة ، وعلى الأخص كأبي الذي الذي عاش مع المرأة .

وراودتني أفكار مخيفة شردت معها بفكرة الزواج لأول مرة بهذه القوة من موسى الذي مايزال ينتظر شفاء أبي وموافقته ٠

في اليوم التالي بدأ أبي يخرج إلى الصالون وهو مخمور وتلاحقني تلك النظرة التي باتت مصدر إستفزاز لحواسي ولا أعرف كيف أعبّر له كي لاينظرها إلي ، حتى أجنّبه ذاك الشعور بالاشمئزاز منه في تلك اللحظات .

لاأعرف أي شيطان تدخل ليوسوس لي بوساوس مفزعة ، وكذلك تبعث على كل هذا الاشمئزاز الروحي .

وعندذاك تناهى إلى سمعي صوته وهو يناديني باسم أمي ، أجفلني الإسم الذي ناداني به ، لكنه عاد يناديني به ثانية ، فالتفتت إليه مبتسمة بكل ما في القلب من ألم وقلت : أنا ابنتك خورشيدة .

دنا إلي بذات الطريقة التي كان يدنو بها من أمي ، فسارعتُ الخطا إلى غرفتي وأقفلت الباب على نفسي وقد أصابتني حالة غريبة من الأنفاس المتقطعة مصطحبة بنوب غثيان كادت تهد معدتي .

من الطرف الآخر كانت طرقاته العنيفة تقع كالبرق على حواسي وهو يردد بانفعال حاد أنني أحرمه من حقوقه ، وأنه لن يسامحني ، حتى شعرت بأن صوته انطفأ ولم تعد به نبرة واحدة ، فعطفت عليه وانأ أتحسس وقوعه على الأرض مغميا . فتحت الباب وكل ذرة في ترتعد وتقول : يارب أنجني من هذه المحنة ، يارب لاتتخل عني . والدموع تنسال من عيني كأنها لن تتوقف . حملته بلطف ، وأنا أتذكر مرة أخرى كيف حملني إلى المشفى وهو يركض بي تحت المطر في الثالثة صباحا . لقد كان يحمل أثمن شيء لديه ، كان يحمل فلذة كبده ، كما أنني أحمل الآن أثمن كائن لدي ، أحمل مَنْ أتى بي إلى هذا العالم .

أدخلته إلى غرفته ، وصنعت له المليسة التي كانت تصنعها له أمي لتهدئ أعصابه بها ، تمدد على فراشه وتناول كأس المليسة ، وبعد ذلك صببتُ له كأسا أخرى لتغسل معدته من آثار الكحول ، وعدني بكلمات هادئة بأنه لن يعود إلى الخمر ما دمت أرعاه وأهتم به وأعامله بلطف .
وعاد يحادثني بعبارات كان يقولها لأمي ، يتصرف معي تصرفات كان يتصرفها مع أمي .
أصررت عليه من جديد بأنني لست أمي ، وأنني لو أوهمته بذلك سأخرجه من حالة إلى أسوأ منها ، وهرعت إلى حجرتي مقفلة الباب على نفسي من الداخل .

سمعته يحطم زجاجة بالحائط وعادت رائحة الكحول تفوح من حجرته بقوة وتملأ غرفتي رغم إحكام الباب .
لبثتُ أرتعد في فراشي حتى عاد فجرا وهو يدفع الباب المقفول بقوة وينادني باسم أمي .
لقد تحول هذا الرجل الوديع إلى كائن كحولي لايُحتمل .

لم يكن من أحد ليقف إلى جانبي غير عزيزة التي كانت تأتي بشكل متقطع لتطمئن علي ، وقد شحبت المسكينة أكثر مني وكأنها هي التي تعاني الأزمة ، وكنتُ بأمس الحاجة لأروي ماأعانيه لشخص عزيز علّه يخفف عني ويسندني ، وكانت عزيزة هي ذاك الشخص الأقرب إلي .
في تلك الأيام عرفت كم هي امرأة نبيلة ، وعرفت أن الإنسان الوفي يبقى وفيا في كل الظروف .

قالت لي بأن والدي يحتاج إلى امرأة ، ووجود امرأة لسوف يحل له هذه الأزمة . وقد طلبتْ مني أمرا لكنني رفضته بقوة ، وأنا أترفع به عن أبي الذي هو بنظري كتلة من النقاء ، رفضته وأنا أكاد أرفع يدي لأصفعها ، لكنها رغم عنفي لبثت مصرة على فكرتها ، فذات صباح وقد كنت خارجة إلى الفرن لشراء الخبز وقد تركت الباب مفتوحا لأن عزيزة تأتي

في أوقات مختلفة ، عدت إلى البيت ولفت نظري أن الباب مقفول ، تذكرت بأنني تركت المفاتيح قي القفل من الداخل عندما خرجت ٠ وقبل أن أمد يدي لأطرق الباب سمعت صوتها يهتف به : افتح ، أنا عزيزة صديقة خورشيدة ، ألست بحاجة إلى امرأة ، سأهبك حاجتك ، لدي قدرة لامتاعك ، افتح ، لاتكن عنيدا ٠
وجاء صوته مجيبا عليها : لن أخون زوجتي حتى اليوم الأخير من عمري ، لقد تعاهدنا على ذلك منذ ثلاثين سنة في اليوم الأول لزواجنا .
قالت وهي ماتزال تطرق بابه بخفوت ورجاء : لكنها الآن ماتت .
أجاب باستهزاء : أنت تهلوسين .

عندئذ طرقتُ الباب ففتحتْ عزيزة وقبّلتني ، استطعتُ في تلك اللحظة أن أتحكم بفوران دمي ، وأظهرت لها بأنني لم أسمع شيئا ، لكنني بذات اللحظة كنت سعيدة لنقاء أبي ولمدى إخلاصه لأمي ورفعتُ رأسي إلى الأعلى قائلة في سري : يارب ارزقني برجل نقي كهذا .
ما يزيدني دهشة أنه جاد في حديثه لدرجة أنني في لحظات من جديته أردد في سري بكل جدية : هل أنا واهمة أم هو .. هل أنا مريضة أم هو .. هل يمكن أن خورشيدة ماتت وأنني لاأريد أن أصدق موت ابنتي الوحيدة .

ورأيته يخرج في إحدى الصباحات دون أن يقول لي إلى أين ولا أدري لماذا رأيتني أتصرف في البيت كما كانت تتصرف أمي ، أخذت صيغتها إلى الصائغ وبعتها بكل ثقة وكأنني أبيع صيغتي .

ذهبت إلى السمان ، سددت له الديون المتراكمة على أبي وعدت إلى البيت حاملة ماينقص بيتنا من أغراض ، انتظرته حتى المساء ، لكنه لم يعد ، قلقت عليه ، ولاأعرف متى وكيف أخذتني الغفوة وقد تركت الباب مفتوحا كي يدخل ..

أفقت في الصباح دون أن أجده ، تضاعف قلقي عليه ، فأين بات ليلته ؟! . وخرجت أبحث عنه في سوق المدينة ، خرجت وليتني لم أخرج ، ليتني مت قبل أن أرى أبي في ذاك الموقف .
كان ثملا يتقيأ على رصيف وسط المدينة والناس يلتمون حوله ويستهزئون به ، ويبدو عليه أنه أمضى ليلته على ذاك الرصيف .
نظرت إليه نظرة كما كانت تنظرها إليه أمي ، لا أدري مالذي فعلته به تلك النظرة التي صوبتها إليه مرغمة وقد خرجتْ من عينَي كما تخرج مني الروح ، لكنها فعلتْ فعلها فأيقظته من ثمله لينهض وكأن شيئا لم يكن ، كأنه لم يكن ذاك الذي كان قبل لحظات ، ووسط ذهول الحضور ناداني باسم أمي فأمسكت بيده وعدنا إلى البيت ، أعلمته بأنني بعت الصيغة وسددت ديونه .
فقال بأن حكمتي دوما تأتي لتنقذه من أزماته .
في المساء لم يبق أمامي إلا أن أقرر الخروج ، وكان الخروج هو محاولة أخرى مني لأكون أكثر قربا من أبي ، محاولة جديدة للعناية به والتضحية في سبيله . خرجت من البيت وكأنني أخرج منه لآخر مرة ، وصراخ أمي يلاحقني بالخروج . تركت بيتي الذي ولدت وترعرعت فيه يوما يوما ٠٠ ساعة ساعة .
خرجت بعد منتصف الليل وأبي بأمس الحاجة إلى خروجي هذا ، بأمس الحاجة إلى غيابي عنه رغم لهفتي ورغبتي الشديدة بالبقاء .
صمتتْ خورشيدة ، وبعد قليل رشفت رشفة ماء وأردفت بنبرتها الناعمة ، وحنجرتها المثقلة بالبكاء ، وعينيها اللتين مافارقتهما الدموع : آلمني يا ذكرى أن أتزوج بهذه الطريقة ، ولكنني لم أجد غيرها في ضياعي ، شرحت لنفسي ولهذا الرجل الطيب الذي آلمه أيضا زواجه بهذه الطريقة مني ، وكان يفكر أن يقيم حفلة عائلية حميمية لي ويقدم أقرباؤه إلي الهدايا ، ونصوّر حفلتنا على شريط فيديو ، ونمضي أسبوعا في مدينة جميلة ، وكذلك كنت أحلم بوضع صورة لزفافي في غرفة نومي كما فعلت أمي .

لقد ضحيتُ بكل شيء في سبيل ألاّ أخسر أبي وألاّ يخسرني ، وأنا أسمع بكل قوة صراخ أمي التي نادت بالخروج وهي على كل ذاك الغياب مني .
ومَنْ للمرأة غير الرجل .. هاأنذا أهرب من الرجل إلى الرجل ، ولكن عليَّ ألا أهتم بهذه القضايا الموجعة للرأس ، عليَّ أن أبحث عن مكان أعيش فيه بكرامة وأحافظ على اسم أمي واسم أبي .
إن أبي يمر بظروف مَـرَضْية شديدة القسوة عليه وعلي ، وما أستطيع أن أقدمه إليه في مرضه بغيابي لهو أكثر أهمية مما أستطيع أن أقدمه إليه بحضوري في محاولتي اليائسة الأخيرة .

هذا آخر ما لدي لأقدمه لهذا الرجل الذي لاتنتهي أفضاله علي ، لكنه في الليلة السادسة من هروبي منه وزواجي من موسى اقتحم بيتي الزوجي بعنف علي واستطاع أن يجرجرني خلفه ويعيدني إليه بالقوة كما يعيد نعجة بعد أن فشلت كل محاولات زوجي وأهله بمنعه .
أدخلني البيت وحطّم رأسي بزجاجة و انهال علي يركلني بيديه وقدميه حتى فقدت الوعي وفقدت القدرة على احتمال الألم .

كانت كلماته الأخيرة التي سمعتها : أنتِ لي ، لن يأخذك مخلوق مني ، لقد تعاهدنا على ذلك منذ ثلاثين سنة ، لايحق لكِ أن تتركينني في منتصف الطريق وتقولي : وداعا . وكأن شيئا لم يكن ، وكأن المودة الماضية كلها لم تكن .
لا أعرف كم كانت الساعة عندما أفقت ، ولكن الليل يخيم ، وحده البرد أيقظني ، وأظن أن الحرارة كانت تحت الصفر ، فقد كنت منطرحة على أرض الصالون كأنني ارتميت من سيارة ، فتحتُ الباب وخرجت حافية أركض بين الصقيع حتى وصلت بيتي الزوجي ، في ذاك الصقيع والليل خرجنا إلىالقرية التي يعلّم فيها زوجي .
لم أكن أعلم أنه يعاني هذه المعاناة حتى لايبقى عاطلا عن العمل ، حتى يكون زوجا عاملا وليس زوجا عاطلا عن العمل .

كانت القرية بعيدة عن المدينة وبعيدة عن الطريق العام ، لاماء فيها ولا كهرباء ولا هاتف ولا طريق معبّد . وكانت البيوت كلها طينية بما فيها المدرسة والغرفة التي منحوها لنا .

اعتدت على الحياة هناك رغم فكري الشارد بأبي ، فكنت أحضر طريقة تعليم موسى للأولاد الذين كانوا نحو أربعين طالبا ابتدائيا من مختلف الصفوف المختلطة ، راق لي العمل وصرت أعينه مع المعلمة التي كانت من سكان القرية ، وكذلك المعلم الذي كان من المدينة حتى غدونا كعائلة واحدة كعائلة واحدة في تلك القرية النائية .

كانت الحياة هناك غاية في البساطة واستطعت أن أعيشها ثلاثة شهور متواصلة دون رؤية المدينة ، حتى جاء أحد أخوة زوجي ليخبرني أن أبي أصيب بحالة تسمم وأنه راقد في المشفى .

خفت أن أفتقده قبل أن أراه مرة أخرى ، وركضت تاركة زوجي يهرول خلفي إلى أن وصلنا الطريق العام ، لم أهدأ حتى أوصلتني قدماي غرفة أبي في المشفى عند غروب الشمس .

ويا للصدفة ، لقد كانت ذات الغرفة التي قضت فيها أمي لحظاتها الأخيرة ، رأيت أبي ممددا على ذات السرير ، هرعتُ إليه وصورة أمي الميتة تقفز إلى وجهه ، شممتُ رائحة الموت من ثيابه ، عندما سمع صوتي فتح عينيه و تمتم باسمي ، وغمرني بنظرات أبوية أعادتني طفلة، لكنها بعد لحظات جمدت في عينين ميتتين .

# الفصل الرابـــع

مساء برك بشري في ركنه المعتاد ، وبركتْ ذكرى جواره بينما استلقى نجم على ظهره في الكنبة يشاهدون برامج التلفزيون .
بدت ذكرى تخفي معالم دهشتها وهي ترى غياب كأس النبيذ من الطربيزة إلى جانب منفضة السجائر وطبق المكسرات لأول ليلة منذ أن تعرفت به .
كان على النهر يحمل زجاجته ويشرب على الضفة ، وأحيانا يبتعد ليبرك على صخرة يشرب ويتأمل النهر المظلم من بعيد حتى ظهور الشفق ، حتى عندما يرغب في الصيد ليلا فإنه يحمل معه زجاجة إلى المركبة .
الليلة يكتفي بفنجان قهوة رغم وجود صندوق جديد من نبيذ معتق أحمر جلبه منذ يومين .
أحست بأن نجم أيضا بدأ يتفقد الكأس وهو يمد نظراته إلى الطربيزة دَهِشا ، ورغم أنها اعتادت على المكسرات مساء مع شاي وقهوة لمداومتها هذه العادة كل ليلة لتسامره وتظفر بمتعة الجلوس إليه ، فقد قمعت شهيتها ولو لحبة فستق حلبي واحدة مع رشفة شاي ساخن وهي التي اشترت بنفسها كيسا من الفستق النبي وحمّصته منذ ستة أيام ليكون مونة ليالي الشتاء الطويلة ، حتى نجم الذي اعتاد على وضع كمشة على طربيزته مع الشاي رأى أن يقمع شهيته هذه الليلة .
عندما بلغت الساعة العاشرة والنصف قام نجم متجها إلى الحمام ومن ثم دخل غرفته وما لبث أن أطفأ نورها .
لبثت ذكرى قابعة جوار زوجها وهي تعيش حالة استقرار وسكينة في زواجها فتهمس في سرها : إنه هدوء مابعد العاصفة .
أطفأ بشري التلفاز وقال : لدي رغبة في السهر معك ومع صوتك الذي تسحرني نبراته ، لاأريد لأي صوت غيره أن يأخذني في هذا الوقت الذي أشعرفيه بأنه ملكي . وهذا القلب ياذكرى مابه يمتلئ كل يوم بحبك يا بهيتي .

قالت : سأجلب لك كأسا من حليب ساخن حتى تستمتع بـه وتتذوق نكهتـه المسائية الطيبة .
غابت دقائق وعادت تضع في يده كأسا ساخنا من الحليب على طبق .
قال وهو يرشف رشفة حليب : كأنني أدمنت حديثك الهادئ ، كأنني لن أرتوي ، سمعي هو الذي يلح علي بنبراتك . ثم همس وهو يمد يده لتستقر في ثنايا شعرها : اسمعيني ياصاحبة أجمل صوت نسائي في العالم ، قولي المزيد مما تعرفيه عن الدين وعن الرسول ، علميني مما علمك الله .

الدين ياسيدي هو أصل المعرفة وليس فرعا من فروعها ، كل علوم ومعارف العالم انبنت على قاعدة الدين ، حتى الملحد فإنه في ذروة إلحاده يتمتم في لحظات السكون :
ولكن من أين أتى الإنسان ؟! .
القرآن يابشري الذي يضم بين قابَيه / ٦٢٣٦ / آية لهو كنز معرفي لاينضب لبني الإنسان ، دوما يابشري أحمد الله لأنني تلقيتُ الدين بجهودي وقراءاتي دون أن أتلقاه على أيدي الآخرين أو من خطب جمعة ، أو بواسطة شيخ ، تلقيته مباشرة من مصدريه ، القرآن والسنة ، ولذلك أفهم الدين كما قرأته بنفسي وليس كما قرأه غيري وأملى علي فهمه .
هؤلاء منهم من يتقصد الإساءة إلى الدين ، ومنهم من من يسيء دون عمد ، ولكنهم في النهاية يعطون صورة سيئة عن هذا الدين ، فيصبحون حجة بأيدي من يهمهم إظهار هذه الصورة ، لأنهم يجعلون من أنفسهم ممثلين وحاملين لواء هذا الدين .

مشكلة الاسلام ليست في القرآن والسنة ، ولكنها في المسلمين أنفسهم .
سأضرب لك مثلا يابشري ، فإذا حدث وأن أخطأت فتاة بالزنا فإنها على الأغلب ستدفع حياتها ثمنا لهذه الخطيئة ، سيقوم أقرب الناس إليها بتنفيذ هذه المهمة .

لكن نقاء الإنسان يميزه كعلامة واضحة ، النقاء الذي يبلغ بصاحبه درجة عليا يشم فيها رائحة الكذب من شخص كاذب ، ويشم فيها رائحة الصدق من شخص صادق .
رغم كل هذا فمازلنا نلتقي أنقياء في حياتنا وتنشرح صدورنا برؤيتهم .
ذات مرة نهض أحد الصحابة ليصلي الفجر إماما في الناس ورأى أنه إذا اغتسل في صقيع ذاك الصباح فإنه سيهلك نفسه ، فتيمم والماء بقربه ، فعلم النبي بأمره وقد صلى في الناس إماما دون اعتسال ، لأن حضور الماء يبطل مفعول التيمم .

فأجابه صاحبه بأن الله ينهى أن يهلك المرء نفسه ، وأنه لو اغتسل بذاك الماء البارد لأذى نفسه ، فلم يجد رسول الله سوى أن يبتسم .
إنه محمد يابشري ، محمد بن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف بن قصي بن كلاب بن مرة بن كعب بن لؤي بن غالب بن فهر بن كنانة بن خزيمة بن مدركة بن إلياس بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان .

لقد وصل نسله بصفاء منذ آدم ، وهو أينما حل وقع معه الخير .
يمكن أن تقع على حديث له يقول فيه : ما افترق الناس عن فرقتين إلا جعلني الله في خيرهما فأخرجت من بين أبوي فلم يصبني شيء من عهد الجاهلية ، وخرجت من نكاح ولم أخرج من سفاح ، من لدن آدم حتى انتهيت إلى أبي وأمي .
إنه الرجل الذي شاء الله أن يصطفيه من سلسلة البشرية ليكون خاتما للأنبياء ، وهو يقول في بعض حديث : إن الله اصطفى كنانة من ولد اسماعيل ، واصطفى من كنانة قريشا ، واصطفى من قريش بني هاشم ، واصطفاني من بني هاشم .
يصفه صاحبه أبو هريرة : مارأيت أحسن من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، كأن الشمس تجري في وجهه .

ويصفه ابن عمه علي بن أبي طالب : لم يكن بالطويل البائن ولا بالقصير المتردد ، من رآه بديهة هابه ، ومن خالطه معرفة أحبه .
كان ياسيدي يشدد على الأخلاق كما لم يشدد على شيء لأن من تمتع بالأخلاق سيكون قد بلغ درجة سامية من النقاء الروحي ، وسيكون بعيدا عن الغدر والخيانة والنفاق ، وكان يحسم قوله في هذا الأمر قائلا ليس لأصحابه فحسب ، بل لكل شخص يولد من بعده على مدى الزمن : إن من أحبكم إلي وأقربكم مني مجلسا يوم القيامة أحاسنكم أخلاقا ، وإن من أبغضكم إلي وأبعدكم مني الثرثارون والمتشدقون والمتفيقهون ٠ ماشيء أثقل في ميزان المؤمن يوم القيامة من خلق حسن ، وإن الله ليبغض الفاحش البذيء ٠
من علامات حسن الخلق ياسيدي أن يكون المرء كثير الحياء ، قليل الأذى ، كثير الصلاح ، صدوق اللسان ، برا وصولا وقورا ، صبورا شكورا ، رضيا حليما رفيقا عفيفا ، لالعانا ولاسبابا ، ولانماما ولامغتابا ، ولاعجولا ولاحقودا ، ولابخيلا ولا حسودا ، يحب في الله ويبغض في الله ، ويرضي في الله ويغضب في قلبه . كان خُلقه القرآن ، وكم تمنيت فيما لو حظيتْ ولادتي في زمنه ، لما ترددت إذذاك لحظة ولا تركت فرصة للسعي إليه لأكون حليلته ، وعندها أتخيل أنني ممن شملهن خطاب الله : / يانساء النبي لستن كأحد من النساء إن اتقيتن فلا تخضعن بالقول فيطمع الذي في قلبه مرض وقلن قولا معروفا ، وقرن في بيوتكن ولا تبرجن تبرج الجاهلية الأولى وأقمن الصلاة وآتين الزكاة وأطعن الله ورسول إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيرا ، واذكرن ما يتلى في بيوتكن من آيات الله والحكمة إن الله كان لطيفا خبيرا / .

إنه يابشري الرجل الذي لايُنقص من شأنه ، أولئك الذين يظنون ذلك عندما ينسبون إليه القرآن ، في الواقع فهذا علو من شأنه لأن القرآن هو معجزة بكل المقاييس ، ونَسَبه إلى شخص ليس انتقاصا له بقدر ما هو تعظيم لشأنه، وليس من شاهد على أن القرآن من الله غير هذا الرسول

الذي هو لوحده يحمل الحقيقة ، ولو نسبه إلى شخصه أو إلى أي كائن غيره لما وجد الناس شاهدا يقول بغير ذلك ، ولو رغب في أن يبقى اسمه خالدا في الدنيا لكفاه القرآن بذلك . فهو يقول بأنه رسول الله ، وهذه ليست مفاجأة ، فهو رسول يكمل سلسلة رسولية عبر الزمن .
كنت دوما أقول بأنه لايوجه لنفسه عتابا مثل : / عبس وتولى أن جاءه الأعمى وما يدريك لعله يزكى أو يذكر فتنفعه الذكرى أما مَنْ استغنى فأنت له تصدى وما عليك ألا يزكّى وأما من جاءك يسعى وهو يخشى فأنت عنه تلهى / ٠ ولكنه يسمع كلام الله فيقول للرجل الأعمى عبد الله بن أم مكتوم : مرحبا بمن عاتبني به ربي .

ولم يكن يغامر ليقول بأن أبا لهب وزوجته لن يدخلا الإسلام ، لأنه لايدري إن كانا سيدخلاه أم لا حتى من باب التحدي لبطلان قوله ، وكان يمكن لهما أن يعلنا إسلامهما نفاقا لأن باب الإسلام لم ينغلق أمام أحد وقد دخله من كانوا كفارا ومشركين .
ثقافة القرآن تسمو بك بدرجة أعلى من ثقافة أخرى : / خذ من القرآن ماشئت لما شئت / .
انظر يابشري وحتى أبقى ضمن حديث القرآن - لا أعرف لماذا وقعت كلمة /انظر / على لساني – : إذا خالف شخص شخصا في الرأي قد يأتي الثاني خاصة إذا كان صاحب نفوذ فيؤذيه ، ولكن الله بقوته المطلقة يتسامح مع مَنْ يخالفه ويمنحه الفرص حتى يهتدي ويكف عن أذى الآخرين .

لعل فرعون ياسيدي مثال في هذا فقد قال الله بأنه / طغى / وعندما يصفه الله بهذا الوصف في قرآن يُتلى ويُتعبد به خمس مرات كل يوم في الصلاة ، فإن هذا الرجل يكون قد / طغى / بالمعنالذي يعنيه الله والذي هو أعلم بسعة هذا الطغيان ، فهو يبلغ مرحلة يقول فيها : / يا أيها الملأ ماعلمت لكم من إله غيري / .

عندما يطغى الإنسان بحق نفسه وضمن دائرة شخصه فهذه مشكلته ، أما إذا مس الأمر عامة الناس وظلمهم وإلحاق الويلات بهم فإن الله يتدخل لإنقاذ عباده من أخ طغى على اخوانه .
فكان التدخل أن أرسل إليه رسولين وقد أو صاهما أن يكونان لينَين في حديثهما معه : / اذهبا إلى فرعون إنه طغى فقولا له قولا لينا لعله يتذكر أو يخشى / .
مهما بلغ الإنسان من نفوذ في الأرض فإنه في النهاية واهن أمام قوة الله المطلقة ، ولكن الله يريد للإنسان أن يصلح بالكلمة الطيبة والقول اللين، وهو يتسامح ويعفو عما قد سلف إذا آب إلى ربه .
لقد علمتُ بأن الله ليس بحاجة لأن يصلي إنسان له تحت السيف ، ولذلك كان الخطاب لآخر رسول : / ولو شاء ربك لآمن مَنْ في الأرض كلهم جميعا أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين / .
كانت رسالة بيانية حتى لايحمل محمد سيفا ليقود الناس به إلى المساجد كأنه يقود الغنم المطيرة في الليلة الشاتية ، عندما بلغ من القوة والنفوذ مابلغ ٠

يريد الله أن تذهب إليه راغبا في أن تذهب إليه ، لأن العبادة تعني الخشوع ، وهذا الخشوع لايتحقق إلا وأنت قنوع ومستقر في إيمانك .
فمثلا عندما يقول المصلي : / السلام عليك أيها النبي ورحمة الله وبركاته / ويتذكر بأن الملائكة سلموا على النبي ليلة الإسراء فأجاب عليهم وهو يتذكر أمته : / السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين / عندما اكتفى الملائكة بسلامه ، أدخل معه الصالحين إلى رحاب السلام .

هنا عندما أتذكر مثل هذه الوقائع سوف أعيش حالة الخشوع في رحاب الصلاة ، سأذهب إلى الصلاة وأنا أعيش كل دلالات قولي : / السلام عليك أيها النبي ورحمة الله وبركاته ، السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين / . سأعيش حالة الحوار ، وهذا سوف يزيدني خشوعا وتضرعا في صلاتي لأنني أقرأ بتدبر وهدوء وسكينة ، وإلا فما الفارق

بيني وبين آلة تسجيل تردد هذا الكلام على مسمعي وأنا أنفذ حركات الصلاة حتى أبلغ مرحلة تتحول فيها صلاتي فقط إلى حركات رياضية ثقيلة على قلبي .
ذات مرة رأى النبي رجلا يصلي وهو يعبث بوجهه فقال : / لو خشع قلب هذا الرجل خشعت جوارحه / .
التوجيه هو للخشوع في العبادة حتى لوكان العابد مغمض العينين يجلس في ظلمة لأن أي فعل عبادة يخلو من الخشوع سيكون مثل أي جسد خلا منه الروح ٠
فانظر إلى النبي وهو يتأمل رجلا يؤدي الصلاة ، ولما يفرغ يقول له : أعد صلاتك فانك لم تصل ٠ فيعيد الرجل صلاته ممتثلا لقول النبي ، وعندما يفرغ ، يعيد عليه النبي قول السابق ، فيعود الرجل للامتثال ، ولما يفرغ ، يعيد إليه النبي ذات التوجيه ، ولما فرغ وقد لبث فيما هو فيه .
شرع النبي يعلمه كيف يكون المصلي مصليا وكيف يكون المصلي غير مصل فالمصلي الذي يقدم الصلاة بخشوع وتدبر وقد ولج إلى تفاصيل حالة الصلاة وهو يعيش كل كلمة يقولها ، عندئذ تصعد إلى الله ببركة وتقول لمصليها : حفظك الله كما حفظتني .
بينما صلاة الغافل المتكاسل المتثاقل الذي يصلي بدون رغبة ، أو لأقل بقلب لامحبة فيه ، فإنها تأبى أن ترتفع إلى الله ، وتُقذف في وجه مصليها فتقول له : أضاعك الله كما أضعتني .

الصلاة هي حالة تامة من طقوس الطمأنينة بين يدَي رب رحمن رحيم ، ولم تكن في يوم عبارة عن حركات معتادة ، وهذه الحركات ليست شرطا للصلاة إن كانت متثاقلة أو تعجيزية ، فيمكن في وضع صحي ما أن يقدم المرء صلاة خاشعة مكملة لربه وهو في الفراش مستلقيا على ظهره .
إن في الله من الطيب والجمال مما لايستقبل الذاهب إليه بدون طيب وجمال ورغبة كبرى في الذهاب ، ولذلك فنحن نتطهّر ونغسل ملبسنا

ونتطيب ونتخذ ما ننفقه قربات عند الله ليستقبل صلاتنا وتسكن جواره ، ثم نسكن إلى تلك الجوار المباركة في وقت يشاءه الله .
قال بشري : والذي لايصلي ؟.
أدرت ذكرى بأنه يعني نفسه ، فصمتت طويلا ، وعادت تقول بذات الهدوء : / يروي الإمام أحمد عن نبينا : / خمس صلوات كتبهن الله على العباد ، من أتى بهن بتمامهن كان له عند الله عهد أن يدخله الجنة ، ومن لم يأت بهن فليس له عند الله عهد أن يدخله الجنة ، إن شاء عذبه ، وإن شاء أدخله الجنة .

بالنسبة للصلاة فإن الله فرضها على المسلمين ليلة الإسراء خمسين صلاة في اليوم ، ولكننا ندين لموسى الذي رأى نبينا عائدا يحمل هذه الصلوات لأمته ، فسأله عما أتى به من عند ربه ، فقال بأنه جلب معه خمسين صلاة فرضها ربه على أمته في اليوم ٠
قال له موسى أن يعود إليه ليخففها لأن الناس سوف يتكاسلون ٠

فصدق كلامه وعاد إلى ربه يسأله التخفيف ، فاستجاب له ، وعاد يحمل الصلوات إلى أمته فرآه موسى مرة أخرى عائدا ، فسأله مرة أخرى عما حدث معه ، فقال بأن الله استجاب وأخفض الصلوات ،
لكن موسى قال أن يعود مرة أخرى إلى ربه ليخفض أكثر ، فعاد إلى ربه يسأله أن يخفض كذلك خوفا منه على أمته بأن تتكاسل في آدائها ، فاستجاب له ربه ، وعاد فرحا يحمل الصلوات المخفضة مرتين ليبشربها أمته ، ولكنه رأى موسى للمرة الثالثة وهو بطريق عودته فسأله أيضا عما حدث معه ، فقال بأن ربه استجاب له وأخفض الصلوات رحمة بأمته ، ثم قال له موسى بأن يعود مرة أخرى فيسأله التخفيض ،
ولبث بين ربه وبين موسى إلى أن بلغ التخفيض إلى خمس صلوات .
عندها اقترح إليه موسى أن يعود كذلك إلى ربه ويسأله أن يخفض لأ ن الناس قد يتكاسلون عن الصلاة خمس مرات في اليوم ، فقال بأنه يستحي أن يعود إلى سؤال التخفيض مرة أخرى .

وعاد إلى أمته حاملا هذه الصلوات . وما هو مهم هنا أن الله الذي كان قد فرض خمسين صلاة على المسلمين أبقى على أجرها كاملة ، فالصلوات الخمس تجزى بخمسين صلاة .
هذا يقربنا من محبة الله أكثر ويجعلنا نتعلم منه الاستجابة للأسئلة حتى لوكنا قررنا أمرا رأيناه ، فدوما يبقى باب التخفيف والتسامح مفتوحا ، فالله لم يرد نبيه بعد أن قرر أمرا رآه بحكمته ، فاستجاب لسؤال الإنسان وأخفض ماكان قرره استجابة لسؤال الإنسان الذي يحب .
ثم بدأ جبريل يعلمه كيف تؤدى الصلاة ، وكانت صلاة الظهر هي أول صلاة صلاّها النبي .

بالنسبة لموسى فهو كان على معرفة مسبقة بقوة عفو الله وتسامحه واستجابته لأسئلة الناس سواء كانوا أنبياء أو غير أنبياء ، وكان قد مر بتجارب عملية عديدة مع ربه ، فعندما أمره ربه أن يذهب إلى فرعون كما ذكرت لك قبل الآن وكان خطاب الله واضحا وموجها إلى شخصه بقوله : / اذهب إلى فرعون إنه طغى / . قال موسى : / رب اشرح لي صدري ، ويسر لي أمري واحلل عقدة من لساني يفقهوا قولي ، واجعل لي وزيرا من أهلي هارون أخي أشدد به أزري وأشركه في أمري / .

فاستجاب له ربه قائلا : / قد أوتيت سؤلك ياموسى / . – ولله المثل الأعلى – لاأدري لماذا أتذكر أمام هذا قول أبي لي بأنه كان قد قال لابن أخيه أنني سوف أكون زوجته ، ولأنه قال كلمة فلابد أن تحدث ولو بالقوة ، وحتى لو أنه ماعاد مقتنعا بفكرة زواجي منه فعلى هذا الزواج أن يتم فقط لتنفيذ كلمته .
علينا دوما أن نتعلم من الله قبل أن نتعلم من آبائنا وأمهاتنا وأساتذتنا .
بعد أن نكون فقهنا شيئا من علم الله سوف يكون كل شيء على مايرام لأ ننا سوف نتحرك بقوة الله ، ونواجه المصائب بقوة الله ، ونحتمل الآلام بقوة الله ، سيكون كل شيء مرتبطا بالله الذي هو / العدل / والذي يتدخل ليتحقق العدل .

مرة تقدم أحد أقرباء صديقتي خورشيدة ليطلب فتاة كان قد أحبها منذ سنة ، ولكنه فوجئ بأبيها يرفض طلبه ، فذهب إليه ليعرف منه السبب .
قال الأب بأنه سمع عنه أخبارا سيئة من بعض المقربين له ، وكذلك فهو ليس مرتاحا لأمر هذا الزواج .
عرف الرجل هؤلاء الذين تسببوا في هذه المشكلة وكانوا أهل سوء وسوابق عديدة بسلبياتهم في المجتمع .
في ذاك الحين كنت ألتقي قريب خورشيدة في بيتها أحيانا ، كان شخصا نقيا ، مؤمنا بالله ، يصر ألا تخرج من فيه كلمة غير صادقة ، وكا ن أمينا تقيا ، كانت لديه رغبة قوية لينتقم من أولئك الذين نقلوا عنه صورة سلبية لأبيها ، حتى أصابه اليأس ففكر بالهجرة ، ولم يتمكن من ذلك بسبب أوضاعه المالية التي كانت بالغة السوء .
كانت خورشيدة تقول لي بأنه يعيش بدون أمل ، وأن حبيبته كانت هي الحياة كلها ، فلمن سيعمل ويكافح ويبتسم ، كل شيء غدا مظلما أمامه .
وعنذاك تدخلت خورشيدة بنفسها وذهبت إلى الفتاة تعرض عليها فكرة أن تواجه والدها ٠ قالت خورشيدة لها : إن كنتِ تريدين الزواج بنافع ، اضربي عن الطعام ، وإن لم ينفع ذلك تناولي بعض الأدوية ليسعفوك إلى المشفى ، وإن لم ينفع ذلك سلّطي عليه أخوته وأقرباءه ، وإن لم ينفع ذلك قولي بأنك ستهربين معه وأنت مستعدة لأي عواقب ، وإن لم يلن ، لايكون أبا .

عندها قولي له بأن الذي لايكون أبا معي ، لن أكون ابنة له ، وخذي شاهدين من المتعاطفين معك إلى القاضي الشرعي وقولي بأنك بالغة راشدة ترغبين الزواج من هذا الرجل البالغ الراشد ، وعودي معه إلى بيته ، وليفعل مايريد هذا اللا أب ٠
كان جوابها لخورشيدة أنها لن تفعل شيئا مما ذكرت ، ولكنها تحب نافعا ومتعلقة به ولاتتصور زوجا غيره .

انفعلت خورشيدة عليها وقالت : أنت منافقة ولاأستطيع أن أمضي لحظة أخرى معك. بعد شهرين من ذلك ، سمعنا بأنها تزوجت من رجل في الخامسة والستين على ضرة ، فقالت خورشيدة : هذا هو مكانها .
لكن لم يدم ذلك فقد فوجئنا بأنها هربت مع ابن خال زوجها وهي على ذمته إلى مكان مجهول ، وبعد شهرين تركها الرجل الثاني لتعود إلى أبيها مطلقة ٠
للتو ابتسم نافع وذهب إلى أولئك الذين كانوا قد تسببوا لمنع زواجه منها وهو يشكرهم ويقدم لهم الهدايا ، وصار يندم على كل كلمة بذيئة كان قد وجهها إليهم ولأبيها ويقول : كانوا يسعون لإنقاذي وأنا أشتمهم ، عليّ الآن أن أقدّم اعتذاري وما أستطيع من هدايا ٠
وعندما سألوه عن سبب تودده إليهم قال نافع لهم الحقيقة وكيف أنهم أنقذوه من كارثة نفسية واجتماعية كانت ستقع عليه .
كان في السابق كلما يتذكرهم يتصاعد الدم إلى وجهه ، أما الآن كلما يتذكرهم ينشرح صدره ٠
هذه الحادثة وقعت في بالي وأنا كنت أتحدث عن التخفيف والتسامح والعفو عند المقدرة ، أريد ألا أخرج عن حديث الدين فأقول لك بأن الله ينزل أمرا ، وبعد ذلك ينسخ هذا الأمر بأمر آخر ، و النبي أيضا تعلّم من ربه هذا التخفيف والاستجابة لسؤال الناس ، وعدم التشدد بقول قاله ، فقد سبق له أن منع الناس من زيارة المقابر ، لكن فيما بعد أباح لهم ذلك قائلا : / كنت قد نهيتكم عن زيارة المقابر ألا فزوروها / ٠
إن الله دوما يعلّمه كيف ييسرللناس ويتشاور معهم فيوجهه : / ولو كنت فظا غليظ القلب لانفضوا من حولك ، فاعف عنهم واستغفر لهم وشاورهم في الأمر / ٠ ويخاطبه : / إنا أرسلناك شاهدا ومبشرا ونذيرا وداعيا إلى الله بإذنه وسراجا منيرا / ٠ ومنه يتوجه إلى عباده داعيا إياهم أن يستقبلوا الرسول فيهم : / لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم بالمؤمنين رؤوف رحيم / ٠ هناك أمر آخر غاية في الأهمية وهو أن الإنسان مهما كان موقعه فهو يجهل موقعه عند الله ،

حتى عندما استشهد أحد الصحابة وقالت زوجته بأنه سيدخل الجنة قال لها النبي : وما أدراك ؟! ٠
ثم أوضح لها بأنه الذي ختم النبوة ورسالات الله لا يقول بأنه سيدخل الجنة وأن أعماله لوحدها لاتمكنه من دخول الجنة لولا رحمة الله ٠
وهذا سؤال هام يمكن نسأله لأولئك الذين يظنون بأنهم يوزعون جوازات دخول إلى الجنة لبعض شبان يجعلون من أنفسهم قنابل بشرية يهلكون بها الممتلكات والأرواح في أماكن آهلة بعباد الله الأبرياء : / وما أدراكَ / ؟ ! ٠
ذلك أن الله تبارك وتعالى يُدخل من عباده الجنة دون حساب ٠
فهؤلاء لايُسألون ولا يُحاسَبون ولاينتمون إلى عصر بذاته ولا إلى مكان دون غيره ، إنهم من كل العصور ومن كل الأماكن يحملون براءة من الله ٠
لاينتزع الرحمن العبادة من عباده انتزاعا ، ولكن على مخلوق الله أن يقدم الطاعات خاشعا متوسلا عسى خالقه أن يكرمه بتقبل هذه الطاعات ، وهذا فضل آخر للخالق على المخلوق ، فضل تقبل الطاعة والعبادة منه ٠
إننا ياسيدي بحاجة إلى الله ليتقبل منا عباداتنا برحمته ، فهل أستحق أن يتقبل ربي هذه العبادة مني فأرتقي إلى نعمة التواصل الكبرى هذه ٠ ليس لنا إلا الله ، فإذا كان هو معك فمن عليك ، وإذا كان عليك فمن معك ٠
عادت ذكرى إلى الصمت برهة والدمع فائض في عينيها ، ثم أردفت كأنها تصلي : إننا بحاجة إلى أن يرحمنا ربنا ، ألا نرحم أنفسنا ، ألا نتراحم فيما بيننا ٠ ثمة حديث للنبي يشرح فيه : / إن من الذنوب ذنوبا لايكفرها الصلاة ولا الصوم ولا الحج ، ويكفرها الهم في طلب العين / ٠
كما يمكن لساعة واحدة في العمر أن تمر عليك في موقف فتكون خيرا من سبعين سنة عبادة ، يتواصل النبي في المزيد من إضاءة هذه الجوانب وهو يبين للناس أبواب العبادات التي تفوق الصلاة والصيام والحج فيقول : / عدل ساعة خير من عبادة سبعين سنة قيام ليلها وصيام ونهارها / ٠

منذ ثلاث سنوات مات أحد أقربائي وترك وصية لأبنائه يوصيهم فيها أن ينفقوا مائة كيس حنطة على الفقراء والمساكين قبل أن يتقاسموا التركة فيما بينهم ، وأذكر بأنها كانت ألف دونم من الأراضي الزراعية المروية ، وكانوا ثلاثة أولاد وأربع بنات .

بعد أسبوعين أرغموا أخواتهم للتنازل عن حقوقهن الشرعي والقانوني لأن البنت عار عليها وعلى أهلها أن ترث وتقتسم أملاك أبيها لتوزعها على الغرباء ، أو تجعل الغرباء شركاء في إرث والدها ٠

وكانوا يعنون بالغرباء أولادهن ٠ ومن بين هؤلاء عُرف عن أخيهم الأصغر علي ميله إلى الجامع وقد أطلق ذقنه ، وهو دائم الحديث عن الحلال والحرام ودائم تكرار : استغفر الله ، الحمد لله .

حتى أنه مرة لم يتردد من تحطيم جهاز التلفاز في البيت لأنه توصل إلى اجتهاد شخصي بأن وجوده في البيت كوجود شيطان وأن هذا البيت بوجود الجهاز لاتُقبل فيه صلاة ولا أي عبادة أخرى ٠

ثم لم يتردد في اجتهاد آخر من تحطيم جهاز الهاتف لأن أخته / خنسا / - أظنها خنسا ، أو بســنا - ردت وكان المتحدث رجلا ، فقال علي بأن الشيطان يسكن الهاتف فيوصل صوت المرأة / العورة / إلى رجل أجنبي وهذه من كبرى علامات قيام الساعة وقد تسلطت الشياطين على كل شيء ٠

خنسا هذه ، أو لعلها بسنا لجأت لعلي قائلة له : ياعلي ، هذا الحق أعطاني إياه الرب ، أنت متدين ، تفهم في الدين لذلك لجأت إليك ، هذا مالي وحقي الذي تركه لي أبي ، وهو لم يتركه برضاه ، بل بأمر من ربه الذي أمره كما أمره أن يصلي ويخرج الزكاة ، فلماذا تقفون في طريق تنفيذ أمر ربكم هذا ٠

فقال لها علي : يا أختي تسببين لنا مشاكل لاتحمد عقباها بتفكيرك الخاطئ هذا ، الأرض مثل العرض مايصير التفريط فيها ، لقد رأى الله أمرا وواقعنا الاجتماعي يرى أمرا مخالفا ٠

وعندما عجزت عن اقناعه ، رأت أن تتمرد عليه وتقول ما في نفسها : بس هذه يا علي أملاك الله وهو حر في قسمتها بين الولد والبنت ، يعني أنت مانك عارف أكثر منه ٠

فاستفز علي وقال : اعطني السجادة حتى أصلي وأستغفر لك خطأك بحقي ، باين الحكي مع النسوان مثل الحكي مع الحيطان ٠

ووقع الأخوة الثلاثة في حيرة وأصابتهم حمّى من هذه الوصية الغريبة ، فمئة جوال حنطة تساوي مبلغا كبيرا .

بعد يومين آخرين أخبر علي إمام ومؤذن الجامع / ملا خليل / بأمر الوصية فمشى معه والحديث يسخن في كيفية إيجاد مخرج ديني من هذه الوصية إلى أن وصلا بيت علي ، عندها دعاه إلى الغداء فلم يتردد الملا من تلبية الدعوة ٠ بعد الغداء وشرب الشاي قال له علي : ياملا أنت أبو المخارج الفتوية ٠ ورمى بذلك إلى اللقب الذي عُرف به الملا ، فهو منذ مدة اجتهد بفتيا للبقال / أبو يحيى / عندما جاءه زبون يطلب ألف ليرة قرضة حسنة ، وكان الملا متواجدا في البقالية يشرب الشاي مصادفة مع أبي يحيى ٠

يومها قال البقال للزبون : ياعمّي أنا ماني فاتح مصرف تسليف شعبي ، أنا زلمة سمان ، إذا بدك سمانة أبيعك حتى أربح ، بس مصاري ، حد الله بيني وبين الربا .

فتدخل ملا خليل قائلا للزبون : امتى بدك ترجع المصاري ياأخ ؟

قال الزبون : بعد شهـــرين ٠

صوّب الملا حديثه إلى أبي يحيى قائلا : يعني إيش تقدّر مربحك من ألف ليرة في بيع السمانة لشهرين ؟

مد أبو يحيى يده إلى دفتر الحسابات وبدأ يحسب ثم قال : حوالي خمسمئة ليرة ٠

قال الملا : الدين يُسر يا أخوة ، الدين مو عسـر ، لاتعسروا باسم الدين ، يسّروا باسمه فهذا أقرب للتقوى ، إي هلا بتنحل مشكلة الرجل المتأزم باسم الدين ٠

فقال أبو يحيى دهشا : شلون تنحل يا ملا ؟! .

قال : الزبون يشتري منك بضاعة بألف وخمسمئة ليرة ، وأنت تسجل المبلغ عليه في دفترك ، بعدين يطلع مع بضاعته من الدكان ، ويرجع يعرضها للبيع أمامنا ، وتعطيه سعرك ، ويعطيك سعره وأنا أتدخل لأحسم الأمر بألف ليرة ، ويبيع الرجل بضاعته لك بألف ليرة ٠
منذ ذلك اليوم انتشرت هذه الفتوة في الناس فتحول السمان إلى مرابي وصار يستغل ذوي الحاجات في حاجاتهم ، وبين فترة وأخرى لاينسى نصيب الملا الذي يسانده في عمل التيسير هذا ويضفي عليه مباركة إلهية ٠
فهل نقول بأن الملا يمثل كل ذاك الإرث الفقهي والديني ويمثل كلمة الله ، ثم نقول بأ ن الدين هو الذي يبيح للناس أن يستغلوا بعضهم بعضا ٠
ولكن الله سد الطريق أمام تصديقنا وهو يقول عندما نقرأ كلمة رسوله : /لاتبع ما لا تملك / ٠
شرد الملا بمخرج من هذه الوصية وأصبح يقلّب كفيه ، بعدها نهض واقفا وغدا يحدث نفسه ويجوب الغرفة جيئة وذهابا ، والأخوة الثلاثة وقفوا على أقدامهم ينتظرون إصدار الفرج على قلق وكأن الريح تحتهم دون أن ينبتوا ببنت شفة كي لايشوشوا على الملا أفكاره وبذات الوقت أنظارهم مثبتة عليه بذهول وكأنه يعمل في إبطال مفعول قنبلة موقوتة على وشيك الإنفجار .
وبغتة دون أي تمهيد وقد انتفض من ذروة شروده صدح صوته : أبشركم يا أولادي ، فقد وجد الله لضيقكم مخرجا ٠
فرح الأخوة بهذه البشارة ، وهبّ علي يقبل يدي الملا ، فقال : الوقت ضيق يا أولادي ، أطلب إليكم جوال حنطة وزنجير ا .
تعلّقوا جوال الحنطة بواسطة الزنجير في سقف الغرفة ، وأنا بدي أطلع وأرجع يعد أقل من ساعة ٠
لم يتردد زبير الأخ البكر بخلع المروحة من موضعها في السقف ، وفي فترة لم تستغرق ساعة كان الجوال معلقا من رقبته وسط الغرفة .

لا أعرف لماذا جاءتني كلمة / رقبته / هل للجوال رقبة يابشري ؟
فخرج بشري من استغراقه وابتسم : كل شيء في عرف هؤلاء يمكن أن يكون له رقبة ٠
اكملي ياذكرى أنا مستغرق في الاستماع ، لاتقطعي الحديث ٠ فابتسمت ذكرى وقد عادت إلى أحداثها التي ترويها بخفوت على مسمعه : دخل ملا خليل ..
ثم قطعت حديثها مرة أخرى قائلة : ألا تشتهي فنجان قهوة يا بشري ٠
وقبل أن يجيب نهضت وغابت نحو عشر دقائق ، وعادت حاملة فنجا نَي قهوة وهي تطلب من بشري لأول مرة منذ تعارفهما سيجارة ٠
اندهش بشري لهذا الأمر وغدا يتأمل منظر السيجارة بين أناملها ، ومنظر نفثها للدخان ، ولم يمسك دهشته فتمتم : لو علمت أن السيجارة تليق بك بهذه الدرجة لطلبت منك كثيرا أن تدخني سيجارة ، فقط لأتأمل هذ ا المنظر الجمالي ، دوما أنجذب إلى لمسات التمرد في المرأة ، هل قلت / تمرد / - هذه تعلمتها منك - أعني لمسات الإنفتاح والغنى والتنوع ، دوما كنت أرتعب من المرأة المنطوية على نفسها في بيت مغلق ، المرأة المظلمة ، وبهيرة أثبتت لدي هذا الرعب وقد أخذت معها كل تلك الظلامية والإنغلاقية .
فقالت ذكرى وهي تعب السيجارة : هي مرات نادرة التي دخنت فيها ، خطرت لي السيجارة وأظنني اتمتع بها وأنا في حضنك وأتحدث معك عن هذا الواقع الذي نعيش فيه بكل مرارة سلبياته .
أحضر معه رجلين وهو يدخل دون أن يطرق الباب وقال بعجالة : وقتنا ضيق ياجماعة ، أرجوكم العجلة .. العجلة ٠
وشرع يشرح ويوزع الأدوار كمخرج سينمائي على ممثليه ٠ ثم وقف الملا إلى جانب الرجلين ، ووقف الأخوة الثلاثة ينتظرون تعليماته ، وجوال الحنطة معلق من رقبته في الوسط منهم ٠
عندئذ أعاز ملا خليل إلى الأخ البكر بأن يتقدم فيدفع الجوال إليه قائلا : هذا الجوال أخرجه على روح والدي تنفيذا لوصيته ٠ ففعل الرجل ذلك ليستقبل ملا خليل الجوال المدفوع إليه قائلا : قبلته من على روح

المرحوم ، ثم بعد لحظات أعاده مدفوعا إليه : أعطيك حقي هذا على سبيل الهبة محبة في الله ٠
فاستلمه زبير من الملا ليدفعه صوب الرجل الثاني قائلا ذات العبارة ، ليتلقاه الرجل قائلا : قبلته على روح المرحوم ٠ يبقيه للحظات بين كفيه ويدفعه إلى زبير مرددا قول الملا ، ليستقبله زبير ويدفع به صوب الرجل الثالث ، فيستقبله الثالث وهو يقوم بما قام به زميلاه ، وقد لزم الأخان الآخران الصمت في ذهول المشهد ٠ بذلك أشار الملا إليهم بالوقوف وهو يُعلم الأخوة بأنهم الآن قد أخرجوا ثلاثة جوالات حنطة من الأكياس المئة ٠
ثم أعاز إلى زبير ليعيد الكرة وفق ذات الترتيب وذات الكلام حتى يبلغ العدد المئة ، وأعاز لعلي أن يحضر قلما ودفترا ليكتب العدد خشية أن ينقص جوال ، فهذا مال الله وعليه أن يخرج كاملا بدون نقص ، وحرصا على هذا المال فقد قال بأنه سيخرج جوالين زيادة ليكتمل أي نقص حدث سهوا .
وكانت النسوة من الخارج يتلصصن من خلف النافذة على المشهد الذي راق لهن ويبتسمن بخفوت وكأنهن يتفرجن على مسرحية ٠
انفجر بشري ضحكا وبدا أنه لم يعد قادرا على التمسك بضحكه ، فشاركته ذكرى ذات الضحك ما يقارب ربع ساعة متواصلة حتى خرج نجم على قهقهاتهما ، ولما سألهماعما حدث ، لم يدعهما الضحك المجلجل من الجواب عليه ، فضحك هو الآخر قليلا وعاد إلى غرفة نومه : عندما بلغ العد خمسين جوالا ، استراحوا بايعاز من ملا خليل شربوا الشاي ودخنوا ، ثم أكملوا عملهم في إعطاء ما لله لله إلى أن تم العدد وزيادة ٠
وقبل أن ينصرفوا صلى فيهم ملا خليل إماما صلاة العصر من ذاك اليوم المشهود ، واتجهوا إلى البيكاب الذي كان ينتظرهم أمام الباب وهو يحمل عشرة أكياس حنطة ، ركب ملا خليل إلى جانب زبير وجلس الرجلان على الأكياس إلى أن أوصل كل رجل إلى بيته وعلى ظهره جوال حنطة ، ثم عرج ليوصل ملا خليل إلى بيته مع ثمانية أكياس ٠

الطامة يابشري ليست في هذه الخديعة ، ولكنهم يريدون منا أن نصدق هذه الخديعة على أنها صواب ونباركها لهم في الوقت الذي هم أنفسهم لايصدقون هذا ولا يقبلوه فيما لو كانوا أصحاب الإستحقاق ٠ وكذلك فحتى لو باركناها لهم سوف نكون حمقى بأنظارهم وأنهم استطاعوا أن يمرروا علينا هذه الخديعة ٠
المشكلة أن أي تعامل مع هؤلاء يبعدنا عنهم ٠
كان يوجد شاب بجوارنا - الآن هو في الخارج - ذات مرة وجه انتقادات لتصرفات ملا خليل في خيمة عزاء ٠ فسأله خليل إن كان يصلي ؟ فأجاب الشاب بأنه توقف منذ مدة عن الصلاة ٠
عندئذ لم يتردد ملا خليل من إصدار فتوى بقتله لأنه لايقيم عماد الدين ، وهو شخص مرتد و مَنْ يقتله سيكون قد تقرب من الله بعبادة كبرى ، وقال بأن الأمر لوكان بيده لباشر في هذه العبادة للحال ، ثم أنه يُرمى في العراء ويُحرم عليه حتى الدفن في مقبرة فيه أموات المسلمين .
هذا الكلام كان يمكن أن يدفع أي أحمق مستغن عن حياته ليقوم بهذه / العبادة الكبرى / فسمعنا بأن هذا الشاب المسكين قد هاجر إلى الخارج هربا من تصرف طائش بعد أن علم بأن ملا خليل يحظّر الناس منه وحتى من عدم مباشرته بالسلام ، وعدم الرد على سلامه ، وعندما قال أحد جواره بأنه كل يوم يمر بجنبه مرات عديدة وينحرج من عدم رد السلام عليه ، فرخص له الملا بأن يجيب فقط بـ : / عليكم / . ولايجيب : السلام ورحمة الله وبركاته ٠ لأنه لايستحق سلام الله ولا رحمته ولا بركاته : قل له : / عليكم / ولا تكمل ٠ ولا شيء عليك ٠
هذه الأخبار دفعتني لأهتم بتفاصيل حياة هذا الرجل ، وجدتني مدفوعة لأعرف كل شيء عنه ، فعلمت بأن زوجته كانت تصلي ، ولكنها بعد أن تزوجته بستة شهور تركت الصلاة ، وهو شخص موظف لدى دائرة الأوقاف يقبض راتبا لقاء آذانه ، وهو لايؤدي هذه المهمة التي يقبض عليها ، بل قام بتسجيل صوت يؤذن على شريط مسجلة و وفي أوقات الآذان يرسل ابنه ليضع الشريط ، ويمكن أن يلتبس الأمر بعض الأحيان

على ابنه فتأتي نشرة أخبار أو تأتي أغنية من راديو المسجل ، أو يعض المسجل شريط التسجيل فتسمع ما يمكن لك أن تتخيله من صوت ٠
لكن الدين ساطع في سماء الإنسان وضميره ، أسطع من أن تحجبه غيوم ٠

إنهم لايقرأون القرآن ، لايعلمون الناسخ منه من المنسوخ ، لايعلمون شيئا عن أسباب النزول ، عن الآيات المكية من المدنية ، يفتون بآيات منسوخة ، لايميزون بين المحكَم والمتشابه ، لايعلمون الحديث القدسي من النص القرآني ، لايدركون الأحاديث الموضوعة من الضعيفة من المسندة من الحسنة من الصحيحة من المتواترة ٠

يتجرأون على الفتيا وهم يجهلون فقه المذاهب ، منهم من يتمسك بقول مذهب وكأنه نص مقدس لإله آخر ٠ هذه المذاهب التي أتى بها أبو حنيفة والشافعي وابن حنبل ومالك هي وجهات نظر بشرية يمكن لها أن تتحول في ذروتها إلى الفقه ويمكن أن نتجاهلها جملة وتفصيلا بصوابها وأخطائها ، وأن ننسى هؤلاء ومذاهبهم ونقتلعهم من ديننا ، إلهنا هو إله واحد وكتابنا هو كتاب واحد وقبلتنا هي قبلة واحدة ، وما عدا ذلك فلسنا ملزَ مين به ٠

مثل خليلنا لايملك إلا أن يقول : هذا حلال ، وهذا حرام ٠
فيقول الله : / ولاتقولوا لما تصف ألسنتكم الكذب : هذا حلال وهذا حرام لتفتروا على الله الكذب ، إن الذين يفترون على الله الكذب لايفلحون /٠
هؤلاء أنفسهم كلما خلوا بمحارم الله انتهكوها ٠ الفقه ليس موهبة ، إنه إبحار في القراءة ، كلما بحر الفقيه إزداد تفقها وسعة وتوحيدا ٠

الفقه ليس موهبة ولا فطرة ، إنه سهر وتأمل وتفسير واجتهاد ٠ القضية هي أعلى مما نظر خليلنا ، فيمكن لحديث متواتر أن يشغل الفقيه شهورا دون نوم فتتحول القراءة بالنسبة إليه إلى طعام وشراب وهواء ودفء وبرد ٠ إنه تعامل غاية في الحساسية والاضطراب ، والفقيه الحق هو رجل استنارة يرث الأنبياء ، وإذا ركّزت بعض حديث على خليلنا فذلك لأنه رأس الحربة وأنا أشهده كيف يدس السم في عسل الدين .

بعد صمت رغبتْ في أن تعلم شيئا لاتعلمه من زوجها وهو المحامي المطلع على أحوال الناس وأسرارهم فقالت : علمني يابشري ما لا أعلمه عن واقع الناس ، ماذا علّمتك مهنتك أيها المحامي ، علم زوجتك ما لاتعلم ، زوجتك الشغوفة بمعرفة ما لاتعرف ٠

فقال بشري : مشكلة مهنتنا التي تؤلمني أن الذي يأتينا ، يأتي وهو يبكي ، ولا يأتينا مَنْ يضحك ، لا يضحك لأنه ضُحك عليه كثيرا ، يأتينا عندما يفقد القدرة على تحمل من يضحك عليه ٠

أذكر مرة جاءني شخص يحمل حقيبة ، ولمّا فتحها برزت منه رزم نقود ، فمد يده إلى رزمة فإذا بورقتين من الأعلى وورقتين من الأسفل نقود حقيقية ، أما البقية ما هي غير أوراق بيضاء : انخرب بيتي يا أستاذ ، رحت لأقبض قيمة محصول القطن وأنا فرحان ، الموظف سلمني النقود فوضعتها في الحقيبة بثقة ، في البيت اكتشفت ماهو أمامك ٠

راجعت الموظف فابتسم بخبث وقال : غيرك كان أشطر ياحبيبي ٠ وعندما أصررت بأنه احتال علي طلب الأمن الجنائي متهما إياي بالتهجم عليه ، توقفتُ يومين وخرجت بتعهد ألا أقرب المصرف ٠

في اليوم التالي لجأت إلى زوج أخته الذي لي به سبق معرفة وذهبنا إليه في بيته ، هناك عرضت عليه مبلغا ليرد لي نقودي ، وعاهدته بأنني سوف أواري الأمر وكأنه لم يكن ٠ عندها نط إلى القرآ ن ووضع كفه عليه بأنه سلمني ما استلمه من إدارة المصرف ٠ وقد أعلمها بالأمر فقالت له بأنها سلمته ما استلمت من المديرية العامة ، وكذلك قالت المديرية العامة بأنه لايوجد خطأعندها ، وأنها سلمت المصرف ما استلمته من المصدر ٠

كان الرجل في حالة يُرثى لها وطلب أن يوكلني لأحصّل له حقه .

أذكر بأن المبلغ كان يتجاوز مليوني ليرة ، لكن صارحته بأنني لا أستطيع أن أفعل لع شيئا في هذه القضية الضائعة لأنه لايملك دليلا بأنه لم يبدل النقود ، والمصرف ذاته قال لي بأن أي شخص يمكن له أن يأتي فيطلب مثل هذا الزبون ، فهل علينا أن نلبي طلبه ، وعندها سنفتح علينا بابا لاينغلق .

وحتى لو رغبنا فلا أحد يسمح لنا بفتح هذا الباب للتمويل مرة أخرى ٠
بعد شهرين من التردد وبقايا الأمل الذي كان يلاحقه جاءني إلى المكتب حاملا بيده الحقيبة فأكدت له صعوبة بأنني سأفشل في قضيته لو عملت بها ، لأنني يائس من استرداد الأموال إلا إذا صحا ضمير الفاعل وأتى خلسة يعيد إليه أمواله وهذه الصحوة لاتحتاج إلي ٠ علا وجهه احتقان وسقط على أرض المكتب ٠ مات يا ذكرى أمامي على أرض مكتبي عندما فقد الأمل بالحصول على حقه الضائع ٠ رأيت هذا الرجل بعيني ولا أنساه ٠
كل إنسان ياذكرى يقبع في داخله قاضيه ، تكمن محكمته في ذاته ، وفي ضميره يكون ميزان العدل ، لكن الإنسان ذاته يأتي فيغتال قاضيه ، يحرق محكمته ، يحطم ميزان العدل ، ويطفئ نور الحق من ضميره .

# الفصـــل الخامـــس

اعتاد بشري على حديثها في الأماسي فينتظر حلول الليل لينعم بدفء صوتها ، ولا يخفي عليها بأنه بات يفضل وقت المساء على كل الأوقات ، ويفضل ألا يستقبل وألا يزور أحدا في وقت متعته هذا ، الوقت الذي بات يخصه ، وفي الصباح عندما ينهض ينتابه شوق إلى مساء جديد فيدرك أن ثمة مساء رائعاكذلك هذا اليوم ٠ وما أدهش ذكرى أنها تراه لايطلب النبيذ في مثل هذا الوقت الذي يمتلئ فيه البيت برائحة النبيذ ويهب حتى للجوار .

قال بشري : ياذكرى ألا ترين أن الأبطال اختفوا من حياتنا٠

ابتسمت ذكرى بسمة ألم وقالت : قبل أي حديث يمكن لي أن أقول بأن البطولة ليست حلما من أحلام البشر ولا أسطورة راسخة في الخيال الجمعي للمجتمعات ، ولا هي مغامرة كبرى في أرض مجهولة ٠ البطولة هي محاولة الإنسان في سعيه المتواصل لتحقيق الانسجام مع ذاته كإنسان ، والمسؤولية تجاه الآخرين بكونه أحدهم ٠ البطولة ليست معجزة بشرية استثنائية ، ولكنها حالة طبيعية في مذهب إنسان طبيعي ٠ كل إنسان هو بطل في أعماقه لأن كل إنسان يحمل لمسات إنسانية في جميع الأحوال ، ولكن النماذج هي التي تميل ميولات مختلفة ومتناقضة ، وأحيانا خارجة عن الأطر الإنسانية ، وفي هذا فإن البطولة هي حالة من الصفاء والسلم يعيشها البعض في مواجهة حالة الانهزام والاستسلام التي يعيشها جنود الصف المقابل ٠ البطولة أن ترتقي في درجات سلّم الإنسانية ، والانهزام أن تنحدر في تلك الدرجات ٠

بشري ، الواقع يتزلزل بحالة الانهزامية التي تكاد تغدو شبه عامة في مختلف أعضاء المكان وفي معظم الشرائح والمستويات والأوساط

والاتجاهات ، وليس هناك أسوأ من أن يموت العدل في ضمير الإنسان ، عندذاك سيقوم الإنسان ببناء قصور للعدل غير عادلة ، وعندذاك سنرى الممارسات اللاعادلة تحدث داخل هذه القصور أكثر مما تحدث خارجها ويمكن لك أن ترى قاضيا غير عادل يزين بموازين العدل ، يزين دون عدل٠

لكن المجتمع نفسه أيضا يعزز حالة اللاعدل السائدة ويشجع على أشكال الاستسلام والانهزامية وبالتالي يوجه الضربات الصاعقة إلى كل محاولة بطولة تصدر من أفراد ٠

سمعت بحالة حب عفيفة بين شاب وفتاة وهذا الشاب لعفته تقدم طالبا فتاته للزواج ، لكن شقيقها اعترض على هذا الزواج وطلب أموالا من الشاب ، وكان المبلغ تعجيزيا بمبرر أنه أخفى أخته ليتزوج بمهرها ، أو يبادلها بزوجة ٠ بذل الشاب كل محاولاته بدون أن يجد جديد في موقف الأخ الذي ازداد حدة إلى أن هدد بقتلهما معا لو تزوجا رغما عنه ، لبث الأمر سنة ونصف وافق خلالها الأب والأخوة والأقرباء ، ولكن الأخ بقي متمسكا بموقفه ، وفي ليلة هربت الفتاة مع حبيبها تاركة على فراشها نسخة من عقد زواجها الذي أثبتته في المحكمة الشرعية ورسالة تطلب من أهلها السماح لأنها الطريقة الوحيدة التي تجنبها العنوسة وكانت فيما أظن في الثانية والثلاثين من عمرها بينما كان الأخ في العشرين ٠

أحس هذا الأخ بتحدي الشاب له وإهانته فأقسم ألا يعود إلى البيت حتى ينتقم منه لكبريائه ، بعد شهر من محاولات البحث اليائسة علم بأنهما هاجرا ، فراح يطلق الرصاص على ابن عم الشاب حتى أرداه قتيلا ٠ لقد قام هذا البطل بفعل بطولي ولذلك تجند الجميع للتبرع له بالأموال لإخراجه من السجن ، وراح البعض يطلق اسمه على مولوده الجديد ويعلق صوره في بيته ، وبعض آخر أضفى هالة من القدسية على هذه الواقعة التاريخية فراح يقسم بيوم الانتقام ، ويقسم برأس البطل الغالي الذي رفع رأس العائلة وغسل العار الذي خلفته امرأة فيهم ٠ علمت أن أحد اللصوص كان قد سجن ثلاث سنوات بسبب سطوه على بيت جاره ، تم استقباله لدى خروجه من السجن بذبح ثلاثة خواريف أمام قدميه على

التهاليل والزغاريد لدى وصوله باب بيته ٠ قيل لي أيضا من قبل أحد المقربين الذين شهدوا الواقعة أن أحد المساجين خرج من سجنه بعد عشرين سنة بسبب اغتصاب طفلة وقتلها ليرى مبلغا كبيرا بيديه من متبرعين كتعويض على ما لحقه من ضرر ٠ أما النموذج الطازج الذي روته لي عزيزة منذ أسبوع هو أن أحد الأشخاص كان يلقى الإهمال من أقربائه الذين يعتبرونه معتوها، وكلما زار أحدا من هؤلاء يلقى الطرد ٠ في الشهر الفائت لجأ إلى بعض أقربائه في إحدى القرى قائلا بأنه قتل رجلا ٠ على الفور قام هؤلاء باستقباله وصار كل واحد يجره من يد الآخر ليحتفي ببطولته ويسجل موقفا تاريخيا في حياة العائلة ٠ رأى بطلنا نفسه في بيت مجهز بكل وسائل الراحة يتناول وجبات طعام لذيذة ويدخن سجائر مستوردة مع شاي وقهوة ومشاريب متنوعة ، وقد تبرع أربعة رجال بحراسته في نوب حراسة ليلا نهارا ٠ بعد مرور عشرة أيام على نعيم صاحبنا تبرع أحد الذين أرادوا أن يسجلوا موقفا تاريخيا خالدا بتزويج هذا البطل ابنته على سبيل الهبة والتكريم ٠ أحس بطلنا بأنه في جنة رضوان ولكن الذي أفسد عليه هذه الجنة هو والده الذي كان قد أبلغ عن فقدان ابنه ، وجاء يطلب المؤازرة من الأقرباء ليعينوه في البحث ٠ عندذاك انكشف أمر صاحبنا فطرد من القرية كما يُطرد كلب بعد أن طُلقت زوجته منه بالقوة ، طُردلأنه لم يكن ذاك البطل الذي استقبلوه ٠
قال بشري وقد انسجم في حديثها : لن أرتوي من حديثك الطيب ، سأطمع لأطلب منك أن تحثينني قليلا عن المحبة ٠
أحضرت ذكرى ابريقا من عصير الجزر وقالت وهي تناوله كأسا :
أسئلة المحبة تولد كل يوم ، بالمحبة وحدها يمكن أن يعيش الإنسان لأنها الدافع الأقوى إلى الحياة ، ومتى ماماتت المحبة في أعماق الإنسان انطفأت شعلة الحيوية في حواسه ٠ الذي لايحب يفقد كل علا قة له بالحياة ٠ يمكن أن يحقق الرجل في علاقته بالمرأة الديمومة والمتعة في آن معا فينتعش بمتعة الجماع معها في الوقت الذي يحقق الحفاظ على استمرارية وخلود النوع البشري وهو يغرس نطاف الخلود البشري في قاع ذاك الحرث السرمدي الخصيب ٠ وعلى هذا فأيما امرأة تنقذف في

حضن بعلها فإن حواء تنقذف تلك اللحظات معها في حضن آدم ٠ لذلك تتعالى النداءات الدينية : أفضل النساء ، أيسرهن مهورا ٠ ومن استطاع منكم الباءة فليتزوج ٠ إذا أتاكم من ترتضون دينه وخلقه فزوجوه ٠ يرتبط الجماع بالحب ارتباطا وثيقا ، وإذا خلا الجماع من الحب سيكون مثله مثل طعام طيب فقد نكهته ٠ لذلك يقال للرجل أول مايقال في قرانه : هل تحبها ؟ في الوقت الذي تُسأل فيه المرأة ذات السؤال ٠ لأن الحب هو عمود الزواج الفقري ٠ يحتاج الإنسان إلى طاقة الحب للقيام بأي عمل ، فالعامل الذي يعمل بلا حب سيقدم نتاجا مخلخلا لاتفوح منه رائحة الحب ٠ كذلك الإيمان مرتهن بالحب ، فبدون محبة يكون إيمان المؤمن ناقصا ٠شخص يصوم بكراهية ، يصلي مكرها ، لايعبد الله ليتقرب منه ، بل ليتجنب عقابه ، إنه في النهاية لايحب الله ولايريد لقاءه ٠ عليك أن تقدم الطاعة إلى الله بجمالية وحب ، لأن الله لاينظر إليك على أنك كائن تؤدي فروضا مرغمة عليك إليه ، بل يحبك ، ويفرح بحبك ٠ حبك له ليضفي جمالية على كل علاقة لك بالحياة لأن كل علاقة لك بالحياة هي بذات الوقت علاقة به ، فتتذوق جمالية العبادة ، جمالية التضرع في آخر الليل بين يديه المفتوحتين لضمك ٠ كا ن بعض الصحابة يتطيب شكلا ومضمونا لدى الصلاة ، ولدى دخوله المسجد فيفوح من مظهره الطيب ، ويفوح من حديثه ومن صوته الطيب ، يفوح الطيب حتى من نبضات قلبه فترى وجهه نورا بطيب حب الله ، وبحالة الصفاء التي بينه وبين الله ، وبينه وبين ذاته ٠

الله طيب ويحب أن يكون الإنسان طيبا ، وهو جميل ويحب أن يكون الإنسان جميلا ، وحالة العبادة تحقق ذروة الجمالية في الإنسان لدى الله ، العبادة التي تكون مبنية على الحب واليقين ، فخلوف فم الصائم هي عند الله أطيب من رائحة المسك لأنه يكون قد جاع عبادة لله .
ليس الجوع لعدم وجود طعام ، بل هو الجوع والطعام بين يديه ، رغم أنهما يتساويان في حالة الجوع القصوى ، والجوع ذاته هو الذي يترك

ذاك الخلوف ، لكنه تمييز إلهي بين الجوعين ، الجوع الطوعي ، والجوع المفروض ٠

يتمتع الجائع الصائم بجوعه وينشرح صدره لهذا الجوع لأنه في حالة اختبار طاقة الصبر لديه ، وفي حالة امتحان الله له ، ولذلك يتوق دوما إلى شهر الصوم ويصر ألا يفطر يوما فيه ٠

وفي ذروة جوعه تراه يمد يديه إلى القرآن فيقرأ ويخشع حبا وطاعة لله حتى أن حجم الحب الكبير يدفع الدموع لتهطل من عينيه ، وهي الدموع الرقيقة التي تفجرها حالة الحب الإلهي الكبرى ، إنه يبكي بين يدي ربه ويسترجع كل ذاك التاريخ من حميمية العلاقة ، وكل فرص المغفرة التي وهبها له ربه ، يتذكر صبر الله عليه وستر الله له وعناية الله به ٠

إنه لايبكي هنا ضيقا أو كربا ، بل يبكي طربا وكل دمعة تنقي أعماقه وتطهر كل ذرة فيه ، إنها تغسل مساحة الروح مرة واحد كل سنة في ذاك الشهر الأكثر نورانية فيشعر هذا الكائن بانه يحلق على جناحي فراشة من فراشات الجنة في حديقة الله ،٠ إنه ينشرح بذرف دموع العبادة تلك ، فهي ذاتها تكون عبادة فكل دمعة تحمل صلاة وصياما وحجا وزكاة ترتفع إلى الله ٠

ليس من شك يابشري أننا نعاني من موت الحب في هذا المكان الشديد الضيق الذي نعيش فيه ، فالعامل يذهب إلى معمله وما يهمه بالدرجة الأولى هو الكسب ، والمعلم لايؤدي واجبه في تلاميذه حتى يشجعهم على تلقي الدروس الخصوصية ويروج لسمعته وتاريخه وكفاءته في هذا الميدان ، حتى الأب بات لاينظر لابنته من يرتضي دينه وخلقه ، بات ينظر إلى من يرتضي جيبه ٠

دوما كنت أرى أن السكينة لاتقترن بوجود المال ، تتحقق في تجارب عديدة عشتها ورأيتها وسمعتها بحالة النقاء الروحي التي يتمتع بها المرء ٠ مصالح الإنسان لاتتحقق لو لم تنطلق من أرضية خاصبة بمطر المحبة ومن فضاء مشرق بشمس المحبة ٠ أما بالنسبة لعلاقتي بك فهي أعلى درجة من المحبة ، بلغت في أعماقي ذروة المودة ، والمودة أعلى

درجات الحب فيمكن لي أن أحب كائنا ولكنني لاأوده ولا أطيق الجلوس معه يومين ، ولكن لايمكن لي أن أود كائنا لاأحبه ٠
مودتي لك تجعلك السيد الوحيد في عالمي ولا أتخيل أنه يوجد من يمكن له أن يملأ فراغك في هذا العالم كله ذاتها المحبة ياسيدي دفعتني للمشي على قدمَي لأصلك ، ولكن بعد الزواج انفجر هذا الشعور الكبير الذي خلّف المحبة وراءه ، فغدوت أضمك بمودتي ، وغدوت تضمني بمودتك ٠
البيوت الزوجية عامرة بالمودة ، ومتى ما انعدمت المودة انهدمت على ساكنيها وذرتها الرياح ٠ شجرة المودة تثمر ثمرة التفاهم الذي يصمد في وجه الفقر والمرض والغياب وفارق السن والتفاوت الاجتماعي ، فتولد حالة الانسجام الكبرى بين كائنين لايلتقتان معها لكل طوارئ العالم حتى يغدوان كجبل عظيم لاتهزه العواصف ٠ ولا أخفي أمنيتي بأن تجعلني أما، أريد أن أقوم بأعمال أكثر نفعا لأقترب بها إلى الله ،أريد أن تكون الأمومة قربا أكثر من الله فإن كل رضعة ترضعها الأم لرضيعها تقربها إلى ربها لأنها عبادة جديدة ودرجة خاصة للأم تقربها إلى الله ، فكم من رضعات ستقربني من الله ٠ وكل كلمة طيبة أغرسها في سلوك ابني ستكون كلمة طيبة لي عند الله .
الأمومة ستقدم لي خبرة حياتية جديدة لم أكن أعرفها من قبل ، كل ماسمعت وما قرأت وما شاهدت لن تقدم لي حقيقة يوم واحد أعيش فيه حميمية الأمومة .
سيكون بامكاننا أن نقدم لله وللحياة كائنا منك ومني في روح واحدة وجسد واحد ، عندها سأنفتح على الحياة أكثر وأنفتح عليك أكثر٠
أنت يابشري العمر الذي أعيشه بكل لحظاته ٠ غدا عندما نذهب إلى الله سنترك هنا شخصا تقيا ٠

تنفجر لفتة الله إلى الإنسان بقوة في تفجيره ينبوع المحبة في تربة روح الإنسان ، وكان سيموت فظاً غليظ القلب في أرض جرداء لاتآلف ولا توادد ولا توانس ٠ هاهو الإنسان يحن للإنسان ، هاهو الشوق يزجيه

لرؤية الإنسان ، هاهي المحبة تجره جراً ٠ أذقت يابشري لذة أن تجرك المحبة جرا إلى شخص تحب ٠٠ أظن أن كل ملوك العالم لو علموها، لحسدوك على لحظات اللذة الروحية التي تكون في محرابها، ولماترددوا من محاولة انتزاعها منك لأنفسهم٠

الأمر الآخر الذي أظنه هنا هو اقتران الجماع بالعاطفة التي تكون كالمسك للجماع ، تضفي عليه رائحة زكية ، بينما الجماع الذي يخلو من العاطفة حتى لو كان بين زوجين فإنه لايتفوّح برائحة المسك ٠ ثم بعد ذلك يأخذ الجماع كماله بالتوجه الديني الذي يأتي دوما فينقذه من غوغائيته وبهائميته ويوظفه توظيفا أخلاقيا في سبيل الحفاظ على النوع ٠

هنا يابشري يميز الدين الإنسان عن الحيوان فيأتي الإنسان سريره لهدف الحفاظ على النوع ، في حين أن الحيوان يأتي ذلك بدافع غريزي بحت وليس بدافع الحفاظ على نوعه ٠ من هذا التمييز يأخذ الجنس الغوغائي بالنسبة للحيوان شرعيته ومبرره ، بينما يأخذ بالنسبة للإنسان صفة القباحة والبهائمية ، إذ أنه لاشيء يبرر الجنس الغوغائي خارج مؤسسة الزواج بالنسبة للإنسان مادام يلتزم بسلوكه الإنساني ، فهو لايجامع في سبيل ترسيخ مزايا العاطفة و الألفة والمودة الزوجية ، ولافي سبيل الحفاظ على نسله ، بل تدفعه غريزته ، غريزته البهائمية فحسب ، وعندذاك لم يعد يهمه إن جامع إنسانا أو جامع حيوانا ، أو مارس الشذوذ ، أو الاغتصاب ، أو حتى استمنى مادام قد رضي لنفسه هذا السلوك الجنسي البهائمي ٠

كل إنسان يمكنه أن يلفظ بسهولة كلمة الحب ، لكن هل يرفع الحب على جناحيه أي كائن ليحلق به في فضاء مملكته العذب ٠

الإنسان ذاته هو الذي يختلف في تلقي الحب ، عندما تكون طبيعيا يمكن لك أن تمنح عاطفة طبيعية ، وكذلك تتلقى عاطفة طبيعية ، عندما تفقد طبيعيتك تعجز أن تمارس فعلا طبيعيا ، قبل كل شيء أنت تحتاج إلى

استرداد طبيعيتك ، فأنت تضحك ضحكا غير طبيعي ، وتذرف دموعا غير طبيعية ، وإذا تناولت طعاما ما استمتعت به ،حتى عندما تود شراء حاجة فإنك تقدم عليها بتوجيه غير طبيعي ، فأنت تريد أن تشتري فحسب وكأنك ترفع عن كاهلك عبئاثقيلا ، ويكون هذا حتى في اختيار الزوجة ، وأوقات الجماع ٠ كل هذه الممارسات لاتخرج عن كونها ردات فعل تبين حدة الأزمة النفسية التي يمر به هذا الشخص نتيجة فقده لطبيعيته وقد يكون لادخل له بها وتكون قد تجردت منه في منبت سيء ٠ عند هذه النقاط تبدأ النزعات السلبية في الظهور وتأخذ مساحاتها في سلوكيات هذا الكائن البشري الذي لم يعد يملك إلا أن ينقاد انقيادا بالعصا الشريرة التي تسكنه ٠

يبلغ مرحلة لايستمتع فيها بشيء ، ولا يتخذ قرارا واحدا ، إنه فقط ينصاع لأوامر مرضه الروحي ، الآن ستحدد طبيعة تعاملك مع ردات الفعل هذه من الشخص الذي يقف قبالتك ، ستكون عالما بأنها ليست أفعالا طبيعية صادرة عن شخص سوي مسؤول مسؤولية كامله عن أفعاله ، ستنظر إليها نظرات سطحية كما أنها صدرت سطحية ، ولسوف تدرك بأنك لن تقف موقفا سلبيا أو إيجابيا من ذاك الفعل ، لن يكون بوسع الفعل أن يحرك ساكنا فيك ، فقط ستصغي وتنظر وتدرك حجم اضطرابه الروحي ، وسيكون بامكانك في لحظات الإنصات تلك أن تتعلم شيئا جديدا في يوم جديد من عمرك٠

في ذات اللحظة لن يغيب عن بالك بأن هذا الشخص حالة استثنائية ، وقد تصدرمن الشخص الذي يقف بجواره أفعال مماثلة ، ولكنها تصدر عن شخص طبيعي يكون في دراية بأبعاد ما يفعل ٠ أمام هذين النموذجين ستكون مهمتك غاية في الدقة والانتباه حتى تبلغ درجة التمييز بين الفعلين وبين الشخصين ، وليس هناك أسوأ من كائن يمضي نحو استغلال مواقف شخص مريض فيبتزه ، هذا يذكرني بصديقتي الأكثر من عزيزة / عزيزة / ، رغم كل مشاعر التعاطف ،لا أدع فرصة إلا

وأدينها ، أدينها في الهزيمة وتسليم النفس للامبالاة ، فهل هناك وجه آخر للسوء أكثر عمقا كذاك الذي يبتز عزيزة في علاقة غير سوية معها ، لاأجد نفسي غير أن أمقت ذاك الرجل بكل ما لدي من مشاعر الاشمئزاز ٠

دوما كنت أنادي بالتمرد في سبيل ألا يفقد الإنسان طبيعيته وطبيعية الأشياء فيه ، ذاك التمرد الإيجابي الذي ينزل لمباركته حتى المطرويصفق له الملائكة ٠ فقط يابشري الإنسان الطبيعي يمكن له أن ينعم بدفء وهدوء الأشياء ، ودفء وهدوء طبيعة الحياة ، ودفء وهدوء علاقته مع نفسه ومع الله ومع الآخرين ٠تكمن روح المخاطرة يابشري عندما نعقد آمالنا الكبرى على أناس غير أسوياء ونضع مفاتيح حياتنا بأيديهم ، الآمال الكبرى تعقد على ذوي نفوس نبيلة ، أولئك الذين يرتقون بأنفسهم وبكل من له صلة قريبة أوبعيدة بهم ، الذين يلبثون بسيرة حسنة في حياتهم وفي موتهم ٠ يعطي الله لكل شيء حقه ، فأنت تربي ابنك وتخلص في تربيته ، لكنه الصغير الذي يعجز أن يقدم لك شيئا ، يفجر في أعماقك خزائن المشاعرالأبوية فيحسسك بظفر هائل أثمن من كل كنوز العالم ٠لقد أعطاه الله شيئا يرد به على إخلاصك له ٠

ساد سكون ليس بالطويل فقطعه بشري بقوله : لاأخفي عنك شعوري الأعمق بالغربة ، إنني حزين على كل مشهد من مشاهد الانحطاط التي تحيط بنا ٠ أصارحك أني منذ عودتي أبحث عن صديق يحمل في داخله كنز النقاء والشهامة ، لكنني أفشل ، كأن الأصدقاء ماتوا ٠

المنبت الملوث يخلع زهور الجمال من جذورها ، ألمي يتضاعف ياذكرى وأنا أرى اقتلاع زهور الجمال والنقاء من جذورها ولا أستطيع إلا أن أنظر إلى النزيف وأكتفي بالألم ٠ الواقع برمته ينهار على رؤوسنا ياذكرى والناس هم أبطال هذا الانهيار ، ليس بوسعي بأي حال من الأحوال أن أكون سعيدا في هذه المأساة البشرية الكبرى التي أعيشها لحظة بلحظة ٠

كل شيء بات يفوح برائحة العفونة ، الأجساد التي تتحرك أمامي حتى في قصور العدل تحولت إلى مقابر لجثة العدل الذي ينادون به ٠ كل

جسد يقبر في تربته جثة قيمه وأخلاقه وضميره ٠ وما أقسى تلك العبارة المؤلمة على سمعي عندما قلت لشخص لاأعرفه في موقف : هذا حرام يارجل ٠ فأجاب : وهل شيء فيه حلال حتى تقول هذا حرام ٠
هذه ألفاظه الحرفية التي لاأنساها ٠ لقد قال الصواب ، ولكني أبادلك ذات الموقف ، فهل كان بوسعي أن أبارك له موقفه اللا أخلاقي الذي رأيته فيه ٠ كل واحد ينظر إلى امكانية افتراس الآخر ، وما هو الموضع الذي يمكن أن يُفترس منه ٠ خائف ياذكرى على نجم ، غرست فيه صوت الإرتقاء والسمو حتى بلغت عظامه .
كنت أتفرغ الليالي الطويلة وأنا أشرب وأنصحه ، كان الشرب يحضني على الكلام ، وكان يتأثر حتى تغرق عيناه بالدموع ٠كانت الكلمات تخرج من عمق الألم والمعاناة ومسافات الهروب من واقع أليم ، وكا ن ينصت كما لو أنه ينصت لآخر مرة لأبيه الذي لن يراه ثانية ٠ أعطيته كل خبرتي ، لكنني خائف من رصاص طائش يصيب عابر سبيل وسط فوضى لامتناهية ٠
عاش محروما من عاطفة الأمومة ، ويبدو أن كل مشاعر الأبوة لاتغني عن ذرة أمومة ٠ عندها عرفت أن رجولية العاطفة الأبوية لاتلتقي أبدا ولا تغني أبدا عن أنثوية العاطفة الأمومية ٠ لذلك هو ملتهب العواطف ، إنه ملكتظ برحابة الشفافية ، دوما كان يبحث عن شيء يحبه ويوليه عنايته الخاصة ، ويبدو لي أنه يفجر فيه دفق عواطفه المخزونة التي لم تخرج إلى أمه ٠ كان أحيانا يغمرني بالقبلات وكلمات غاية في العذوبة والرقة ، وأراه يهتم بطائر ويربيه ، أو يتعلق بنوع من السمك ، أو يعقد علاقة حميمة مع أبناء أحد التجار ٠ أريده أن يفرغ تلك الشحنة المخزونة من العواطف بصورة طبيعية ، بعد أن أصغيت لحديثك هذا ، أريد أن أبحث له عن فتاة صغيرة يفجر عواطفه في حبها ، أريده أن يحب حبا طبيعيا ،
أن يعشق عشقا طبيعيا ، أن يغازل غزلا طبيعيا ، نجم ياذكرى فتى شفاف شفيق ٠قالت : إن الشمس مشرقة ، والزهور يانعة ، والأمطار

تهطل ، والإنسان يحصل على ماهو أكثر من حقه ، يتمتع بكل خيرات الأرض والسماء والحرية الشخصية في بقاع أكثر من كثيرة ٠
تربتنا بخير لأنها تعبق برائحة الأصالة لكن الناس أفسدوا كل شيء حتى بات المطر يأبى النزول على تربة أفسدها ساكنوها ، وهؤلاء أنفسهم لايمتلكون أي شكل من ثقافة الاقتصاد ، إنها مجرد هواية الإفساد ورغبة لجمع أموال يفشلون في جمعها لأن درهم الحرام اعتاد أن يسم بطن وبيت صاحبه ، ليتساوى مع درهم الحلال الذي يقر نفس وبيت صاحبه ٠ تعرف يابشري أن كل شخص ميال بفطرته لمن يكون على شاكلته ولو بنسبة ما ٠
كنا ثلاث صديقات : عزيزتي ، وخورشيدتي ، وأنا ٠ كانت عزيزة نزيهة وخجولة تحمل القيم ، لكن ليس كل إنسان يمكن له أن يصمد أمام نزاهته في كل مراحل الحياة ، هذه النزاهة دفعتها لتتوسل إلي كي لاأوقع نفسي فيما وقعت فيه ٠ ماتزال بذرة النزاهة تؤلمها ولاأظن بأنها ستنجح في اقتلاع تلك البذرة من جذورها ٠ قالت عندما أنجبت ابنها : ياذكرى هذا الطفل جعلني أقف موقفين من أمي ، الأول لأنها حرمتني من الحب الذي أحبه لإبني ، والثاني لأنها عاشت محرومة من عاطفة الأمومة السامية ٠ تلك المرأة الشديدة القسوة التي لم تعش لحظة أمومة واحدة ، تركتني وتزوجت ، ولم ترني وجهها منذ أن طلقها أبي ٠
الآن أشفق عليهالأنها لم تعش عاطفة الأمومة السامية ، وأدينها لأنها حرمتني من حقي ، وكان يمكن لها أن تستخدم الدين والقانون لتمنحني أمومتها ولو ساعة واحدة في الأسبوع ، تمنحني ما أحتاج إليه وتأخذ مني ما كان بحاجة إلى الخروج ٠ كم كنت أحلم أن تدخل أمي فجأة في ليلة انقطعت فيها الكهرباء فأتقافز إليها وأتعلق بكتفيها كعصفورة ٠
وكانت خورشيدة دوما تفكر بحكمة ونضج فنلقبها / حكيمة / ٠ كانت تبدو في الثمانين وهي تتحدث بحكمة وعمق وانفتاح ٠ مرة اتفقنا أن نراقب فئة من المترددين إلى الجامع لمدة ستة شهور استخدمنا خلالها ما استعنا من وسائل ، فقمنا بتسجيل كل اسم مع العمل والحالة الاجتماعية في دفتر خاص ، نضيف إليه ما نحصل من معلومات حتى بلغنا تسعمائة

وخمسين صفحة تنبض بواقع هذه الفئة التي تتردد إلى الجامع بشكل متواصل ٠ حتى وقع مرة والد عزيزة على هذه الصفحات وأخفاها ، فتوقفنا عن مهمتنا ٠
أستطيع أن أذكر بعض أبطال تلك الصفحات المخفية ٠/ عبد القادر / ، كان متقاعدا من رتبة مساعد في الشرطة ، له أربع بنات متزوجات ٠ أذكر أننا تتبعنا موضوعا بذلنا فيه كثيرا من الإرهاق ، فقد أعطى مبلغا لأحد الأشخاص ليتاجر به فيتقاسمان الأرباح ٠ بعد سنتين من العمل واقتسام نتائج التجارة المتواصلة خسر هذا التاجر ماكان يتاجر به . فأتي شريكه يخبره بالحقيقة ، لكنه تبرأ منه وطلب إعادة أمواله ، فأقام عليه ادعاء بالاحتيال لأنه كان قد أعطاه المبلغ بموجب سند أمانة ، وبالفعل فقد توقف الرجل ، فتدخل حينها ملا خليلنا هذا بينهما ٠ قال له الرجل السجين : ياملا ليسقط حقه عني .. سأعمل وأعطيه ماله ، لن يجد من يعطيه نيابة عني فيما لو بقيت في السجن ٠
قال له الملا بأن عبد القادر على حق وسند الأمانة يثبت حقه ، أما الاتفاق الشفوي فلا أحد يعترف به ٠ انتهى الملا إلى فتوى بينهما ، تقول بأن هذا الرجل يملك بيتا يسكنه مع أولاده ، يمكن له أن يبيع هذا البيت لعبد القادر ٠ أضاف الملا موجها صوته لعبد القادر : لكن سنشترط في عقد البيع أنه لايحق لك أخذ البيت قبل أن يشتري الرجل بيتا لأولاده ٠
قال عبد القادر مستاء : وما الفائدة يا مـــلا ؟ !
قال : في هذه الفترة سيكون الرجل مستأجرا في بيتك هذا وستترتب عليه أجرة شهرية تتفقان عليها ، يسددها لك كل شهر إلى أن يشتري بيتا أو يعيد لك أموالك التي أصبحت قيمة مقبوضة للبيت ٠ فض الخلاف بينهما على هذا الاتفاق الذي اجتهد به الملا خليل ، وأظن أن ذاك المسكين مازال حتى الآن يدفع أجرة شهرية لعبد القادر الذي كان قد أخذ من الأرباح ضعف رأسماله ، ثم أخذ مرة أخرى من الأجرة ضعف رأسماله ٠ فيقول له الملا مبتسما : لتعرف أن في الدين سعة ٠
لكن الرجل قالها للملا : لايلزمني أن تصلي بي إماما بعد اليوم ياخليل بيك ٠

وقعنا على شخص آخر إسمه عبد الخالق عيسو ، لم يكن يصلي يوما واحد حتى بلغ الخامسة والأربعين ، وكان مدمنا للخمر ودوما تراه ثملا في طرقات .
ولانعرف كيف غدا هذا الرجل من أكثر المترددين إلى الجامع ، حتى سمعنا بأنه يصرّح في بعض المجالس بأ ن اختيار الله وقع عليه ليكون نائبا عن النبي ، وأن لديه احساس بذلك ، فقد جاءه الإلهام في الخامسة والأربعين و بناء على هذا الحدس فإن نساءه يغدون أمهات للمؤمنين ٠
علمنا بأنه كان يعمل أجيرا في إحدى المتاجر في قلب المدينة لكنه في سن الثلاثين اضطر لترك البلاد كلها بسبب عدم تمكنه من الزواج لأنه لم يكن يملك مايتزوج به .
أمضى في الخليج خمسة عشر عاما وعاد إلى موطنه ثريا . اجتمع حوله الناس يمدحون فيه ، ثم رأوه يعود إلى كاره السابق ، فاشترى متجرا ضخما وغدا يبيع السمانة بالجملة .
عندما هلّ على الناس كان متزوجا مرتين في غربته من بنات بعض أهل هذه المدينة الذين يعملون هناك ، ومن باب التجديد تزوج امرأة ثالثة ، وبعد سنة تزوج رابعة .
في السنة الثانية شاع خبر بأنه يريد الزواج خامسة ، لكنه ينظر إلى أن يمنحه الله استثناء .
عندها اندهش الناس ، ثم لاحظوا ولادة علاقة حميمية بينه وبين ملاخليل الذي كان يمضي الليالي الطويلة في بيته ولايخرجان إلا في وقت متأخر .
بعد حديث طويل قال له الملا : يا حاج ، ألهمني الله بمخرج .
قال : أي مخرج ياخليل ؟
قال : ياحاج يمكنك أن تطلق الكبرى ، فتضع هذه بدلا عنها .
قال : كيف أطلق زوجتي لتكون زوجة لغيري ياخليل ؟
قال : ومن أجبرك لتطلقها ، إنها أم عيالك ، ستعاهدها على الأخوّ ة فتُحرم عليك ، وبذات الوقت يحل على الأخت أن تقيم في منزل أخيها ٠

ولكن عليك ياسيدي أن تصلي وتتردد إلى الجامع ، وتترك هذه الخمرة ، أو تستر نفسك فيها ، بصراحة ياحاج يُقال بأنك عندما تخرج صباحا من البيت فإن رائحتها تفوح منك ،ألا تريد أن تقدم شيئا لهذا الدين الذي منحك هذه الرخصة .
ضحك عيسو بعمق كما لم يضحك من قبل قائلا وهو يربت على كتفي الملا : واللـه أنت ملعون يا مــلا خليـل ٠
في الأسبوع القادم شاع الأمر بين الناس فكان عيسو متزوجا من الخامسة ويحتفظ بهن جميعا في بيته ، فصار يتردد في كل صلاة إلى الجامع ، ولما رأى تواضع البناء والآثاث ، أقدم على ترميم هذا الجامع وتأ ثيثه من ماله الخاص ، ثم اشترى بيتين مجاورين جعلهما توسعة لحوش هذا الجامع .
ويبدو أن الفكرة راقت له فصار في مطلع كل سنة هجرية يعاهد الكبرى على الأخوة ويتزوج بواحدة جديدة وهو يقول لها : ستصبحين أما للمؤمنين ٠ وأحيانا في حالات كبيسة يكون في السنة قد تزوج مرتين .
يومها ياسيدي حصلنا على أسماء ستة عشر امرأة مطلقة يعشن في بيت يأتيهن طعامهن وكسوتهن ، ولايسمح لهن بالخروج أو الاختلاط بالنساء ، لكن استطعنا رغم كل ذاك الحظر أن نقتحم عليهن عزلتهن الأبدية ، وكان ذلك عندما ذهبت خورشيدة إلى عيسو في متجره وألمحت بأنها تريد أن تتعرف به وترى بيته وهي تريد أن يجعلها بنعمته أما للمؤمنين ٠
فذهبنا ثلاثتنا على أننا قريبات ونشاركها الرغبة بالتعرف على هذا الرجل الاستثنائي .
كان البيت شبيها بالعصفورية ، وكنّ يعشن فيه بحالة فوضى عجيبة ، وقعنا هناك على امرأة مهووسة ، سألنا عنها فقيل بأنها الضحية الأخيرة منذ ستة شهور ، قالت له : يا حاج ، مادمت حرمتني من النكاح منك ، دع غيرك يأتيني ٠
قال لها مغتاظا : كيف يأتي الأخ أختــه ؟؟
قالت : الأخ الذي لايأتي أخته ، يزوجها لرجل آخـر حتى يأتيها ٠

قال : أنا رجل ملتزم ، وزوجتي هي أم للناس لايجوز لها أن تنحرف عن هذه الحقيقة ٠
قالت : لو حق أنك تدعي نيابة النبوة فان الله يأمرك أن تمنحني حقي في طلب الدنيا وزينتها ، متعني وسرحني سراحا جميلا ٠
في الأسبوع القادم اختفت هذه المراة من بيننا كدنا نجن عليها ، وظننا أنها سلسلة اختفاءات ستشملنا واحدة تلو الأخرى ، لكنها عادت بعد سبعة أيام كما هي الآن في رسالة بأن مصير أي واحدة يشذ بها التفكير سيكون مثل مصير أختها .
وعندما قلنا لهن بأننا ننتظر دورنا لنصبح زوجات لعبد الخالق عيسو ، قلن لنا بحذر أن عمر زواج كل واحدة لن يكون أكثر من سبعة أشهر لتتقاعد وتنضم إلى أخواتها.
أذكر بأنني رأيت امرأة كانت ماتزال حاملا في الشهر الثامن قبل خروجنا من تلك الحظيرة التي عددنا فيها ست عشر رأسا نسائيا ٠
حتى الآن يابشري لايجد هذا الرجل من يردعه عن انتهاكاته ، حتى أهل النسوة لايتدخلوا في أمرهن ، وقد حظر عليهن الزيارات إلا أيام الأعياد فيقمن بزيارة أهلهن برفقة بعض أولاد عيسو ، ويرجعن في ذات اليوم حتى لايجدن من يفسدن عقولهن من نساء ماردات كما يقول لهن عيسو يوم الزيارة ٠
قالت لي خورشيدة ونحن خارجات من حظيرة النساء هذه : يوجدعزّاب يعيشون في كبت لأنهم لايجدون فرصة زواج واحدة ، لو نتمكن من اطلاق سراحهن لكنا قدمنا الحلول لستة عشر شابا .
عندما زرته في المتجر كان يرتدي بدلة جديدة مع ربطة عنق ، يحمل القرآن بيديه ويقرأ ٠ وكان بين لحظة وأخرى يضع القرآن ليرد على شخص داخل ، أو يرد على الهاتف ، لم يقرأ عشر دقائق متواصلة ٠ ولكن هل كان يقرأ أم كان يُري الناس بأنه يقرأ ، وتسنى لي أن أرى صبيات فتيات يقفن في باب المتجر ويشرن إليه بأناملهن ٠

فذكرت لخورشيدة حادثة كانت قد وقعت مع عمر بن الخطاب ، فقد جاءه رجل يثني على رجل فقال له عمر : أهو جارك ؟
قال له : لا ٠
ثم سأله إن كان قد سافر معه ؟
فقال : لا ٠
وسأله إن كان قد تعامل معه في أمور مالية ؟
فقال : لا ٠
ولكنه كثير قراءة القرآن في الجامع ٠ فقال عمر للرجل بأنه لايعرفة المعرفة التي تؤهله لتقييمه ٠
النساء في واقع كهذا يكن في وضع يُرثى له يابشري ، إنهن يعشن في قلب المعاناة وينكوين بنيرانه الملتهبة ٠ وأظن أن خورشيدة كانت ألمحت على مسمعي يومذاك بشيء من سحاق .
ليس بوسع المرأة أن تفعل شيئا لو حُجبت عنها حريتها ، ماذا بوسع / أخوات / عيسو المتقاعدات أن يقدمن للمجتمع ، ولكنني أمقت استسلامهن المميت هذا ، ست عشر امرأة مطلقة يعشن في حظيرة دون أن ينبتن ببنت شفة ، كنت أقول لخورشيدة بأنهن يستطعن أن يقمن بمظاهرة لو شئن .
عندما يمنحني إسلامي حقا ، فإنه بذات الوقت يمنحني حرية أن أدافع في سبيل بلوغ ذاك الحق ، إنه يمنحني ذاك الحق لقاء كوني أسلمت وأنا داخلة كتاب الإسلام .
هذا الإسلام الذي يطلب مني التزامات ، يمنحني ميزات لقاء أدائي لتلك الالتزامات ٠ عندما أقبل أن يكون التعامل معي كبقرة تُسمن لتباع ، وأقبل أن يجردني الآخرون من حقوقي التي أمرها الله لي ، وأقبل أن أتجرد من استقلاليتي الإنسانية التي جعلها الله آية في نفسي ، لقاء مسؤوليتي الكاملة عن هذه الاستقلالية أمام الله لوحدي وبعيدا عن أي كائن مهما كانت درجة قرابته مني ، سيكون من البساطة علي أن أتجرد عن التزاماتي التي تحققت بموجبها تلك الحقوق تجاه الله وتجاه المجتمع الذي أنتمي إليه

٠ هذه فطرة بشرية راسخة في أعماق الناس كافة ليس بوسعنا أن نبحث عن الأعذار والمبررات لنفيها ٠

هنا يابشري حتى صلة النسل يقطعها الله فلا يكون الأب أبا ، ولا يكون الابن ابنا ٠ كنا نقرأ القرآن معا منذ أيام ووقفنا أمام / نوح / الذي قال له الله عن ابنه بأنه ليس منه ٠ لقد قطع الله صلة النسل بينهما لأن الابن انحرف عن طريق الله ٠ فكم من ابنة تعيش مع أب قطع الله صلة النسل بينهما بسبب انحراف الأب عن أمر الله ٠ يمنحني الله حقي في امتلاك القناطير المقنطرة من الذهب والفضة والخيل المسومة والأنعام والحرث ، ولا أعرف لماذا كنت أضحك أمام امرأة كان زوجها يذهب إلى المحاسب ليقبض راتبها في نهاية كل شهر وهي صامتة ، تطلب منه قيمة حذاء فيتردد ٠هذه المرأة كنت أراها في مديرية التربية تجلس مع إحدى جاراتي اللواتي كنت أزورهن ، لم أتحدث معها ، فقط كنت أصغي إليها وهي تشكو زوجها الذي يحرمها من شراء لبس ترغب فيه من راتبها ، ولم تكن قدر ورثت ذاك المال ، بل تمضي ساعات طويلة من الارهاق وهي واقفة تعلم الأطفال لتحصل على راتب آخر الشهر ، فيستولي الزوج على جسدها ليلا وعلى راتبها نهارا ٠ ثم عادت ذكرى تغرق في ضحك طويل وبشري ينظر إليها مبتسما ٠
عندها نهض بشري قائلا : سأعزمك على كأس من الشاي وقطعة كاتو ليس من مالي فقط ، بل من جهدي أيضا ٠ دخل المطبخ وعاد حاملا سفرة عليها ابريق شاي وقطع كاتو وهو يصر أن يقدم لها وهي مستمتعة في اتكائها ٠ فشكرته وهي تمد يدها إلى الشاي والكاتو ٠٠ قال بشري : تحدثي ياذكرى ، كم هو رائع هذا الحديث الذي يزيدني معرفة بك ٠فقالت ذكرى وهي تستوي في جلوسها : إنني شاهدة يابشري على كل هذا الفجور والفسق ، ومحرجة أشد الاحراج لأنني أعيش في قلب هذا الفجور والفسق ، وكل ما أخشاه أن يأتي قول ربي علي : / والذين تتوفاهم الملائكة ظالمي أنفسهم قالوا فيما كنتم قالوا كنا مستضعفين في الأرض قالوا ألم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها فأولئك مأواهم

جهنم وساءمصيرا /٠ ليس بوسعنا أن نفعل شيئا يابشري ، إنها محاولات فردية مجهدة تفشل عشر مرات لتنجح مرة واحدة ٠

سأتحدث لك عن سيف الدين الذي رأيته يقتل انسانا رأي العين ٠ لن يغيب عن مخيلتي ذاك المشهد المرعب ما حييت يابشري ٠ كنت إذذاك في زيارة أخته خاتون التي كانت في السادسة عشرة من عمرها٠ خاتون تلك الفتاة الفتية الذي لايغيب شكلها عن خيالي ، كانت سمراء البشرة ، نحيفة ، طويلة القامة ، لها شبه بالأميرة ديانا ٠ كانت قد ذهبت مع طلاب وطالبات شعبتها في دورة نظمتها ادارة المدرسة ، وهناك يبدو أن الخلوة والعلاقة مع طالب أدتا إلى جماع بينهما ،بعد عودتها إلى البيت علمت ذات يوم أن حبيبها مات بماس كهربائي في البيت ، لبث الأمر على ماهو عليه في خفاء حتى رأت البنت أنها لم تعد قادرة على إخفاء نتيجة ذاك الفعل ٠ خاتون يابشري قبل أن أنسى هي ابنة خالة خورشيدة ، عندما علمتُ بالواقعة التي تسربت إلي عن طريق صديقتي طلبت أن تعرفني بها علنا نستطيع أن نفعل شيئا ، أو أن نخفف عنها ببعض كلمات ٠ كانت تقول بأن شقيقها سيف يخطط لذبحها بالسكين ، وهي منذ أن علمت لاتستطيع أن تغمض عينيها٠ أمضت هذه الطفلة شهرين متواصلين من رعب ٠ في تلك الظهيرة الحزينة التي دونتها في مذكراتي ، وأقف ساعة من الصمت والدموع فيها كل سنة عندما تحل ذكراها ، وأكون مرتدية ذاك اليوم ثيابا سوداء وقد حرصت ألا أبتسم فيه وأنا أعيد ذاك المشهد المؤلم الذي شهدته بعيني ٠ كنت لوحدي في زيارتها في حجرة مغلقة ، وقد تحولتْ إلى كائن شبحي ، كان الموت يصرخ في وجهها وصوتها ودموعها ٠ كانت تقول بأنها لاتريد أن تموت ، وهاهي كلماتها التي انحفرت في روحي : هل سيمنحني سيف فرصة لألا أموت ، وأي موت ، أي خزي ، أليس بوسعه أن يسامحني ، لاأريد أن أذهب إلى الله بهذه الطريقة وأترك سيرة عار لن تنسى هنا ٠ كانت كلماتها الراجفة تخرج بالكاد من ريقها الجاف حتى اندفع الباب بقدم سيف ، وقع في الحجرة وبيده خنجر وأقفل الباب ، انتفضت خاتون بقوة تحتمي بي ،

وانقض سيف كالذئب نحوي ٠ عدت بها نحو الخلف حتى وصلنا زاوية وهو يصرخ : سأقتلك معها ٠ قلت : اقتلني أولا .

وقف قبالتنا والخنجر بيده اليمنى وأنا أشعر بأنني اتحدت بصاحبتي ولن يصيبها شيء قبلي ٠ قلت : ربك يقول عن خطيئتها بمئة جلدة بعد أن تضع حملها ، انتظر قليلا حتى تضع حملها الذي لم يرتكب ذنبا لتقتله هو الآخر ٠
قال : اذهبي أنت وربك من هنا ، أنا أعرف كيف أحكم عليها حتى تكون عبرة ٠٠ كلي واشربي بجلدات ربك تلك ٠مد الخنجر إلى خاصرتي حتى آلمني ، فلم أتحرك ، ثم أعاده ليخدشني به من رقبتي وما أزال أمسك بها بيدي من الخلف وقد تكومت خلفي ٠ لا أعرف ما الذي حدث حتى رأيت صفعة منه تنهال على وجهي كصاعقة ، وبذات السرعة جرني من كتفي ليرمي بي أرضا ويصب ضربة إلى عنق أخته التي خرج منها صراخ أجمع سكان الحي ، رأيت خاتون التي كانت منذ لحظات خلفي تنتفض وسط الغرفة مذبوحة كشاة والدم ينز منها وقد خرج سيف بعد أن نفذ بطولته ٠ عدت إلى البيت لأمضي شهرا في عزلة وقد اسود العالم كله أمام ناظري ٠ هذا الكائن جعل من نفسه مفتيا ليفتي بقتلها ، ثم رأى أن يجعل من نفسه قاضيا ليأمر بذبحها ، ثم رأى أن يجعل من نفسه منفذا لينفذ ما تلقاه من أمر ٠ ثم تو جه مسلما نفسه للمخفر كبطل بعد ستة شهور كان هذا البطل خارجا من السجن لأن أحدا لم يدع عليه ،فقد قتل شاة لاصاحب لها ٠ أذكر أنه بعد حادثة خاتون بستة أشهر أن شابا ربما من ذات المدرسة قد أحب زميلته فكتب لها رسالة يبثها حبه العميق ، فتناولت الرسالة ووضعتها في حقيبتها المدرسية ، لكن الصدفة السيئة وقعت عندما وقع أخوها في البيت على الرسالة ، وتحرى عن الشاب إلى أن تعرف عليه جيدا ٠ وذات يوم ترصده أمام باب المدرسة صباحا وانهال عليه بالضرب المبرح حتى حطم يده التي كتب بها كلمات الحب تلك ٠ هذه هي المرأة المسكينة التي لاتملك إلا أن تكون ضحية ٠ يأتون بنظريات تجعلهم أوصياء على على

النساء حتى لو بلغن الثمانين ، لا رأي لها ، لامال ، لا شخصية ، لامنزلة اجتماعية ٠ ثمة حبل أبدي معلق في رقبتها مربوط بيد الرجل ، أينما قادها انقادت ، وأينما أناخها استناخت ٠ في ليلة الزواج يحل الأب هذا الحبل من يده ليربطه بيد الزوج الذي ينظر إلى أن الله قد أهداه هذه الكائنة ليقضي وطره منها فقط وتبقى مستنيخة إلى أن تموت ، وإن رأت قولا ومنزلة ، فهاهو حجر الطلاق بيده الأخرى يرجمها به ويقذف حبلها في وجهها ، فتعود إلى أبيها مرجومة مفكوكة الحبل ٠ أرى النبي يستشير زوجاته في قضايا الدين ويأخذ برأيهن ، في صلح الحديبية يعما باستشارة أم سلمة فيحلق ويخرج إلى الأصحاب ليقتدوا به ، تروي له عائشة حكايا منتصف الليل فيغفو على حكاياها كأنه طفل صغير ، تواصل حكاياها ويواصل الاصغاء ، في حكاية أم زرع التي أحبها أبو زرع كثيرا ، ولكنه انتهى إلى طلاقها ، يعلق النبي على الحكاية لزوجته : كنت لك كأبي زرع لأم زرع غير أني لاأطلقك ٠ويقول : ويقول في الناس : لايكرم المرأة إلا كريم ، ولا يهينه إلا لئيم . فيلعب مع زوجاته ويمازحهن ، ويسليهن ، ولا يجد حرجا أن يستبق مع عائشة فتغلبه ، ويعاود السباق فيغلبها ، ثم يعلق قائلا : هذه بتلك ٠ ولايتردد وعائشة تطلب أن تجلس على كتفيه لتنظر في احتفال مجاورللبيت ، فيحملها لتجلس على كتفيه وتنظر في الحفل ٠يقول فيها : فضل عائشة على النساء كفضل الثريد على سائر الطعام ٠ ثم يوصي عامة المسلمين أن يأخذوا من بعده عن عائشة فيقول فيهم : / خذوا نصف دينكم عن تلك الحميراء / .

يعلم أن امرأة قد زوجوها برجل وهي مكرهة ، فلا يتردد أن يأمر في فصلهما لأن ربها الذي خلقها للعبادة لايرغم عليها هذه العبادة ، فكيف به يبارك فرض شراكة حياة مع رجل مكرهة ٠ ويقول في امرأة أخرى أن لها حرية أن تقبل الزواج من ابن عم لها أو ترفضه عندما قيل له أن أباها يرغم عليها الزواج من ابن أخيه .وتأتي زوجة ثابت بن قيس لتقول بأنها لاترغب في زوجها رغم مدحها لأخلاقه وإيمانه .

فيسألها عن المهر ، تقول : حديقة ٠ يقول : أتردين إليه حديقته ؟

فتجيب الزوجة بالموافقة ، فيأمر ثابتا أن يطلقها ويسترجع حديقته .
يأتيه نبأ مسلمين يتقصدون العودة من أسفارهم ليلا ليقعوا بغتة على زوجاتهم في أوقات متأخرة وفي أنفسهم ظنون ٠ فيوجه إلى أن الرجل إذا رأى وصوله في وقت متأخر أن يقعد في مكان حتى تطلع الشمس فيعود إلى بيته في وضح النهار ، ويوجه إلى إعلام الزوجة بموعد رجوعه من السفر ٠ إنه ينهى إلى أن يتسرب إلى المرأة ريب فتنجرح في شعورها ، إنه شعور مؤلم يابشري أن ترى المرأة أن رجلها قد فقد الثقة بها . إنه يوجه الرجل ليحسن الظن بحليلته التي أو دعها الله لديه لتكون له أنيسة ، ويكون لها أنيسا ، تكون له لبسا يلبسها ، ويكون لها لبسا تلبسه .حتى إذا أتاها عليه أن يحترم دخوله عليها تقول عنه عائشة : لقد كان رسول قرآنا يمشي على الأرض . ذات مرة قال نافع لابن عباس وقد تجمل لزوجته : ما هذا يابن عم رسول الله ؟ ! قال ابن عباس وقد تعلم في مدرسة النبوة : وما في هذا يانافع ، إني أتزين لامرأتي كما تتزين لي . تنظر زوجة عبد الله بن عمر بن العاص أن زوجها قد تفرغ للعبادة حتى أنه نسي أن يلاطف زوجته ، فإن كان ذلك له وهو حر بحياته ، ولكن لها حقوق زوجية لديه ، فلم تجد حرجا من أن تطالب بحقوقها فذهبت تشكوه لأبيه قائلة : إنه نعم الرجل ، لكنه لم يطأ لنا فراشا .
فراح أبوه ينقل شكواها إلى النبي وما كان من النبي إلا أن دعاه ليأمره : صم ، وافطر ، وقم ، ونم ، وإن لأهلك عليك حقا .
وتوجه إلى المسلمين قائلا : خيركم ، خيركم لأهله ، وأنا خيركم لأهلي .
كان يقول للناس : النساء مصابيح البيوت .
وما الذي أقوله لك عن خديجة ، امرأة في الأربعين من عمرها تملك ثروة تنافس بها كبار أثرياء قومها ، تنتمي إلى بيت أصيل ، تتمتع بجمال الشكل والنفس . يُحكى لها عن شاب يبلغ من العمر نصف عمرها لقبه أهله بـ / الأمين / لِما يتمتع به من أمانة في القول والفعل ، فتبدأ بميل

إلى سيرة هذا الشاب المميز ، تسعى إلى فرص لتسمع عنه المزيد الذي يزيدها إعجابا ورغبة في أن تتاح ظروف لتكون قريبة منه .
محمد بن عبد الله ياخديجة ، ذاك الشاب المختلف ، لايميل مع أقرانه إلى أشكال الترف واللهو كشبان ومراهقي قريش .
شاب رزين كوردة انتشرت منها روائح فواحة وهي على وشك التفتح ، وكم ستكونين محظوظة ياخديجة لو ملأتْ بيتك ونفسك بأريجها وهي تأخذ مساحة تفتحها في هذا البيت وأمام ناظريك . : ياخديجة ذاك الفتى القرشي يتم من أبويه وهو رضيع ، يميل للشرود والعزلة خارج مكة وهو يرعى الغنم فيأتي بما يسد جوعه ويعين به أولاد عمه .
ينظر إليه أبناء عمومته ويدركو بأنه يفكر بأمر عظيم ، لذلك يدعوه في شأنه . يقول عمه ياخديجة أنه إذا جلس يشارك في طعامهم ، أكلوا منه جميعا حتى شبعوا وفضل من الطعام ، أما إذا غاب عن الطعام أكل الأبناء حتى ينتهي الطعام لينهضوا وما شبعوا ، لذلك ياخديجة يطلق عليه عمه لقب / فتى مبارك / .
منذ أيام اجتمع كباررجال قريش من أصحاب الثروة والرأي والنفوذ ، فأقروا حلفا أسموه / حلف الفضول / . قالوا سيكون حلفنا هذا لنصرة المظلومين فينا ومساعدة أهل الحاجة ، أجل ياخديجة كان/ محمدك / هذا أحد أركان حلفهم ذائع الصيت . تشتعلين شوقا لهذا الذي يزيدك لهفة للقاء قريب به ، لكن أي سبب هذا الذي سيجعله واقفا أمامك ويجعلك واقفة أمامه تتحدثان وجها لوجه . أتذكرين ياخديجة ، كان ذلك كحلم بعيد ، انه إبن آمنة ، تلك المرأة التي شاءت الظروف أن تشهدي ولادتها لهذا الفتى ، أتذكرين ذاك الرجل القرشي / عبد الله / الذي مات قبل أن يرى ابنه .
هاهي الأيام تدور ويحدث ما لم يكن بالحسبا ن ، ولكن ياخديجة هل يمكن أن يصبح هذا الفتى زوجا لك ، هل تسمح مكانتك الاقتران بفتى يرعى غنم أهل مكة لقاء قراريط .
كوني حذرة من الاندفاع نحو عدم التمييز بين عاطفة وأخرى ، هل أنت معجبة لأمانته ونزاهته وسيرته الطيبة ، هل تعطفين عليه كفتى يتيم وترغبين أن توليه رعايتك كأم رحيمة .

يمضي الوقت بهذه السيدة بالغة الثراء والمجد والشهرة متقلبة في حديث نفسها وحديث أناس يأتونها بأخباره حتى ترى أن تعرض الأمر على صديقات مقربات لها وتقول لهن مصارحة بأنها لم تعد ترى مهربا من حب محمد .

إن ما تشعر بها نحوه لهو الحب بعينه . فيقع القول عليهن كوقع الصاعقة ويرفضن هذا بشدة ، فكيف بسليلة الثروة والنعمة والجاه تقترن بشاب يرعى الأغنام له من العمر نصف عمرها ولاتجارب له في الحياة ، كيف بها تفضله على كبار الوجهاء والناضجين وأهل الثراء والحكمة والمكانة الاحتماعية الذين يتبارزون لكسب ودها .

وما جعلها تصغي لقول صديقاتها وألا تطلق العنان لعواطفها أنها مرت بتجربتَي زواج لم تسعد فيهما ، فرأت أن تتمهل في أمرها .

قالت لهن بأنه مجرد شعور ولم تقرر شيئا . ولبثت في صمتها حتى جاء موعد رحلة التجارة التي تنطلق فيها قافلة تجارية إلى بلاد الشام .

عادت إلى ذكر ذاك الفتى القرشي ، ولكنها أقنعت نفسها بأن ذلك لايتجاوز العمل ، فهو شاب أمين وقد يحقق لها مكسبا أعلى من هؤلاء الذين يأخذون تجارتها كل سنة إلى بلاد الشام ، فلتستفد من أمانة محمد وتفيده وهو أيضا قد يبحث عن فرصة عمل تغنيه عن رعاية الأغنام .

لكن كيف يحدث ذلك ياخديجة ؟ إن أمر الفتى بيد عمه .

فتنتهي إلى أن ترسل لأبي طالب تخبره اختيارها ليحمل فتاه المبارك بضاعتها هذه السنة إلى الشام ، وتشجيعا له لأنها المرة الأولى ، وكونه عُرف بالأمين فإنها قررت أن تعطيه ضعف الأجر الذي يعطيه تجار الرحلة لعمالهم .

يرى أبو طالب فرصة ليحسن ابن أخيه من وضعه المالي وكذلك هي فرصة ليخبر الحياة من خلال السفر والغربة ورؤية بلاد أخرى ، فيرسل الموافقة إلى خديجة على عمل ابن أخيه لديها . : هل حقا سيأتيك محمد ياخديجة ، ولكن كيف سترسليه لوحده وهو صغير في رحلة كهذه ، هل وقع اختيارك عليه لأنه سيكسبك المزيد بأمانته أم أن شعلة الحب نحوه

لم تنطفئ بعد في قلبك ، لا ياخديجة ، سيكون الأمر فوق طاقته ولم يوافق الفتى ولا عمه إلا للحاجة .
ليكن ياخديجة ،إنه ضعيف ، ارسلي معه خادمك / ميسرة / سيكون عونا له ويخفف عنه تعب الرحلة ، إنه محمدك ياخديجة ، محمدك الذي رق قلبك له كما لم يرق لمخلوق قبله ، أنيسك الوحيد في ليالي اشتعال حبه في نفسك ياخديجة ، ألا تذكريه ، إنه محمد الذي قررتي نسيانه ، محمد الذي تحتفظين له في نفسك بأرق وأعذب مشاعر الحب ، الذي طالما طالت بك ليالي الشوق وأنت ساهرة بذكره العبق .
تنطلق الرحلة ، وتبتعد عن الديار ، تشعر خديجة بأن محمدا ابتعد عنها ، فتشتعل شوقا إليه ، يتحول الشوق إلى اضطراب وقلق وأفكار من كل حدب وصوب ، يغدو محمد حديث الليل والنهار في نفسها ، كانت بالكاد أقنعت نفسها لنسيانه ، فها هو يعو د وقد أعادته من تلقاء نفسها . :
كيف ياخديجة تغامري بمحمد لترسليه في هذه الرحلة الشاقة ، محمد الحب الوحيد الذي هز أعماقك بكل مافي الفؤاد من قوة وخفقان ، هل تجد المرأة كل يوم رجلا تحبه كل هذا الحب ، أليس هو حب العمر الوحيد الذي هز أعماقك ، أي امرأة أنت لتغامري برجل بلغ في فؤادك هذه المكانة .
كان يمكن لأي رجل أن يقوم بهذه الرحلة كالسنوات الماضية ، ولتذهب الأموال إلى حيث تذهب ، ولكن الحب إذا ذهب سيأخذ معه كل أمل وكل بسمة وكل خفقة قلب .
إنك تعيشين لأنك تحبين محمدا ياخديجة وليس لأنك تملكين كل هذه الأموال ، هذه هي الحقيقة وعليك الإصغاء إليها جيدا ، الآن وأنت تفرطين بحبك في تلك الرحلة الخطرة تستيقظ الحقيقة في أعماقك كشمس لاتغيب .
لو كان الأمر بيدها لأرسلت مَنْ تعيده مع البضاعة ، فلم يبق لها سوى أن تنتظر على أجنحة القلق .
وتبقى فريسة لصور الماضي التي تتقافز إلى مخيلتها ، تتذكر كيف أن أباه قد ذهب في رحلة تجارة مماثلة ولم يعد ، يأخذها القلق لتقارن بين

نفسها وبين أم محمد عندما وافقت أن يذهب زوجها في مثل هذه الرحلة التي لم يرجع منها لتقع الفجيعة الكبرى على بني هاشم في وفاته . : هل دفعتي الشاب ليمضي على خطا أبيه يا خديجة ، ألن يعود مرة أخرى كما لم يعد أباه .

هاهي المأساة تتكرر مرة أخرى في مخيلة خديجة وقد تخيلت نفسها زوجة لابن عبد الله ، ولكنها لم تمنحه فرصة ليتزوج ، عله ترك لها أنيسا من رائحته كما فعل عبد الله ، ذهب وأخذ كل رائحة معه .

في غمرة هذا الشرود تولتها فكرة لم تكن أقل ألما ، فهل تعمدتْ أن ترسله في هذه الرحلة حتى تتخلص منه إلى الأبد ، فهي لاتعلم إلى أي موضع يمكن أن يودي بها هذا الحب نحوه ، وعلى هذا فقد أغرت عمه سواء قاصدة في شعورها أو في لاشعورها ، وضاعفت له الأجر وهي موقنة أنه سيوافق ، وما عزز هذا الشعور لديها أن آمنة عندما وافقت أن ترسل زوجها في رحلة خطرة كهذه كانت بأمس الحاجة إلى عمله لينفق عليها ، أما هي فلديها ما يكفيها مدى الدهر ، بيد أنها دفعته قاصدة لتتخلص منه ومن شعورها نحوه .

تقع خديجة في نار ملتهبة نتيجة هذه الفكرة التي استبدت بها ، ولكن شخصيتها القوية تجعلتها ترد على هذا الخاطر فتقول بأنها لم تفعل ذلك إلا حبا به ، وهذه هي الحقيقة التي لامبرر للتفكير بغيرها .

أرسلته لتختبر رجولته وجَلده على العمل والتضحية في سبيل إطعامها إذا احتاجت إلى من يعيلها ، ثم أن حبها الكبير له دفعها لتخرجه من رعي الأغنام فيكون مع التجار ويجول في البلاد ، فهو سيكون أبا لأولادها وعليه أن ينفتح ويتعلم ويعاني حتى ينجح ليكون أبا ومربيا ومعلما لها ولأولادها ، لاأن يكون رجلا مهزوزا ينتظر لتشتري له حذاء ، وتطعمه لقمة .

الآن عندما يعود ياخديجة سيكون الرجل الذي أثبت أن بامكانه أن يكون زوجا ورجلا ومعيلا وأبا مكافحا في سبيل أسرته ٠ عندها سيصمت ذاك الذي يشيع في الناس مستهزءا : / إن محمد بن عبد الله بن عبد المطلب

ذلك الذي كان يرعى لنا الغنم بالقراريط قد تزوج من خديجة بنت خويلد بن أسـد / ٠
تغدو الليالي أكثر وحشة ، يغدو النهار أكثر طولا في وحشة انتظار من قد يأتي وقد لايأتي ، وبغتة يتعالى صوت فرح بعودة العير من بلاد الشام ، تشعر خديجة بأنه حمل شمسا إلى ظلامها ، وأي نبرات ذهبية تلك التي أزاحت عن كاهلها جبلا من القلق ، عاد العير ، أجل عاد العير وها هو يلوح بعودته من بعيد كغائب منذ مائة عام .
هاهي شمس تشرق في أعماق خديجة مع اللحظات الذهبية الراعشة ، يتحدث الناس عن الأرباح ، عن الأموال التي ستحل عليهم ، عن هديا لم ترها عيونهم من قبل ، عن رائحة بلاد الشام التي يحملها الرجال ، ولكن نظرات خديجة وقلبها وتفكيرها في أنفاس رجل واحد يثبت لها بأنه قادر على تحمل مسؤولية زوج وأب وشريك حياة ، وأنه لن يخيّب أملها فيه ، ولكن مالهذه القافلة لاتصل ، ما لهذه المسافة وكأنها تأخذ بالابتعاد ، ومازال صوت المبشر يتلألأ بالنداء حاملا بشرى انشراح الصدر والروح ، مازال الصوت يغرد بأرق أغنية سمعتها أذنا خديجة ٠ إنه محمدك ياخديجة ، أجل محمدك هذا الذي يشرق وهو واقف يسلمك أرباحا ماكانت تخطر لك على بال ، يسلمك الأرباح وينصرف إلى أهله ٠ هل انتهى كل شيء ، هل ذهب محمد ك مرة أخرى من يدك ، لو كان يدرك حجم الشوق والقلق والانتظار الذي كان مشتعلا في أعماقك لأطال البقاء ولو للحظات أخرى ، ياله من فتى مؤدب ، ياله من فتى بالغ الرقة والعذوبة ٠ ولاتملك إلا أن تطلب من / ميسرة / أن يروي لها كل شيء عن تفاصيل الرحلة، أن يحدثها عن رفقته في السفر عن كل نظرة وحركة وكلمة بدرت منه ٠ ولكن ميسرة يصمت ، وأي شيء سيقول ، من أين سيبدأ ، وإذا روى لها ما رأى هل ستصدق وهو نفسه مندهش لما رأى وعاشر ٠ ولكن خديجة أصرت أن يروي لها ما رأى وسوف تصدقه لأنها تخبر صدق خادمها ، ولذلك عندما أخبرها عن كائنين غريبين كانا يظهران في حرارة الظهيرة ليظللاه ، وكان هو الوحيد من بين القوم يرهما . قالت له : صدقت ياميسرة . في تلك اللحظة ولد القرار

الذي لاتراجع عنه ، فأرسلت إلى ابن عمها ورقة بن نوفل ، ولما جاء ورقة أخبرته بأنها سوف تتزوج محمدا بن عبد الله الذي استأجرته في تجارتها لهذا العام ، ولأن ورقة يثق بحكمة خديجة وتأنيها في اتخاذ مثل هذا القرار المصيري ، أبدى موافقته ٠ ولست أنا هذه المرة يا بشري ولكنها / نفيسة / التي ترغب أن تروي لك وقائع هذا الزواج وقد شهدته و كانت أحد دعائمه : كانت خديجة بنت خويلد بن عبد العزى بن قصي امرأة حازمة جلدة شريفة ، مع ما أراد الله بها من الكرامة والخير ، وهي يومئذ أوسط قريش نسبا وأعظمهم شرفا وأكثرهم مالا ٠ وكل قومها كان حريصا على نكاحها لو قدرعلى ذلك ، وقد طلبوها وبذلو لها الأموال ٠٠ فأرسلتني دسيسا إلى محمد بعد أن رجع في عيرها من الشام ٠ فقلت : يامحمد ، ما يمنعك أن تتزوج ؟ فقال : ما بيدي ما أتزوج به ٠ فقلت : فإن كفيتَ ذلك ودُعيت إلى الجمال والمال والشرف والكفاءة ألا تجيب ؟ قال : فأنا أفعل .

فذهبت فأخبرتها ، فأرسلت إليه أن أئت لساعة كذا وكذا ٠ وأرسلت إلى عمها عمرو بن أسد ليزوّجها ، فحضر ودخل رسول الله صلى الله عليه وسلم في عمومته ، فزوّجه أحدهم انفتح محمد على حب امرأة تكبره بعشرين سنة ، رآها المرأة التي تمنحه كل شيء ، تعوضه بكل ما لقي من حرمان ، من دفء المرأة ، دفء البيت ، ولبث يقدر كل تضحياتها وحبها الشديد إليه ، لقد كان حبها له حبا طبيعيا ولذلك انفجر في قلب محمد حب طبيعي نحوها فلبث الرجل المحب حتى شاخت وهو ما زال في شبابه وذروة رجولته ، إنها المرأة الأولى والأخيرة التي سيمضي عمره معها ، وكيف به يكون أنانيا ليتزوج من صبية ويسبب ألما لهذه المرأة النبيلة التي وهبته كل شيء ، لسوف لن يجعلها تشعر مجرد شعور بأن ثمة امرأة غيرها تدخل في حياته ، لن يمنح فرصة لأحد ليقول :

ذاك الرجل الذي ضحت من أجله خديجة بنت خويلد بن أسد بكل شيء ، راح فجلب لها ضرة ٠ هذا الكلام وإن كان سيؤذي محمدا ، ولكنه سيقع في سمع ونفس خديجة كلهب من نار ٠

تنزل عليه الكلمة الأولى من الرسالة ، فلا يجد غير خديجة ، تقف إلى جانبه ، وتؤمن بكلمته فيعملان سويا في نشر دين جديد لسوف ينتشر في الآفاق . تسانده خديجة كما ساندته من قبل ٠ ولكن الرحلة قصيرة فتتركه خديجة وهو مازال في بداية كفاحه في نشر رسالة دين جديد أراد الله أن يختاره لهذه المهمة .
عاد محمد يتيما مرة أخرى ، وهذه المرة هو يتم الزوجة وأي زوجة .. تاركة له أولادا ، فماذا يفعل ، هل يتفرغ لتربية أولاده ، هل يتفرغ لنشر الرسالة . إنه يحتاج إلى امرأة وقد بقي وحيدا ، لابد أن تأتي امرأة إلى هذا البيت ولن يكون بوسع أحد أن يلومه . ولكن هل سينساها ، وهل سيكون بوسع امرأة أن تحتل مكانها في قلبه ، سيبقى يذكرها ، يبقى يردد اسمها وكأنها حية لم تمت ٠ حتى أن عائشة ذاتها التي لها موقع خاص في قلبه لن تتردد من أن تقول : ماغرت على امرأة للنبي ماغرت على خديجة لما كنت أسمعه يذكرها ، وأمره الله أن يبشرها ببيت في الجنة من قصب . وإن كان ليذبح الشاة فيقطعها أعضاء ثم يبعثها في صدائق خديجة ، فربما قلت كأنه لم يكن في الدنيا امرأة إلا خديجة فيقول : إنها كانت .. وكانت ، وكان لي منها ولد ٠ ذكر يوما خديجة فأطنب في الثناء عليها، فأدركني ما يدرك ما يدرك النساء من الغيرة ، فقلت : لقد أعقبك الله يارسول الله من عجوز من عجائز قريش حمراء الشدقين .
فتغير وجه رسول الله تغيرا لم أره عند شيء قط ، إلا عند نزول الوحي ٠تضيف عائشة : استأذنت هالة بنت خويلد أخت خديجة على رسول الله صلى الله وعليه وسلم ، فعرف فارتاع فقال : / اللهم هالـة / فغرت فقلت : ما تذكر من عجوز من عجائز قريش حمراء الشدقين هلكت في الدهر أبدلك الله خيرا منها ٠ فقال : ما أبدلني الله خيرا منها ، وقد آمنت بي إذ كفر بي الناس ، وصدقتني إذ كذبني الناس ، وواستني بمالها إذ حرمني الناس ، ورزقني الله ولدها إذ حرمني أولاد النساء ٠ هاهي عبارات خد يجة التي واسته وهدأت من روعه ، ومازالت تواسيه وتهدئ من روعه ، هاهي كلماتهاومواقفها الباقية في ذاكرة محمد جاريا من غار حراء إلى حضنها : زملوني .. زملوني .

فتزمله بقلبها وحبها وهي تتمتم له كأنها تنشد له نشيا: ابشر يابن عمي ، فوالله الذي نفس خديجة بيده إني لأرجو أن تكون نبي هذه الأمة ، كلا والله ما يخزيك الله أبدا ، إنك لتصل الرحم ، وتحمل الكلَّ ، وتُكسب المعدوم ، وتُقري الضيف ، وتعين على النوائب ، وتَصدُق الحديث ، وتؤدي الأمانة ٠وتأخذه إلى ابن عمها ورقة بن نوفل المعرف بالعلم في مكة فتقول له : يابن العم اسمع من ابن أخيك .
يسأله ورقة : يابن أخي ماذا ترى ؟ يخبره النبي عما رأى فيقول ورقة : هذا الناموس الذي أنزله الله على موسى ياليتني فيها جزعا ، ليتني أكون حيا إذ يخرجك قومك ٠ يضيف له ورقة بعد أن أنبأه بالهجرة : لم يأت رجل قط بمثل ما جئت به إلا عودي ، وإن يدركني يومك أنصرك نصرا مؤزرا٠يقول في كمال هذه المرأة : كمل من الرجال كثير ، ولم يكمل من النساء إلا ثلاث : مريم بنت عمران ، وآسية امرأة فرعون ، وخديجة بنت خويلد .
في كل الاتجاهات أراني مندفعة إلى امرأة قالت : لا . لأطبع قبلتين على عينيها الكريمتين حتى لو كانت في آخر بقاع الأرض ، عندذاك أشعر بنشوة لأن ثمة امرأة جديدة انتصرت ب /لا / التأنيث ٠لأن ثمة امرأة جديدة أدركت أن لا سبيلها الأوحد لتبقى كائنة بشرية . هذه المرأة يابشري في الوقت الذي تقول فيه بكل قوة أنوثها : لاللسقوط . فإنها بذات اللحظة وذات القوة تقول : نعم للإرتقاء . لاشيء يضاهي لذة الانتصار ، لذة أن تشعر المرأة بأنها قامت بعمل بطولي في سبيل ألا تُسقط عنها شخصيتها . إن ذاك اليوم لهو يوم مشرف في تاريخ تلك المرأة . عندما تفقد المرأة شخصيتها ، فإنها تفقد خصوصيتها وعندما تفقد خصوصيتها فإنها تفقد أنوثتها ، وعندما تفقد أنوثتها لن تكون امرأة ، ولن تكون رجلا . وهنا يتلاشى فارق السن بين امرأة وأخرى ، فيمكن أن ترى امرأة في الخامسة والستين تتمتع بألق واتقاد نوراشراقة الأنوثة ، وترى امرأة في الخامسة والعشرين مطفأة لكل ذرة من ذرات أنوثة ٠
لاأعرف إن كنا سننام أم سنواصل حديثنا ، ولكن ثمة حالة كنت شهدتها لدى نماذج من نساء يهمني أن تسمعها قبل أن أنتهي ٠ وهي أنك يمكن

أن تشهد لونا من العلاقة بين الرجل والمرأة وقد تطورت لتتحول إلى امتلاك للمرأة ، فيعيش الرجل حالة أنه بات يمتلك المرأة كما يمتلك أي قطعة جامدة في بيته في الوقت الذي يقول فيه بحبها، ثم ترى هذه العلاقة تأخذ أبعادها لدى بعض أزواج ، فيفرض عليها نمطا معينا من الحياة في النوم ، واليقظة ، وتناول طعام ، والامتناع عن طعام آخر ، والاستقبال ، والمقاطعة ، والهوايات ، والألفاظ ،وتأثيث البيت ، وتربية الأطفال ٠وعندما يتمكن من هذه النزعة ويرتوي من ممارستها فإنه عندذاك سيشعر بقرف نحو تلك المرأة ، ويبدأ في البحث عن امرأة أخرى لأن التي لديه جماد وليست كائنا بشريا ٠

ا

# لفصـل السـادس

في العاشرة صباحا كانت ذكرى تجلس وحدها في البيت تقرأ سورة النساء ، قاطعتها دقات على الباب ، فنهضت لتدخل عزيزة التي جاءت دون موعد . تباوست الصديقتان بشوق وحرارة رغم الغياب القصير ، ولما رأتها ذكرى محتقنة ومنهكة استأذنتها لتجلب لها كأسا من عصير الليمون الطازج ٠
تناولت عزيزة رشفة صغيرة من الكأس بيد راجفة ، وانحدرت دموع غزيرة من عينيها قائلة بألم وحرقة وكأنها تستجر النبرات من حنجرتها جرا : أشعر ياذكرى أن حبلا من الآثام يلتف حول عنقي ويرفعني إلى الأعلى .. هذه الحالة لاتتركني ليلا نهارا ٠

هربت إليك ياذكرى ، وأنا لاأجد غيرك أهرب إليه ٠ هربت إلى حديقة ذكرى لأشم بعضا من روائح زهورها ٠ يا إلهي ، يبدو لي أن ذنوبي غدت أثقل من جبل على نفسي ، هذا الجبل الذي استسلمت لحجم ألمه ، لم أعد قادرة حتى على التنفس ياذكرى ، غدت البسمة الحقيقية التي تصدر من القلب حلما بعيدا ٠ اكتشفت ياذكرى من أعماق هوتي أنه ليس هناك أغبى ممن يذهب ليعالج خطيئة بخطيئة ٠ إنني ألتمس منك ياصديقتي طريقا للخلاص ، ألتمس شيئا من رحابة روحك ، وقوة نقاءك ٠ هل ستقولين لي شيئا أم تدعينني أموت دون أن تقولي لي كلمة أخيرة تودعينني بها ٠ لقد سقطت ياذكرى ، سقطت .

وإن كنت أدين نفسي بهذا السقوط ، فإنني لن أنسى أن أدين كل يد أسهمت في دفعي إلى هذه الهوة ٠ هلا تمدين كفك إلى ذاك القاع علها ترفع قليلا تلك الصديقة التي أحبتك وأخلصت لصداقتك من الأعماق ٠ لا أريد أن أختتم حياتي وأنا أحمل كل هذه الآثام ٠ لا أريد أن أموت وأنا بكل هذه العفونة النفسية أيام البؤس والشقاء تحرض على الخلاص ةتةلد نزعة تشاؤمية في النفس ٠ وأي جحيم عندما يشعر المرء بتفاهته ، يشعر بأنه كائن منبوذ ينظر إلى نفسه كما ينظر إلى حشرة قذرة ، عندما يسقط

المرء أمام نفسه فإنه يكون ساقطا في أنظار الآخرين بعينه حتى لو لم يعلموا شيئا عن سقوطه ، أنظار الأنقياء من الناس تدينني وتوبخني بسقوطي حتى وهم يجهلون عني هذا السقوط ، نظراتي عندذاك تقفز إلى وجوههم لتنظر إلي نظرات احتقار وهكذا أراني مندفعة إلى الموت اختصارا لمزيد من الاحراجات ووخزات الألم الروحية ، سيحملني الموت على أجنحة الخلاص إلى أي مكان آخر ، لايهم أنا واثقة بأن أي بقعة أخرى ستكون أرحم من هذه بالنسبة لي ، أجل هناك مستقبلي ولا مستقبل لي غيره ٠ صمتت والدموع ماتزال تجري من عينيها ، وما زال الشحوب يستبد بها ، والتوتر يحتل حتى لحظات الصمت التي غرقت فيها ٠ تبدو وكأنها هربت للتو من الدرك الأسفل من الجحيم ومالك يلاحقها ليعيدها إلى مطرحها بالقوة ٠

رأت ذكرى أن صديقتها لن تستوعب أي كلمة سوف تقولها ، وأنها لاتحتاج غير إلى أن تأخذ قسطا من الراحة سواء في الحديث أو في الاستلقاء ٠ إنها آتية لتتحدث لالتسمع رغم أنها تلح على السماع ، وعلى رغم انتظار عزيزة الطويل لتتحدث بما تراه يخفف عنها إلا أن السكوت لبث يخيم عليهما ٠ فما تقوله عزيزة وهي في أعنماق احتراقها لهو أكثر أهمية وجدوى للتخفيف من وطأة عالم النيران التي تحترق فيه ٠ وأمام هذا الصمت المتبادل وانتظار كل واحدة ليصدر حديث من أختها ، نهضت عزيزة وقد بدت على ملامحها نسمة هدوء ٠

ودعتها ذكرى إلى أن سارت معها خطوات في الشارع ، وعادت تبرك مكانها حاملة القرآن مرة أخرى طابعة عليه قبلة ، ثم مكملة ما كانت تتلو من سورة النساء ٠ رأت أن تلاوتها شوبها بهض التشوش ، وقبل أن تنهي السورة عادت تطبع قبلة على الكتاب المقدس وتعيده إلى مقضعه ٠ إنها عزيزة التي لاتترك ذهنها في صفائه ليستقبل كلمات ربها بسكينة ، إنها عزيزة التي غابت فخلفت في مطرحها ألف شبح لعزيزة ٠ راحت العبارات تتداعى في خاطرها وفي حديث نفسها : أمام كل هذه التجارب

، ماذا تقولين ياذكرى ، ماذا كان بودك أن تقولي لعزيزة وغلبك التردد ٠ إن من ينظر نظرة سوء لغيره ، تُنظر إليه نظرة سوء ٍمن يلفظ كلمة خبيثة لغيره ، تُلفظ فيه كلمة خبيثة ، من يسطو على ناموس غيره ، يُسطى على ناموسه ٠ من يعز نفسه تعزه نفسه ياذكرى ، ومن يذل نفسه ، تذله نفسه ٠ إنها فطرة الإنسان ذاتها التي تأخذ ماتدفع ، وتدفع ما تأخذ ٠ التي اعتادت أن تكافئ صاحبها ، واعتادت أن تعاقبه ٠

عند الظهيرة وعلى مائدة الغداء غازلها بشري بوجود نجم قائلا : لااظن أن هناك امرأة في هذه البلاد تجيد فن مضغ الطعام مثلك ٠٠ حتى لو مضغتي خبزا يابسا ، ستثيرين شهيتي لتناول كسرة من ذاك الخبز ٠

وأنت يانجم ، ألا تدهشك عذوبة أمك الصغيرة هذه التي لاتريد أن تخرج عن طفولتها ٠ ابتسم الصبي واستحى من الإجابة فقالت ذكرى وهي تضع صدر الدجاجة المحمص جيدا في فمها : حتى عند مضغ الطعام أريد أن أبقى في حالة عبادة ، عندما أمضغ اللقمة وأتمتع بنكهتها ، أتذكر أن الله قد أتى بلحم بالغ اللذة ، ثم خلقني وأرشدني إلى طهيه بطرق شتى ، وجعل لي فما وأسنانا ومعدة وشهية لتناول هذا اللحم والاستمتاع بتناوله ٠ ثم أردفت وهي تحمل كأس اللبن إلى فمها : وأنا أشرب اللبن البالغ الطيب هذا ، أذكر الله الذي جعله في مراحل حتى يصل إلى فمي ، فإذن أنا مدللة لديه ، وهو يهبني ما ينعشني متذكرة قوله في هذا الشراب ونكهته تملأفمي : / وإن لكم من الأنعام لعبرة نسقيكم مما في بطونه من بين فرث ودم لبنا خالصا سائغا للشاربين / . أتناول هذا الشراب بشهية وليس عن طيب خاطر ، أتناوله من الله بقوة وشكر لأنه هو الذي أهداه لي وكان يمكن أن يحرمني منه حتى لوكان في متناول يدي ٠ عندما يمنحنا الطبيب سنا صناعيا فإننا ندين له ونتذكره كلما نظرنا في السن ، فإذن أذكر الله وأنا أنظر في طقم أسنان طبيعية ٠

في الصباح خرجا إلى عيادة الطبيب لإجراء تحاليل لذكرى ، فطلب المخبر أن يعودا بعد ثلاث ساعات ليأخذا النتيجة ٠ عادت ذكرى إلى البيت ، واتجه بشري إلى المطعم ٠ وبعد ثلاث ساعات ترك عمله ثانية وراح إلى المخبر ليجلب نتيجة التحليل الطبي ٠ دخل البيت فرحا كأنه

يتقافز ليرى ذكراه في انتظاره تستمع إلى المذياع ، ومإن رأته حتى أطفأت الأغنية التي كانت تسمعها وقالت : ماذا رأى التحليل يابشري ؟
فقال : مثل هذا الخبر يحتاج إلى ثمن ٠
أدركت ذكرى ما يرمي إليه فأعطته خدها قائلة : خــذ ٠
لم يشأ بشري أن يترك فمه من خدها ، فكل قبلة هي قبلة جديدة يظفر بها لأول مرة لها رائحة مختلفة وطعم مختلف ونشوة مختلفة ٠ فألصق خده بخدها الناعم وكأنه لايريد أن يتركها فضحكت ذكرى وقد تراجعت إلى الوراء : قل فإني لا أطيق صبرا ٠
قال بشري بنبرات تحمل إليها نكهة العيد : أنت حامل في الشهر الثاني ٠
ومد يده بعجالة إلى جيبه وقد أخرج مظروفا : هذا المظروف من عزيزة ، مرت بي في المطعم وطلبت أن أسلمه لك ٠ وخرج على عجل ملتحقا بعمله الذي تأخر عنه كثيرا ٠
لم تستطع ذكرى أن تستقبل النبأ إلا بذرف الدموع متمتة في حديث نفسها :الآن علي أن أقدم كائنا بشريا إلى الحياة ٠ ثم نظرت في بطنها وراودها إحساس لأول مرة بأن اسنانا ما يسكن بطنها ، وعليها أن تحسن سكناه ٠
عادت إلى الجلوس فتذكرت مظروف عزيزة ، فضته وهي شاردة لتقع على خط مربك : لن أبدأ كلماتي هذه بـ اسم الله ، لأني لاأستحق أن أبدأ باسمه ، لن أبدأها بـ أختي ، لأنني لاأستحق أن تكوني أختا لي ، ولن أبدأها بـ صديقتي لأنني لاأستحق أن تكوني صديقة لي ٠أبلغك شوقي الفائض ، لكن لم أملك طاقة النقاء الكافية ولو للحظة واحدة لأزورك ، أجل ياغاليتي إن عشك الزوجي الطاهر لهو أسمى وأنقى من أن تدخله امرأة تحمل حجم تلوثي ، كل المرات السابقة التي زرتك فيها كنت أشعر أنني لوثت ركنا مقدساما، حرصت طوال عمري أن يبقى نقيا ٠ أصارحك ياذكرى أن العفونة الروحية بلغت بي ذروتها ، لم أعد قادرة على فعل شيء غير أن أمضي بين جدران زنزانتي هذه ، ويالها من زنزانة روحية قذرة ٠ ذكرى ، وأنا أتخبط من حيث أدري ولا أدري رغبت أن أقول لك أشياء من هوتي السحيقة هذه ٠ إن دناءة نفسي علمتني ما لايمكن لنقائك أن يعلمك إياه أيتها الزهرة المجيدة ، ياشجرة

الأمل الصامدة كالطود التي من أجلها يهطل المطر ، ومن أجلها يأتي ذاك الربيع محملا بالبلابل والزهور وسحر الطبيعة ٠ في الصباح خرج / مرضان / إلى عمله وخرجت إلى انحطاط نفسي الذي لاأخفيك بأنني غدوت أتسوله ٠ ثمة شيء اسوأ من الإدمان يدفعني لرائحة الدناءة وأنا أدرك بأنها تحطم سمعتي وجسدي وروحي معا ولا تحقق لي غير الإشمئزاز لأنه لايوجد رجل عاقل يكن احتراما لعاهرة ، ولذلك لايخلف هذا العهر غير مشاعر الاشمئزاز العميقة في كلينا .. كنت في لحظات أقول في نفسي أن الإنسان مهما أوتي من قوة للصبر فإنه ينحني محققا ضعفه دون رفيق يعينه على الوقوف ٠

كنت دوما أقول أن سيدك بشري كان سيستسلم في النهاية على تلك الضفة المهجورة لولا أن رآك ، وهل كان حقا يعيش وقد رفض كل ألوان الحياة ، هل كان قلبه سينبض بالحب مرة أخرى ويضمك بكل حنان الرجولة ٠ وأي مصير كان سيكون لك وقد انطفأت في روحك كل شعلة للحياة لولا أن قادتك الأقدار إلى شِباك ذاك الرجل النبيل ٠ بالنسبة لصديقتنا ، كانت ستواجه عواصف شتى لولا أن رضعت تربية صالحة ، وقيما نبيلة مع حليب أمها ٠
كان بينها وبين الهوة السحيقة خطوات روحية ، لكن الأم نادت ابنتها بكل قوة :/ إن من يحوم حول الحما يوشك أن يقع فيها /٠
كان نداء الأم الغائبة الحاضرة هو الذي يدفعها للخروج عن الحما وما فيها ٠ البذرة الصالحة لايشوبها فساد ياذكرى ، ولاتينع ثمرة فيها فساد .
لقد انحرمتُ من كل لمسة أمومة تطبطب لإشراقة طفولتي .. من كل قبلة أبوة تشد أزري .. من كل كلمة طيبة تغرسني في أرضي .. من كل مطر ينزل على تصحري .. من كل شمس تشرق على ارتجاف روحي .
لكنني لاأنسى أن أدين أنانية المجتمع الذي لايفكر أحد فيه أن يبادر ولو مترددا بمد يد عوم إلى غرقي . إنها الأنانية الإجتماعية التي أودت به

ليفقد مثلي كل شيء . التربية الصالحة حرمتها لغياب أمي المبكر ، الثقافة التي دوما تنادين بها ياصديقتي كانت أبعد ماتكون عن متناول يدي بسبب اضطهاد وعنجهية أبي وزوجته ، وقد خسرت حتى فرصة الظفر برجل يمكن أن أحلق على كتفيه في الفضاء.
ألاتذكرين حكاية المرأة الطيبة في منبت السوء التي حذر منها النبي في حديث / خضراء الدمن / . أعترف لك أنه فاتني أن أعمق ثقافتي الدينية ، وكنت أجد فرصا متاحة . لكن رغم كل هذا فلا أجد فرصة لأبرر ذاتي من يم الآثام. الذي مثلي يبكي نفسه بحرقة أما م كالذي مثلك عله يجد في بكائه شيئا من عزاء . بيد أن الذي كمثلك لايبكي نفسه حرقة على الذي كمثلي لأنه لايرنوا إلى أن يكونه .
لاتوجد آثمة سعيدة في آثامها ياصديقتي ، ولكن توجد نقية سعيدة بدفء نقائها . كل امرأة آثمة تنظر إلى يوم لسوف تشرق فيه الشمس لتقول لبحر الآثام : وداعا . لكن ليس ثمة امرأة نقية تنظر إلى يوم تقول فيه لبحر الآثام : أهـلا . كل مايمكن ان أختتم به هذه الاعترافات لك هو شعوري الأعمق بأنني قاعدة الآن على لغم موقوت . ذكرى ، منذ يومين لاأعرف كيف خطر لي أن أعود إلى القلم الذي هجرته ، كتبت شيئا أحسست بأنه أراحني ، أرفقه لك مع هذه الرسالة وإني لأرجو منك قراءة متأنية لها .

فتحت ذكرى الصفحات المطوية ، وضعتها جانبا وأحضرت كأسا من الشاي ، جلست على الكنبة وقد بدت في حالة تهيئها لاستقبال ما كتبته عزيزة التي كانت في السابق مشروع كاتبة قصة وكان سبق لها أن كتبت نحو ست قصص بيد أنها مزقتها ونست الأمر كله عندما تزوجت .

مدت ذكرى يدها إلى الأوراق ولكن صوت الباب جعلها تنهض والأوراق بيدها لتدخل إحدى جاراتها قائلة بأنها رغبت أن تزور جارتها الجديدة : أنا جارتك أم حساني ،ابني اسمه حسن ، يلقبونه حساني . استقبلتها ذكرى بحفاوة و قدمت لها إبريقا من الشاي الحجازي الأحمر مرحّبة

بها بكل حرارة ، وبعد ذلك قدمت لها فاكهة ، ثم فنجان قهوة وعبارات الترحاب تتجدد بين دقائق وأخرى في فمها ، فطلبت منها المرأة أن تقبل دعوتها للغداء يوم الجمعة القادم مع بشري ونجم . مضت ساعتان والمرأة ماتزال تتحدث وذكرى تعيد عبارات الترحاب بها وتقدم لها ألوان الضيافات حتى جاء طفل في نحو السابعة من عمره قائلا بأن أباه قد عاد ويريدها ، فقالت : هذا ابني حساني غلامك .
فنادته ذكرى ، ومدت يدها تسحب محرمة من علبة المحارم ، مسحت أنفه ، وقبلته من خده .
قالت المرأة : غلامك .
مدت ذكرى يدها وناولته تفاحة ، فأعادت المرأة : غلامك .
ثم نهضت وبعد لحظات عادت بيدها كمشة كرميلا وضعتها في جيبه.
فكررت المرأة : غلامك ياجارتي .
خرج الطفل فشكرتها المرأة على كرمها ، لكنه بعد ساعة أخرى عاد قائلا بأن أباه يريدها بسرعة ، فنهضت ، ولبثت تتحدث واقفة وبين دقائق وأخرى تخطو نصف خطوة حتى مضت نحو نصف ساعة إلى أن وصلت الباب ، وهناك وقفت تتحدث لمدة ربع ساعة ، فعاد الطفل قائلا بأن أباه يريدهاحالا وهو في عجلة من أمره ، عندذاك نادته وأمسكته من أذنه حتى بكى ثم صفعته على وجهه قائلة : ألم تسمع ، قلت لك أنا قادمة .
عادت ذكرى وهي تحس بإرهاق لأن الزيارة حرمتها الاستراحة في وقت القيلولة فاستلقت على الكنبة وقد تغطت ببطانية .
غفت إلى أن عاد نجم وأيقظها بدخوله ، دخل المطبخ تناول بعض طعام من البراد واقفا وعاد يجلس إلى التلفاز .
دب النشاط في جسد ذكرى بعد غفوتها ولا تعرف لماذا رغبت أن تطلب من نجم أن يصنع لها فنجان قهوة ، فنهض وأحضر لها ركوة القهوة مع فنجان وكأس ماء ٠ تمتعت باحتساء القهوة رغم أنها كانت قهوة فاشلة لأنها كانت خفيفة وكثيرة السكر ولم تكن مغلية جيدا .

قعدت في الكنبة تشاركه مشاهدة التلفاز فدخل بشري قبيل وقت عودته بساعة قائلا بأن شوقه إلى هذه العائلة الصغيرة هو الذي جعله يترك العمل قبل ساعة .
بغتة قفز كل حديث عزيزةالذي قرأته في رسالتها إلى مخيلة ذكرى . قفز كلمة كلمة ، جملة جملة ، وكأن عزيزة نفسها واقفة قبالتها . لأول مرة انتابتها رغبة قوية لتعامله كطفلها ، فراحت تقبله من عينيه وتأخذه إلى المغسلة ، تغسل شعره بالصابون ، تفرشي أسنانه ، تغسل يديه ، تغسل قدميه ، تنشفه وتعيده إلى غرفة الجلوس .
لاتريد أن تتركه لحظة ، فراحت تقص له أظافر يديه ، وبعد أن فرغت مدت يدها تقص أظافر قدميه وهي تزداد شعورا بأنه طفلها الكبير المدلل الذي لامستقبل لها غيره . ثم جلبت إناء ووضعت قدميه في ماء ساخن قائلة : أنت تطيل الوقوف على قدميك في المطعم ، اجلس في وقت تراه .
ثم أخذته إلى السرير وأخذت تهدهده لينام باكرا . عند ظهيرة اليوم التالي فرغت ذكرى لقراءة ماكتبته عزيزة وطلبت إليها أن تقرأه بعمق ، فأحضرت الأوراق وجلست مهيأة للقراءة : هذه هي الليلة السابعة التي لم ترقد فيها مليكة ، لاتقوى على فعل شيء غير أن تلبث متيقظة ، تغمض عينيهامن جديد وتتحايل على حواسها بأنها غفت وودعت عالم الاستيقاظ في محاولة أخرى للهروب من تلك الانهيارات في أعصابها، تذكرها أمواج اليقظة المشتعلة بأن رموشها مالمست النوم لحظة واحدة فتمسي مجرد غفو صغيرة كحلم بعيد المنال ،ومرة أخرى يستبد بهاذات الشعور بأن الليالي السبع الفائتة ماكانت غير محاولات فاشلة. تبرك في فرشتها ،تجرع جرعات جديدة من مرارة اليقظة المتواصلة، تمد يدها إلى مظروف الأقراص المنومة وتبتلع قرصا ، تدخن سيجارة .. تتجاوز الساعة الثانية من جديد .
ياله من وقت مزعج هذا الذي لايسرها أن تكون يقظة فيه ، لم يعد يهمها إن كانت هي التي تقرر القيام بما تقوم به من أفعال ، أم أنها تنقاد غير دارية ، فنهضت ، أو نُهضت ، لافرق، إلى المطبخ ، جلست

ترتشف ابريقا من البابونج .. ومن المطبخ اتجهت إلى الخارج ، تأملت السكون والمصابيح المشتعلة في الشارع ، تأملت القطط وهي تمزق أكياس القمامة الموضوعة بجانب الأبواب ، خطت تاركة الباب مفتوحا ، سارت خطوات وخطوات ، لم ترغب في العودة رغم برودة الطقس ٠ عند وصولها إلى نهاية الشارع استدارت عائدة إلى البيت ٠٠ لافائدة ، ماتزال منطقة صناعية بكاملها تعمل في رأسها ٠ لابد أنه النوم ، أجل إنه النوم ياماليكة هذا الذي يناديك إلى دفء الفراش ٠ تزغرد كل حاسة فيهاوتتجه إلى الفراش تغطي كامل الجسد إلى قمة رأسها باللحاف علّه يعرّق جسدها فيطول النوم ٠ يمضي الوقت فتزداد المنطقة الصناعية نشاطا وكأنها عادت بعد أسبوع عطلة ٠ تقذف باللحاف بعيدا وتقفز برعب ، وفي أثناء ذلك بدا لها أنها كانت غافية وهاهي وقائع حلم خرجت منه للتو ٠ زاد هذا الشعور من ألمها فسحبت اللحاف وعادت تتغطى به كاملة وقد تكورت تحته كأنها أرنبة لاذت من الثلج بوريقات شجر ة ٠ تغمض عينيها وتبدأ تعد الأرقام ببطء شديد متخيلة أنها سوف لن تصل الخمسين ، يزداد العد بطأ ، تكتشف أن العد تجاوز المئتين ٠ : ماليكة ، يكفي هذا التوتر ، كوني مسيطرة على نفسك ٠ كل ماحدث لم يكن برغبتك ٠
لكنني وافقت عليه
كنت صغيرة ياماليكة ، تظنين أن رغبتك مقترنة برغبة أبيك ٠
تتقلب في الفراش من ظهرها إلى الجهة اليسرى متمتمة والدموع في عينيها : كيف للإنسان أن يبقى يدفع ثمن خطيئة واحدة مدى العمر ٠
تنهض وكأنها في عز ظهيرة ، تدخل غرفة نوم الأولاد ٠٠ كل هؤلاء خرجوا منك ياماليكة ٠ وترمق رجلا في الثلاثين جاء ينعم بدفء الليل مع رائحة أطفاله : لقد بذر كل واحد من هؤلاء بذرة بذرة ٠٠ ثمانية أطفال ياماليكة وأنت ماتزالين طفلة ٠ إنه مستغرق في نوم وقد نسي ، ولكن هل بمقدرورك النسيان وهم يهرعون إلى حضنك كلما جاعوا وبردوا ٠

في الآونة الأخيرة كان يدينك بنظراته على مائدة العشاء : ستجعلينني جدا وأنا ما أزال في الثلاثين ٠ وكانت نظراتك هي التي تقول لنظراته : بل أنك الذي ستجعلني جدة وأنا في السابعة والعشرين ٠
ردت نظراته المحدقة : ماعدت تصلحين غير أم للأولاد ٠٠ أحتاج لامرأة زوجة ٠
تطايرت الادانة من عينيك : جاء الأب ، خرج الأب ، نام الأب ، فاق الأب ٠ لاتصدق أيها الأب أن هناك أنثى تهنأ في بيت رجل إلا إذا كانت أنيسته الأولى ، وأنه لها أكثر من أي كائن آخر ٠ ها أنت لم تعد غير لهؤلاء الذين أخذوك مني وأخذوني منك ٠ مات الزوج فيك ، ماتت الزوجة فيّ ٠
هاهو العمر يتفتح للحياة ياماليكة ، زهرة الأنوثة تتفتح فيأتي الانطفاء ٠ نسيت الثياب الجديدة ٠٠ العطور ٠٠ بعت حتى خاتم الزفاف والقيراط كي ترضعي هؤلاء الذين أتيت بهم ليغتالوا سنوات مراهقتك ولادة إثر ولادة ٠ هل ستشعرين أن عمرك انتهى وأنك لن تمارسي طقوس ووقائع وحميمية العلاقة الزوجية مرة أخرى ، هل انتهى العمر في بدئه ٠
انسحبت من حجرة النوم بذات الهدوء الذي ولجت فيه ، وعندما ألقت نظرة إلى الساعة رأتها تشير إلى الثالثة والثلث ، رأت نفسها تدخل غرفة صالون الاستقبال وتبرك جوار الهاتف ٠ رنّ حديثه في أذنها : لاتتصوري أن الأمر سوف يكون بالسهولة التي تتصورينها ، إنك أم لثمانية أولاد ٠
رنّ كلامها : ألن تفكر أن تخرجني من سجن نفسي ولو بكلمة ، أن تمد إلى ضياعي كلمة أمل ٠
رنّ هتافه : أنت منفعلة الآن ، أنصحك بترك البيت لأسبوع ، وقضاء وقت في إحدى القرى التي لك فيها أهل ، سيكون كل شيء على مايرام ٠
رنّ صداها : لا - - لا - - لست منفعلة ، عندما نلتقي أشرح لك ظروفي ستكتشف كم أنك متسرع في نظرتك ٠

للحظة خاطفة اجتاحتها رغبة في التدخين ، عادت إلى غرفة نومها المضاءة ، سحبت سيجارة من العلبة وعادت إلى ركنها تتأمل جهاز الهاتف ٠ أشعلت سيجارة بطرقة خفيفة أولى من قداحة جديدة اشترتها صباح أمس من بائع متجول نادى ببضاعته أمام بيتها ٠ نفثت دخانا كثيفا في ركود الأجواء وتداعت في مخيلتها صور لم تكن راغبة في استرجاعها ، بيد أن الصور بدت مقتحمة عليها فضاء الذاكرة ، فغدت تسترجع كيف أن أباها كان على علاقة بأمها قبل الزواج وأن هذه العلاقة أرغمت عليهما الزواج ، وهاهو شريك الحياة يفقد كل دفقة من رجولة وحميمية الزوج ويترك يده من يدها في منتصف الطريق ، تتذكر رنين الهاتف المتواصل الذي لايرد إلا إذا رفع زوجها الهاتف ، تتذكر أن زواجها المبكر ما كان إلا لخوف الأب أن تطلع البنت لأمها فلا يكون الرفيق شهما مثله ٠

لأول مرة اجتاحها احساس غامض بغربة عميقة إلى أنها بدت تشك بمعرفة المكان الذي تبرك فيه ، وبمعرفة الجهات ، ومعرفة الأبواب والنوافذ ٠ أطفأت عقب السيجارة وحدقت في جهاز الهاتف ، ران كلامه : صورتك كأم لثمانية أطفال الآن هي الأجمل من أي صورة أخرى كنت أو يمكن أن تكوني فيها ٠

دوما - - دوما - - لاتدعني أستفيض في شرح ما أقول لتعرف موقفي ٠٠أشعر بملئ العالم وفراغ روحي ، قمت بأشياء ماكان علي القيام بها ٠٠ لكن هل يخسر الإنسان كل شيء في لحظة طيش واحدة ٠٠ هل انطفأت مصابيح العالم إلى الأبد بالنسبة لامرأة عاشت غبية في مرحلة من عمرها ، يكفي أنني أطلقت ثمانية أولاد ، أرضعتهم من حليبي ٠ ماذا يحدث فيما لو تركت كل شيء هنا ورحلت إلى بلاد أخرى ، تعلمت لغات أخرى ، شاهدت مدنا أخرى ، ماذا يحدث لو تخلصت من هذا الإعياء المرعب الذي يفتت صفاء النهار ٠ أنا واثقة بأنني أرى أشباحا تحوم حولي وأفقد أي قدرة على التركيز ، وأي قدرة على تمييز الناس والألوان يوما بيوم ٠ يستوطنني إنهاك مميت ، لم أعد قادرة على الخروج ، حتى النسيم يتآمر علي ، يضرب بسوطه وجهي ٠ أرى

أشباحا تتراقص أمامي ، وأسمع أصواتا مشوشة في أذني ٠ بي مس من شيطان ، مس من شبح ، مس من جن و لقد نضجت تمام النضج لأكون فريسة للوساوس والهواجس والمس ، لكن لماذا تصر ألا أقترب منك ، وتصر أن تتفرج على مأساتي من بعيد ، كان علي أن أحرص على كل لحظة من لحظات عمري ، أنا محتقنة بالإستياء ، لن ينتهي العالم إذا التقينا وقمنا بمغامرة نبتغيها علها تطفئ شيئا من لهيب نيراني وتخفف قليلا مما بي من مس ٠
ران كلامه : بالنسبة لي هذا يعني الكثير ، لست مستعدا لمغامرة كهذه ، مغامرة لاأبتغيها ٠ الإنسان نفسه هو الذي يروي أشجار الشر في تربة روحه ٠
تحركت بتوتر متصاعد : يبدو أنه الشر ذاته الذي يبحث عن مخلوق واهن بستبد به ٠٠ هاهو يسكنني ٠
عاد كلامه إلى ذاكرتها : على الإنسان أن يكون في انتظار دائم لتوقع المصائب الكبرى التي تقع على روحه ٠٠ عليه أن يروض نفسه دوما لتحملها ومواجهتها بذات اللحظة ٠
نظرت إلى السقف : لكنني فقدت كل شيء ٠
عاد كلامه بقوة : إنه الصراع ذاته الذي عليه أن يبقى مشتعلا في معركة الإنسان مع نفسه من أجل الانتصار ٠
ابتسمت كبسمة بين المقابر ودندنت : لكن الحب سيأتي مرة أخرى ، لابد أنه الحب الذي لايموت في ضمير الإنسان ، إنه الحب الذي يحمل معه أجنحة الخلاص ٠
رفعت السماعة وصارت تدق على أرقام مثلما تدق على آلة كاتبة ٠
الرنين الأول ٠٠ تذكرت كلامه : أفضل ما تفعليه ألا تتصلي بي ، أن تنسي اسمي من ذاكرتك ٠
تذكرت كلامها : وهل سأقدر ؟!٠
الرنين الثاني ٠ ٠ تذكرت كلامه : ليس لدي ما يقدم شيئا مجديا لك ٠
الرنين الثالث ٠٠ كانت أصابع الساعة تشير إلى الرابعة ٠

الرنين الرابع ٠٠ تناهت نبرات خافتة ، لم ترد ، ارتفعت النبرات ، اندفع صوتها : آسفة لأنني أيقظتك ، أنت الوحيد الذي لي في هذا العالم ٠
جاء صواته : أماتزالين متيقظة ٠٠ شكرا لاستيقاظك لي ٠اندفع صوتها : هل ستغلق السماعة وتتركني أهلوس مع شبحك ٠
ترامى صوته : ستُسمعينني شيئا لايهمني ٠
عندما تسمع شيئا لايهمك ، سأشرق كوردة ميتة ، سترى ذلك بأذنيك ٠
لكن ، لاشيء يغري للسقوط
انفجر صوتها كشجار : إذا كنت تسميه سقوطا ، فلأجل أي شيء لا أسقط٠
وقعت السماعة إثر ذلك من كفه ، لم يشعربرغبة كافية لإعادتها فخرج على الفور يعد فنجان قهوة ويستمع لأغنية صباحية ٠ برك بجانب النافذة يتأمل منظر طلوع نهار جديد فتختلط الأغاني بزقزقة العصافير الطالعة للتو من أعشاشها ، وكما تقع صاعقة صغيرة انتفض إثر سماع جرس الباب ، رغب في أن يكون ذلك وهما ، ولكن الجرس تواصل ٠٠ : هل يمكن أن تكون غامرت بالمجيء ٠ انتظر علّ الصوت يكون وهما ، ولكن الجرس ذاته عاد يصدح في الحواس المرتبكة ٠ دنا من الباب ٠٠ امتدت أصابعه الراعشة إلى الممسك ، وبكل ما أوتيت من تردد سحبت الباب ، فرآها تقف كشبح قبالته ، تذكر سقوط السماعة للتو ، تراجع بخطا بطيئة إلى الخلف وأخذت تتقدم إليه بخطوات هزيلة وكأنها خطوات أخيرة لشخص على وشك الموت ٠ لكمت قدمه بسماعة الهاتف ، فأعادها إلى موضعها وفجأة انفجر صوته : لكن لماذا لاتسعين لإعادة حميمية العلاقة بينكما ؟ ٠ لم ترد عليه ، أعاد ماقال عشر مرات متلاحقة ، لكنها لبثت تنظر إليه وكأنها لاتسمع كلمة واحدة ٠ برك على الكنبة ، بآلية راح وجهه يندفن في راحتي كفيه ، رغب في الخروج من الواقع بأي طريقة وأغمض عينيه متجاهلا وجودها ، مضت ساعة عليه فرفع رأسه ، فوجئ بعدم وجودها ٠
بعد شهرين أحست المرأة بأنها كانت في بئر فخرجت ، دب النشاط فيها من جديد وغدت تحتضن أولادها وتولي اهتماما خاصا بزوجها في

محاولة لتعويض برودها نحوهم خلال ستة شهور فائتة ٠ في المساء هتفت له وعندما رفع سماعة الهاتف ، لم تدعه يتحدث ، قالت : شكرا على موقفك البطولي نحوي ، الآن أشعر بأنني بطلة ، إنني مدينة لك بكل ما أنا فيه من نقاء ٠ أعاهدك بأنني لسوف أحافظ على هذا الكنز ٠

# الفصل الســابـــــع

الواحدة ليلا ، يستلقيان في فراشهما على ضوء النواصة الخمري الخافت وموسيقى هادئة تنبعث ببطء من المسجلة كأنها نهر رقراق عذب . يقول بشري وكأنه ينشد نشيدا : لم أكن أعلم بأن هناك امرأة في هذا الكون يمكن أن تعيدني لأتعلق بالحياة بهذه القوة ٠
عندما أستيقظ من النوم في أي لحظة فإنني أبحث لأراك بقربي وعندها أدرك أن لليقظة نكهة جديدة ماكانت في يوم قبلها ٠ ذاك الذي لم يظفر بامرأة يحبها يثير الشفقة في نفسي لأنه يمضي حياته بدون محبة ، وأي شقي هو ذاك الذي يمضي حياته بدون دفء وبيتوتية المرأة التي تسحره بصوتها وحركاتها وعنايتها به وقبلاتها الطائفة عليه حتى وهو مستغرق في سابع نوم ٠
في المساء عندما أنام ويدي في يدك لاينتهي خوفي من أن يستيقظ أحدنا فلا يرى الآخر ، وعندها ستنطفئ الحياة مجددا وتأتي أصابع الأشباح لتستبد بكل شعور جميل عشناه معا ، أظن بأنني سأكون قد خسرت كل شيء سواء كان الفراق بي أو بك ، وهذه المساءات الفائضة بالحيوية والفائضة بكل شيء جميل ، كل هذا العالم الذي نعيشه معا هل سينتهي إلى الأبد ويتحول إلى شيء من إرث الماضي ٠
هنا ياذكرى ليس بوسعي أن أتخيل مرارة أن يأتي رجل آخر فيدخل هذا البيت ويأخذ كل شيء يخصني ٠
سيكون مؤلما بالنسبة لي أينما كانت روحي أن تكوني مع رجل آخر ، سيؤلمني ذلك وستكون خسارتك هي الأفدح من خسارة أي شيء آخر يربطني بالحياة ٠ أجل بي رغبة ألا يمكث أحدنا ساعة بعيدا عن الآخر ، وكم ستكون مؤلمة تلك الساعة التي يفصل فيها بيننا عالم كامل نجهل كل شيء عنه ، ولكن عندما تكون يدك بيدي وتكون يدي بيدك سندخل إلى أي مكان مجهول أو مظلم بشجاعة لأننا نكون معا وسنكون أقوياء بهذا الحب الكبير الذي يحمله أحدنا للآخر وسوف يكون الله إلى جانب حبنا ٠
لن نيأس ياذكرى من أن نلتقي مرة أخرى ، تلك الأقدار التي جعلتنا نلتقي في زمان ومكان وظروف كهذه ، سيكون بامكانها أن تجعلنا نلتقي في أماكن وأزمنة وظروف أخرى ٠ كل شيء إذا مات وتحول إلى رمار

ياذكرى فإن الحب الكبير وحده يبقى حيا ولن يتحول إلى رماد ، على أجنحته تتحقق المعجزات الكبرى ٠
تهمس ذكرى وقد غاصت عيناها بدموع غزار ، والهمس يخرج ثقيلا كجبل معبأ بشحنة البكاء : هاهي الحياة تزداد دفئا وإشراقا إلى درجة أننا تعلقنا بها بكل هذه القوة ٠ الحياة الجميلة تحمل سريرنا على جنحيها وتحلق بنا في سماوات الله الرحبة ٠ الحياة تكون مشرقة بوجود الله فيها ، كل لمسة جمال تراها هي لمسة من الله ، دوما يهب الله الفرص السخية لنا لنكتشف جمالية الحياة وكنوزها ونصلح من شأن أنفسنا ، إنه لاينظر أن يعاقبنا ، ينظر أن يعفو عنا ، ولذلك كانت مساحات العفو هي أكثر سعة من مساحات العقاب .
أنا متفائلة بالعلاقة المتبادلة بين الله والإنسان وبين الإنسان والإنسان ٠ لاأريد أن يستبد بك خوف وأنت تؤمن بعدالة الله الكبرى ، هذه العدالة التي تلازم الإنسان أينما كان ٠ ما أغمضت عيني يوما إلا وحلقت في فضاءاته بنشوة ٠ إنني راغبة في لقاء الله ، لأننا هناك عندما نلتقي عند الله ، سيكون اللقاء أكثر حميمية ، سيبدو أمامه لقاؤنا هذا باردا كحلم مضى ، ليس لحبنا أي مستقبل بعيدا عن يدي الله ، إن اللقاء عند الله هو مستقبل حبنا ، ليس من أحد بامكانه أن يهرب من يدي الله لأنه لم يسبق لإنسان أن تمكن من الهرب من لقاء الله ٠ الإنسان الذي أتى من الله فسوف يعود إليه ، ولكن لماذا يستبد بك الخوف من العودة إلى من أتيت منه ، عندما أعود إلى يدي ربي فإنني أحلق إليه كطائر مغرد بأمان ، لن أقلق على مصير شخص عزيز علي لأنني سأتركه بين يدي ربه الرحيمتين ٠
لن أأسف على الحياة التي تركتها والذكريات التي عشتها لأن الله هو الذي ناداني النداء الذي لبثت عمري في انتظاره ، ستذهب يابشري إلى من هو خير مني ، ستذهب إلى من يحبك أكثر مني ومن تحبه أكثر مني ، إلى من يرحمك أكثر مني ٠ لو حدث وولدت هنا دون إله ، للبثت طوال عمري أبحث عن إله عادل كإلهي ، ولو لم أجده لراق لي أن يكون

هذا في محض الخيال ٠ نفس الإنسان تحدثه بأفكار وتصورات شتى ، ولاشيء في هذا يابشري ٠
قال النبي لأمته : / إن الله تجاوز لي عن أمتي فيما حدثت به نفسها /٠

الله يرضى عن الإنسان والإنسان يرضى عن ربه ولذلك فإن رضا الله عن الإنسان يجعله يمد في بقاء الإنسان ، ورضا الإنسان يجعله يستمر في عبادته واللجوء إلى ربه في الضيق والفرج ، وهو يسعى إلى الخلودبكل الوسائل حتى أنه في النهاية وكي لايترك الأرض خالية من رائحته فإنه يتواصل في الزواج والتكاثر ٠ إنه يضمن خلود رائحته في الأرض هذه الرائحة التي هي عزاؤه الوحيد في الجهود التي بذلها خلال رحلة عمره وذكرياته الحميمية في دفء العيش على سطح كوكب سحري بهي مدهش كهذا ٠

عندما يستصلح الأراضي ويقيم المشاريع الصناعية الكبرى ويبني الأرض ، فإنه يقدم ذلك لورثته ، وعدذاك وإن كان لايموت سعيدا ، بيد أنه يموت وبه شيء من طمأنينة ، حتى هذه الموسيقى الرائعة التي تهدئ أعصابنا وتهذب نفوسنا فإن قائلها تركها لنا وليس لنفسه ، وكان بوسعه أن يكتفي لوحده بسماعها ، لكنها الآن تنبض بروحه ٠ وهذه الفنون والآداب تحرك نفوسنا وتدفعنا إلى اليقظة والحكمة والشروق ، أما نظرت إلى عظمة الفن في رقص الباليه ٠ إن الله غني بكل شيء ولذلك جعل من إنسانه غنيا بكل شيء ٠

يرفع الله عن الإنسان كل دواعي الملل والضجر والعيش بوتيرة واحدة ، ويحقق له التنوع والتجدد ٠ يقول الله لك يابشري : / جعلت لك سمعا لطيفا وبصرا حادا وحواسّ دراكة وقلبا ذكيا وفهما ثاقبا وذهنا صافيا وفكرا لطيفا ولسانا فصيحا وعقلا رصينا وبنية تامة وصورة حسنة وأعضاء صحيحة وأدوات كاملة وجوارح طائعة ٠

ثم ألهمتك الكلام المقال ، وعرفتك المنافع والمضار وكيفية التصرف بالأفعال والصنائع والأعمال ، وكشفتُ الحجب عن بصرك وفتحتُ عينيك لتنظر إلى ملكوتي وترى مجاري الليل والنهار والأفلاك الدوارة والكواكب السيارة وعلمتك حساب الأوقات والأزمان والشهور والأعوام والسنين والأيام وسخرت لك مافي البر والبحر من المعادن والنبات والحيوان تتصرف بها تصرف المُلاَّك وتتحكم فيها تحكم الأرباب / ٠

ثم يذكرك حتى لاتنسى : فلما رأيتك متعديا جائرا باغيا ، خائنا ظالما طاغيا متجاوز الحد والمقدار ، عرّفتك الحدود والأحكام والقياس والمقدار والعدل والإنصاف والحق والصواب والخير والمعروف والسيرة العادلة ليدوم لك الفضل والنعيم ويُصرف عنك العذاب والنقم ، وغرضتك لما هو خير لك وأفضل وأشرف وأعز وأكرم وألذ وأنعم ، ياعبدي إذا تعذر عليك فعل شيء مما أمرتك به فقل : لاحول ولاقوة إلا بالله العلي العظيم كما قالت حملة العرش لما ثقل عليهم حمله .
الإنسان يحب ربه ويحب الحياة التي يعقد علاقات غاية في الحميمية فيها ، ولذلك ينجب أطفالا بسعادة ويعلمهم محبة الله ومحبة الحياة ٠ يكفي الإنسان رقيا أنه استطاع أن يقدم شخصا راقيا مثل / محمد / ٠

لكن على الإنسان أن يقبل بفكرة الموت حتى يأخذ أشكالا متجددة في اكتشافه لمختلف المراحل التي لها جمالياتها وخصوصياتها ، وحتى لايبقى يدور في فلك جامد واحد ، عليه أن يرتفع إلى يدي الله لتأخذانه إلى أمكنة وأزمنة جديدة لم يرها أو يسمع بها من قبل ، وكذلك حتى يدع فسحة لأبنائه ليمروا بتجربة الحياة القصيرة هذه ٠ التراوح في المكان يبعث على الملل ياسيدي ، فلو لبثنا هنا إلى الأبد لماترددنا من البحث عن وسيلة تخفف عنا وطأة الملل ، فليس بوسعك أن تمكث نصف مليون سنة مثلا هنا على وتيرة واحدة ، وكم من الأطفال ستنجب ، لسوف تشعر عندذاك بضياع ، وأنك تسأل الله أن يتدخل ليبعث فيك تجددا ٠

لكن الله دوما ينظر إليك بقوة عدله فيجدد الحياة بتجدد الإنسان فيها ، ويجدد الإنسان بتجدد الحياة فيه٠ عندما جاء ملك الموت إلى خليل الله ابراهيم ليقبض روحه قال له : كيف الخليل يقبض روح الخليل ؟! ٠ عندها توقف قابض الروح عن مهمته حتى أعلمه الله ليجيب : هل الخليل يكره لقاء خليله ٠ هناك أناس لسوف يأتون ويعيشون كل هذا الدفء والصقيع ، كل هذا الهدوء والعنفوان معا ٠
هؤلاء أيضا سوف يأتون من الله ويعودون إليه ، سوف تزداد أعداد الناس في السجل البشري ، وأينما حلت هذه الحشود الكبرى سوف تحل معها البركة الإلهية ، هؤلاء سوف لن يشعروا بأي وحشة أينما حلوا لأن التجمع والتآلف والتوادد يولد السكينة في أفئدتهم ٠ إن ملائكة الله يكونون مع عباد الله هؤلاء أينما حلوا،لأنهم في استضافة الله ، لذلك يابشري إن محبة الإنسان لهي أسمى علاقة ينبض بها القلب تجاه الروح الإنسانية المشتركة ، دوما ابحث عن شخص حزين لتخفف شيئا من حزنه ، دوما قدم شيئا يسر ، إياك ياسيدي أن تسبب ألما ولو للحظة واحدة لإنسان ، إن محبة الإنسان هي من محبة الله ٠ دوما انظر إلى كل هؤلاء على أنك أب وأخ وابن وعم وخال لهم مهما كانت أديانهم ولغاتهم وألوانهم ،إنك لن تكون سعيدا إلا بقدر ماينبض قلبك بحب كل هؤلاء ٠
قال بشري : لكن الموت مر ياذكرى ، قبل أن أعرفك كان ذلك لايخطر لي على بال ، كانت الحياة سيان مع الموت ، الآن حبي لك هو الذي يبعث في نفسي كل هذه المرارة من جحيم الفراق ٠
لنكن أكثر هدوءا ونحن نتحادث في عشنا الزوجي الآمن هذا ، في مملكة حبنا المدهشة هذه ، لنكن أكثر سكينة ، فأنت ياسيدي تتحدث عن أمر لم تره ، وأنك تضع تصورا وبناء على هذا التصور يأتي حكمك ، عندذاك سوف ننظر إلى الموت ونحن فيه كما أننا ننظر إلى الحياة الآن ونحن فيها ٠
هل سيكون بامكاننا أن نرى الله ؟
النبي قال : / رأيت ربي عز وجل / والقرآن يقول : / وجوه يومئذ ناظرة إلى ربها / ٠ ولكن علينا أن نرتقي ‘لى درجة النظر إلى نور السموات

والأرض ٠ ليلة الإسراء ارتقى النبي في السموات ولبث يرتقي إلى أن بلغ سدرة المنتهى ٠

*  *  *

في الصباح هتفت خورشيدة لذكرى وقالت بأنها سوف تزورها برفقة زوجها مساء غد إن لم تكن مرتبطة بموعد ٠ أحست ذكرى باحراج شديد من الموقف وهي مترددة في أن توافق أو تنظر إلى وقت زوجها ومدى تهيئه لاستقبالهما ٠ ولكنها تشجعت قائلة : سوف أتصل ببشري لأرى إن كان مرتبطا بموعد ، وأعود للاتصال بك لنتفق ٠ قالت خورشيدة وهي تبتسم : كل يوم تزدادين نضجا ياذكرى حتى أكاد أرى بأنك امتلأت بالحياة ٠
قالت ذكرى : المسألة أبسط مما تتصورينها ٠ قد يكون مرتبطا بزيارة عائلية أتته في العمل ٠ كان النبي يقول ياخورشيدة أنه لو أمر إنسانا يسجد لإنسان ، لأمر الزوجة أن تسجد لزوجها ٠
ولكن بشري بعد لحظات أبدى ترحابه وسعادته باستقبال خورشيدة وزوجها للعشاء
لأنه منذ اللقاء بها عندما روت قصتها أحس بلطافتها وحكمتها ، ورغب التعرف بزوجها حتى يكون صديقا له ٠
مساء يوم غد عاد بشري مبكرا من عمله ، وانتظروا قدوم ضيفيهما ، عند الساعة السابعة والنصف مساء رن جرس الباب ، فدخل رجل لأول مرة إلى هذا البيت ، رجل في نحو الخامسة والثلاثين من عمره ، أحمر البشرة يميل بقامته إلى القصر ، ممتلئ الصحة ، أصلع الرأس ، يبدو بعض الشعر المائل للبياض على فوديه ، وعقبته خورشيدة والبسمة تملأ فمها .
راحت خورشيدة تقبل صديقتها وراح الرجل يصافح بشري ، فقالت خورشيدة في تلك اللحظة : هذا هو زوجي موسى الذي حدثتكما عنه ٠
قال موسى : كم تقت للتعرف عليك ياعزيزي ، أرجو أن تجمعنا صداقة

كتلك التي تجمع زوجتينا ٠قال بشري : إني لأرجو ذلك ياصديقي ، ثم أخذ كفه وبالكف الأخرى ربت على كتفه قائلا ببسمة : أقدم لك زوجتي ذكرى . فمد موسى يده يصافحها : إني سعيد برؤيتك مدا م ، أكاد أعرفك كما تعرفك خورشيدة وهي لاتمل الحديث عن صداقتكما ٠أردف بشري وعبارات الاحتفاء تتكرر في فمه : وهذا ابني نجم ٠ تقدم نجم مسلما على موسى الذي انحنى فقبله على جبهته ٠ جلسوا جميعا فقدمت لهم ذكرى في البدء عصير البرتقال المجفف ليفتح الشهية لوجبة العشاء التي أخذت ست ساعات عمل من ربة البيت الفتية ٠وبعد حديث تعارف قصير دعتهم ذكرى إلى المائدة ٠ استغرق ذلك نحو ساعة فعادوا جميعا إلى الصالون ٠ عندئذ قالت ذكرى وهي تنظر في عيني خورشيدة : أصارحك بأنني متشوقة لحديثك ٠

وعقب بشري بتوق : ليتك تسمعيننا شيئا من نظرتك عن الحياة والموت ٠

قالت خورشيدة : ولماذا يابشري ترى الحديث في هذا الموضوع ٠

لأنني أشعر بتعلق هائل بالحياة ، ولكن فكرة الموت تقلقني ٠

قال موسى : ربما لأنك دخلت إلى حياة جديدة ، هذا شعور برأيي يلازم كل محبي الحياة الذين لديهم علاقات ثمينة في الحياة ، ولذلك يتسامحون حتى مع أولئك الذين يسيؤن إليهم حفاظا على تلك العلاقات الثمينة كي لايخسروها ، أو يبتعدوا عنها ، أما أولئك الذين لاارتباطات ثمينة ولا علاقات حميمية لديهم فيميلون إلى المغامرات لأن لاشيء يخسرونه ٠

قالت ذكرى معقبة : هؤلاء لاتقلقهم فكرة الموت لأن الحياة ذاتها لاتعني لهم شيئا ، الحياة تقترن بوجود الآخر الذي أنت متعلق به ٠ ثم نظرت إلى خورشيدة مردفة : الحقيقة أرى أن خورشيدة لديها المقدرة لحديث كهذا ، وبي رغبة ياصديقتي أن أسمع معهم حديثك الذي اشتقت إليه ٠ولما رأت الرغبة ملحة لديهم جميعا قالت : منذ اللحظات الأولى التي يفتح فيها الإنسان عينيه ليرى العالم ، ويغدو أحد سكنة الأرض ، يحمل معه بذور الصراع مع ظلمات لاتنتهي بدءا من ظلمة الروح ومرورا بظلمة الحياة إلى ظلمة القبر ٠ يغريه كل ماهو غامض وسري ومجهول ،

فيكون دائم الرغبة والحاجة لاختراق المجهول وسبر أغواره ٠ إذ أنه قدم من مكان مجهول ، ويقيم في مكان مجهول لايعرف شيئا عنه ، ويمضي نحو مصير مجهول كذلك ٠ إنه مخلوق باحث في الظلمات عن اكتشاف سراج ما ، مخلوق باحث في ظلمات نفسه عن نفسه ٠

عندما يتأمل الوجود في لحظات ما ، يعتريه إحساس مرير بالضياع الكلي في مملكة الحياة المجهولة ، يدرك حجم ضياعه وضعفه في عالم الحياة والأشياء الواسع ، فتتوالد في كوامنه نزعات متناقضة ، فهو أكثر الكائنات الحياتية تناقضا ، يمكن له أن يبلغ ذروة السلوك العدواني في الوقت الذي يبلغ فيه ذروة السلوك التسامحي ، ذروة الرتابة وذروة الفوضى ، ذروة التعقل في الوقت الذي يمارس فيه أقصى حالات الجنون ، يمكن له أن يمارس الاغتيال في الوقت الذي يمارس فيه الإنجاب ٠

ومن ناحية مختلفة، فعندما يشعر هذا الإنسان بأنه نضج تمام النضج للحياة فإنه بذات الوقت بأنه نضج تمام النضج للموت ٠

أرى أن بشري به شعور بأنه نضج تمام النضج ليفرغ طاقات حبه في المرأة التي أعجبته وأعجبها ، ويشعر بأنه اتحد معها واتحدت معه في الروح ، ولكن هذا بذاته يولد حالة من الفزع للموت الذي يمكن أن يقع في أي لحظة فينتزع منه كل شيء ، أو ينتزعه من كل شيء انتزاعا ٠

يمكن للإنسان أن يرتب أوراق نفسه ، ويعتمد في جانب كبير من هذا الترتيب على أشكال الثقافة المتنوعة كي يكون أكثر انفتاحا على الحياة ، وأن يمنع نفسه التقوقع في دائرة مغلقة ، وأنا أقترح أن تسافرا خارج البلاد لشهر أو شهرين ، أن يكون السفر إلى بلاد مختلفة من حيث اللغة والطبائع والتركيبات الاجتماعية ٠

لم يفه أحد بكلمة وكأنهم لايريدون قطع تسلسل أفكارها ، رغم أنها توقفت لبرهة ، فاستأنفت الحديث بنبرتها الهادئة : يعتمد الإنسان في بعض مراحل حياته على الخيال بحثا عن نفسه في ظلمات نفسه ، وبحثا عن واقعه في ظلمات واقعه ، إذ أن الخيال يبدي له في مواضع كثيرة ماتخفيه الحقيقة ويقدم له بذور واقع أبهى كان خافيا عليه ٠ إنه كائن خيالي بالدرجة الأولى ، وما به من خيال لهو أعلى مما به من واقع ،

وما يشغله من خيال لهو أكثر مما يشغله من واقع ، وهو يعقد بمالا كبرى على الخيال أوسع مما يعقدها على الواقع ، هذه الخيالية المشرقة تميز الكائن البشري عن بقية الكائنا الحياتية التي تشاركه السكن في الأرض ٠
ينظر هذا الإنسان إلى نفسه على أنه كائن مطارَد ، ففي مرحلة المراهقة تطارده سلطة المغامرات ، وما أن يتجاوز سنوات الرشد والبلوغ حتى يتنازع مع سلطات أكثر حدة : الايديولوجيا ، الدين ، الاقتصاد ، المعرفة ، السياسة ٠
كلما يدخل مرحلة جديدة من عمره تتبدى أمام روحه سلطة جديدة حتى ليبدو أمامه بأنه كائن مُطارَد منذ مهده وحتى لحده ٠ عندما يولد يبكي خوفا من الكوكب المجهول الذي أتى إليه ، وعندما يموت يبكي حزنا على فراقه ٠
مرة كانت ذكرى في بيتي تتحدث عن المحبة ، وعندما ذهبت لأحضر شايا يبدو بأنها كتبت شيئا على صفحة بيضاء ونست أن تأخذه إلى دفترها الذي اعتادت أن تكتب أفكارها عليه ، ولكن ذاكرتي أبت أن تنسى ذاك المقطع الذي قرأته وتأملته كثيرا ٠ كتبت على صفحة بيضاء :

التقى عاشقان في الغســـــق تحت شجرة خوخ
قال لها : لن أتركك إلى الأبـد
قالت : هل تعـدنـــــي
قال : أعـــدك
قالت : هل تعدني أنك لن تتركني أموت
نظــر إليها ، وفارت عيناه بالدموع ٠

صمتت خورشيدة فعقب موسى على الفور : برأيي هذا أمر طبيعي مادام يقترن بالولادة ، ولكن الذي يثير الأسى هو أن يأتي هذا الإنسان فيمارس العنف بحق أخيه ، يأتي فيسلبه حياته ٠

قالت ذكرى : ياموسى هذه أسوأ أشكال الأنانية ، لأن الإنسان عندذاك يبلغ مرحلة يشعر بها أن ممتلكات الكون كلها هي من ملكه ولايحق لأحد أن يتنفس حتى نسمة هواء ٠
قال موسى : لعل اسم هولاكو يفرض ذاته بقوة في حديث كهذا ، فهو مارس قتل نحو مليون إنسان وراح يشكل هرما من الجثث ، ويحيل نهر دجلة إلى دماء ، ثم يذهب فيجلس في قصر المستعصم ويقول له مستهزءا : سنسهر الليلة في قصرك يامستعصم ، نصخب ونعربد ، ما رأيك ٠ ولما يثقل السكر رأسه يقول : استعد يامستعصم ، مكافأتي لك ستكون مجزية ، هل تستطيع أن تخمن ، لكن قبل أن أمنحك المكافأة ، هل تدلني على مخبأ الجواهر حيث الذهب والفضة والماس والأحجار الكريمة ٠٠ جواهر الخمسة قرون التي ازدهر فيها الحكم العباسي ٠
يشير المستعصم إلى مكانها ، وعندذاك يتناولها هولاكو ويقول للخليفة : هاأنا أملك العالم بسيفي وذهبي ، وهاهي الأرض ملك يميني، ومكافأتي هي قطع رأسك ٠وكان المستعصم قد سخر من هولاكو عندما قال بأنه / ممثل السماء على الأرض / ٠ وكان البطرياركك / مكيخا / نفسه تدخل متوسطا للمستعصم أمام هولاكو ، لكنه رفض وساطة البطرياركك قائلا له : إنني أريد الإنتقام لأنه وصفتي بالوغد ، وكذلك أعلن التمرد علي واستهزأ بصفتي ممثل السماء على الأرض ٠ هذا الرجل الذي يظن بأنه يستمد حياته ويحقق ألوهيته بمقدار ما يعتدي على حياة الآخرين ويمتلك من أرض يستمر في فكرته فيذهب إلى الناصر يوسف حفيد صلاح الدين في حلب ويجتث رأسه بعد أن يخنقه بوضع لحمه في فمه ، ثم يرفع رأسه على سن حربته ويطوف بها بين جنوده ، ويقتل خمسين ألف شخص في هذه المدينة كذلك ويستولي عليها ٠ لعل تاريخ نيرون يعطي صورة عن هذه المقارنة ، فقد تمكنت أمه أن تنصب ابنها المراهق البالغ من العمر ستة عشر سنة ليحكم الامبراطورية الرومانية ، وما إن تمكن من الامبراطورية حتى بدأت نوازعه العدوانية في الظهور ، فقتل ابن أخيه بالتبني برتانيكوس بن كلوديوس حتى لاينازعه على العرش ، ويبني علاقة غير شرعية مع بوباياسا بينا زوجة أحد المقربين إليه ،

وعندما تأتي أمه جربينا فتوبخه على عدوانيته بحق ابن أخيه ، وعلاقته الآثمة مع بوبايا ، لايتردد من قتلها كذلك ، لأنه يريد أن يتخلص من كل شخص يمكن له أن يمارس عليه نفوذا ، فيستمر في عدوانيته حتى يقتل زوجته أوكتافيا ، ويعلن زواجه من عشيقته بوبايا ٠

عندما بلغ هذا الرجل الثانية والعشرين كان قد تخلص من معظم مَنْ لهم صلة قربى به ، وعندذاك بدأت نوازعه العدوانية تظهر بأشكال مختلفة في محاولات يائسة لسلب الناس مواهبهم وإمكاناتهم وكفاءاتهم ، ويظهر ميوله للتراث الفني الهلليسيني وللمباريات الرياضية والمسرح الروماني ، فيشارك فعليا في المباريات الإغريقية التي تقام في دلفي وأولمبيا ويفوز نيرون في ألف وثمانمائة مرة بالمرتبة الأولى ٠ ثم بنى قصرا هائلا أسماه / البيت الذهبي / ملأه بالتحف وروائع النحت الإغريقي ، ووضع تمثالا هائلا له بطول ١٢٠ قدما ٠ كانت السنوات تزيده عنفا حتى توصل إلى حرق إمبراطوريته ، وقد قام بنشب الحريق الهائل ثم عاد إلى قصره ، أمسك بقيثارة وصار يغني عن / طروادة تحترق / ٠ ولكن روما لم تحترق كلها ، فقام بعد أيام باشعال الجزء المتبقي من إمبراطوريته فامتدت النيران هذه المرة إلى معظم الأحياء ٠ في تلك اللحظات ترك إمبراطوريته المحروقة وتوج عنفه بحق نفسه وهو ينتحر بشكل مأساوي منشدا قصيدة / أوديب في المنفى / ، يغرز الخنجر في عنقه ويردد نشيد العنف الأخير : قرينتي وأمي وأبي قد دفعوا بي إلى حتفي ، يالي من فنان عظيم يلقى حتفه ٠

العنف لايقتصر على زمان ومكان وأمة وشكل ، إنه يأخذ أشكالا مختلفة ٠ كا ن كاليغولا يقول : ليس هناك قدر متفهم ، لذا أختار أن ألعب دور القدر ٠ إنني ألبس الوجه الغبي الغامض لإله محترف ٠ يمكن لأي إنسان أن يلعب الدور الرئيسي في الكوميديا الإلهية ويصبح إلها ٠ كل ما يحتاج إليه هو أن يقسي قلبه ٠ وكان يقول مدافعا عن نزعته العدوانية : إنها الحقيقة ، كوني لاأحترم الحياة الإنسانية أكثر مما أحترم حياتي الخاصة ، وإذا كنت أجد القتل سهلا ، فما ذلك إلا لأن الموت سهل بالنسبة لي ٠ وينتهي في أواخر حياته إلى أن يخنق عشيقته كايزونيا

تتويجا لنزعته وهو ينظر إليها في المرآة تتحول إلى جثة ، ولكنه يلقى العنف ذاته من الناس الذين يقعون عليه ضربا حتى يلقى حتفه ٠
حتى نموذج هتلر لم يملك إلا أن يتوج عنفه بحق أقرب الناس إليه ثم بحق نفسه ٠ كان يدافع عن نزعته العدوانية شارحا : الجماهير كالمرأة تريد أن يسيطر عليها رجل قوي لارجل ضعيف ، ولهذا فإنها تحب الحاكم القوي لاالحاكم المتضرع المتوسل ، وهي في أعماقها تكون أكثر اقتناعا بالنظرية التي لاتتسامح مع الخصوم ٠ فهو شديد الثقة بأفكاره ويريد أن تسري على كافة شرائح الناس بمختلف ثقافاتهم ومقاماتهم ومواقعهم ولذلك يأمر أن تذهب توجهاته هذه حتى إلى طلبة المدارس في الصفوف الأولية فيوجه المعلمين إلى أن : هدف التربية ألا يؤكد الفرد ذاته ، وأن الطفل في المدرسة ينبغي أن يتعلم الصمت ، أن يكون صامتا ليس فحسب عندما يوجَه إليه اللوم ، بل عليه أن يتعلم أيضا إذا دعت الضرورة أن يتحمل الظلم بصمت ٠
قالت ذكرى : برأيي يدور الإنسان في دوامتَي الشر المتمثل في الجانب الأبرز منه في الحروب الفردية والجماعية ، والخير المتمثل في محاولة إعادة بناء ما تم تدميره في الإنسان والأرض ٠ فالموسيقى جاء بها الإنسان لتخفف من الآلام التي سببها الإنسان لنفسه ، وكذلك الفنون والآداب ، وفي العلاج العضوي يطور الإنسان السلمي أدواته مع تطور وسائل العنف التي يقوم بها الإنسان السلبي ٠ فعندما يتطور الخنجر إلى رشاش ، يقابله تطور الكشف الحسي إلى الإيكوغرافي ٠ كل ما استطاع الإنسان أن يأتي به من منجزات تقنية كانت إلى جانب ما يأتي به من منجزات في ألوان العنف ٠

قال بشري : يبقى للموت سواده الدائم على مر الزمن ، الموت حدث أبدي يتعرض له الإنسان عبر التاريخ البشري ، لكن الحياة المفعمة بالعمل والحب هي كفاح مستمر في مواجهة الموت وفي مواجهة فكرة الموت ٠ليس بالضرورة أن يجهد الموت تفكيرنا ويعشعش في المخيلة ، المهم أن نقاوم كافة أشكال الموت ونصر على إشراقة الحياة ٠

عقبت خورشيدة : مع بدايات تشكل الوعي ، يتشكل الشعور الأعمق بالموت في الذات البشرية ، وما يعزز هذا الشعور هو رؤية موت / الآخر / باستمرار ، ومن ثنائية الحي والميت تولد نزعات مختلفة لدى / أنا / الحي ٠ فمحاولة الاستنساخ تقود في النهاية إلى سعي الإنسان إلى شكل ولو أولي للخلود ، والطبيب الذي يجهد طوال الوقت لينقذ حياة مريض يشعر بسعادة عندما ينجح في ذلك ، لكن صورة الموت تتراءى أمامه عندما يفشل في مهمته ، فلا يتردد أن يتخيل نفسه ميتا بدل المريض الميت الممدد أمامه ٠ فيخرج مستاء من غرفة العلاج وعلى وجهه الحزن والأسى ٠ ويمكن أن تتطور العلاقة بين الطبيب ومريضه فيشعر الطبيب بألم عندما يتألم مريضه ، ويشعر برضى عندما يكون مريضه في سكينة ٠ هذه العلاقة يمكن أن تتوالد بكثرة بين أطباء الروح ومرضاهم ، فترى الطبيب يسهر طوال الليل مضطربا عندما يتحسس أن مريضه مضطرب في ركن آخر ٠

قال موسى : ما يكون مجديا هو أن يؤمن أحدنا بحق الآخر في الحياة والعمل وقول شيء جديد لم يقله أحد قبله ٠

هناك في اعماق كل شخص يستقر عالم كامل مستقل ومتفرد كفردانية اي فرد وعلينا ان نتصوركم من العوالم موجودة في اعماق عدد سكان العالم٠ عندما يولد الانسان يولد معه عالمه المختلف كليا عن عالم اي كائن آخر غيره، كل انسان يأتي بالجديد الذي لم يُكتشف من قبل ويعيش تفاصيل حياتية لم يعشها أحد قبله وينظر إلى الحياة نظرات لم ينظرها أحد قبله وهذه الاستقلالية الذاتية والروحية تفرز التمييز الفردي وأيضا تولد منها النرجسية بمختلف مستوياتها ونزعاتها.

اذن الفرد واي فرد هنا بمفهومه ومواقعه يعرف ما لا يعرفه غيره ولديه ماليس لدى غيره ولديه ثقة بنفسه اكثر من اي شخص اخر وايضا ربما يعلم المجهول او شيئا من الغيب بحدسه مثلا، قد نلتقي بشخص يقال بانه عندما يلقي بنظراته على اي شخص اخر فانه يستبطن ان كان سيعيش طويلا أو لا، أو يقول آخر بان حادثة ما ستقع او غير ذلك او ان شخصا

ما نسمعه في احدى المناسبات يقول بانه يعلم اشياء خفية تخص جماعة او مدينة او دولة بحدسه فيصح ما يقوله فيما بعد٠ علينا ان نحترم الناس اجمعين على مختلف مستوياتهم الفكرية والعقلية والشخصية والاجتماعية والميولية وعلى هذا لا يوجد اغبياء في العالم، فكل انسان يحمل في روحه اسراره وخفاياه، نحن لا نستطيع ان نفعل شيئا بدون الاخرين ولا نستطيع ان نحقق شرط وجودنا الانساني بدون احترام الاخرين وعلينا ان نعترف باننا من صناعة الاخرين من صناعة افكارهم ورعشاتهم وطاقاتهم وآلامهم ولقد صنعونا فكيف نحاربهم ونعيش في قطيعة عنهم او نتعالى عليهم وقد اطعمونا حليبهم وخبزهم وزيتونهم وبصلهم وعدسهم،، نستعبدهم او نستهزىء بهم ٠اي فرد هو امتداد للغير واي حادث يصيب اي طفل في اي قرية من قرى العالم فهو اصابة لسكان الارض اجمعين. بالنسبة لي ولخورشيدة ننظر الى اي شخص على انه يعلم ما لانعلم وندنو منه ونتعلم منه حتى لوظننا للوهلة الاولى بانه سفيه وما ادرانا انه لا ينظر النظرة ذاتها الينا - فلديه ماليس لدينا واوتي ما لم نؤت مثلما اوتينا مالم يؤت ، فنحن نعيش بفضل الاخرين ولكل شخص فضل على الاخر سواء من الاموات او الاحياء ، نحن ندين للعالم بتعلمنا اللغة واستماعنا الموسيقى وتعلمنا السباحة وقراءاتنا للروايات المذهلة والقصائد الجميلة وسكنانا واستخدامنا للاختراعات البشرية وبقدر هذا الاعتراف علينا ان نصر على وضع لبنة على عمارة الحياة الخالدة التي وضع اساسها اجدادنا اولئك القدامى ، وما دمنا نحب الاخرين علينا أن نتعلم السماح والهبات نعطي حتى ثيابنا وما في جيوبنا لاننا من صنعهم واخذنا منهم ما هو اهم وارحب٠ نستطيع ان نمسح دمعة ما ونضع مكانها افترارة ثغر، أجل إن الشمس الشمس تشرق وكل ما حولنا يصرخ ويقول انها الحياة الرائعة التي تحمل لنا مفاجآت مذهلة ٠

نهضت ذكرى متجهة إلى المطبخ ، وبعد قليل عادت تحمل على صينية كبيرة أطباق الرز والحليب بجوز الهند ، تناول كل واحد صحنا ، وفي غمرة ذلك خطر لبشري أن يضفي جوا من المرح على السهرة فقال : منذ أيام جاء زبون إلى المطعم وبعد أن تغدى قال بأن لديه ساعة فراغ

يريد أن يقضيها عندنا ٠ رحبنا به فقال بأنه يريد أن يروي قصة كي لانضجر جلوسه ، فعرفنا بأنه رجل ظريف يحب أن يضفي روح النكتة أينما حل ٠
أشعل الرجل سيجارة ورشف رشفة شاي ساخن قائلا : رغم مسافة خمسمائة متر بين بيتي وبيت علي بطه فإننا نتعامل كجيران في هذا الحي غير المنظم بالقرب من حدود تركيا ، وهورجل في الستين من عمره، له أولاد يماثلونني في السن، قصير القامة إلى حد القزم ، جهم الوجه ، ذو نظرات حادة ، له حاجبان كثيفان ، كثير السعال ، يرتدي حتى في الأعياد ثيابا رثة ، ويبدو للمرء أن هذا الرجل لم يستحم منذ أن أنجبته أمه ، يحمل بيده حقيبة متوسطة الحجم ويدور في البيوت يلحم تنكات الجبن التي يخفيها الناس للمونة ، والأواني المعدنية المثقوبة ، وفي بيته يملأ بوابير الغاز الصغيرة، أحيانا تزورنا زوجته وأحيانا يزورنا هو ، ولكن هذه الزيارات نادرة كأيام الأعياد أو الواجبات الاجتماعية التي تطرأ بين الجيران ٠ وأذكر أنني زرت بيت علي بطه مرتين ، مرة منذ عشر سنوات عندما اشترى أبي منه بسكليتا وأرسلني لأجلبه إلى بيتنا ، وكان بدون مقعد ولايصلح للركوب ، فقال أبي بأنه اشتراه من علي بطه بمبلغ زهيد ليصلحه ويبيعه ٠ المرة الثانية التي زرت فيها بيته كانت منذ ثلاث سنوات عندما أصابت ابنه الطفل / حَمَدو / رصاصة في عرس بالحي فذهبت أعزيه ٠ أما هذه الزيارة الثالثة فقد حدثت منذ شهرين عندما اتفقنا نحن من نعد أنفسنا جوار علي بطه لزيارته حين سمعنا أن أحد حراس الحدود أطلق على جارنا النار وهو حاليا في الفراش بين الموت والحياة ٠ اتجهنا نساء ورجالا صوب بيت جارنا على شكل قافلة ٠ دخلنا حوشه الواسع فاتجهت النساء إلى حيث جمعهن ، واتجهنا إلى غرفة الرجال التي يستلقي فيها علي بطه في فراشه مستقبلا الناس ٠ بوصولنا إلى باب الغرفة تناهى صوت جارنا الأجش : أعوذ بالله من الرجل الذي يكذب ٠ طرق أحدنا الباب ودلفنا ، كانت الغرفة تضيق بالجالسين ولما رأوا أعدادنا ، نهض البعض ليفسح لنا مكانا ٠ كل واحد منا راح يمد كفه إلى علي بطه الذي بالكاداستطاع

أن يبرك في الفراش ويده اليسرى ملفوفة بشاش على جبصين معلقة برقبته بواسطة محرمة بيضاء قائلا له : حمدا لله على سلامتك ياجار ٠ ومنا من طبع قبلة على وجهه حتى جلسنا جميعا في الغرفة المملوءة بدخان السجائر ٠ أحدنا الذي جلس تحت نافذة صغيرة ، مد يده وفتح شقا منها ٠ رحب بنا بحرارة وشكرنا على زيارته وراح يدفع علبة تبغه المعدنية الضخمة إلينا ويلحقها بسجائر ملفوفة ، ثم أمر أحد أولاده ليحضر شايا ، فسأله أحدنا : ما الذي حدث ياجار ؟ ٠

أراد أن يعدل بعض الشيء في جلسته وهو يمد قدمه اليمنى ببطء ويقول بأنها تنملت ، وأنه لم يعتد على الاستلقاء في فراش المرض ، فتقدم ابنه الذي أحضر الشاي ووضع مخدة أخرى على المخدتين اللتين تسندان ظهره ٠ عندذاك تناولته نوبة سعال حادة، ولكنه برغم ذلك مد يده إلى كأس الشاي من يد ابنه وأشعل سيجارة جديدة متجاهلا نوبة السعال التي أخذت تخف قليلا مع رشفه للشاي وقال : أعوذ بالله من الرجل الذي يكذب ، أردت أن أذبح أرنبة فتحايلت على أن أمسك بها ، ولكنها نظرت إلي وكأن صوتها تسرب إلى أذني : علي أنت تقذف الخس لي لا لتطعمني ، بل لتذبحني ياعلي ٠

فجفلت واستعذت بالله من الشيطان الرجيم ٠ قلت لنفسي : ياعلي إنه شيطانها الذي قذف الكلام على مسمعك ، لاتتردد من ذبحها ياعلي ٠ولما رأتني أنظر إليها وأنا ما أزال مصرا على موقفي، استسلمت لإصراري حتى أمسكت بها ، لكن بعد قليل استطاعت أن تفلت من يدي هاربة خارج الحوش فأقسمت ألا أكف عن مطارتها حتى تقع في يدي وأنا أجري خلفها كالمجنون– أعوذ بالله من الرجل الذي يكذب – رأيتها تتجه قافزة نحو البستان صوب الحدود ، فلحقتها بخطواتي السريعةوهي تتجه إلى السور إلى أن اقتربنا من حرس الحدود الذي أعرفه ويعرفني ، ودوما أقذف له أرغفة من خبز التنورالحار ، ويقذف لي علبة دخان تركية ، وكان يحمل بندقيته على كتفه واقفا على البرج يصوب نظره

إلي وأنا أطارد الأرنبة التي وصلت السور ٠ فقلت بأن أرنبتي سوف تستسلم لأنها لن تستطيع تجاوز السور ، ولم تكتمل فرحتي حتى سمعت صراخا جاء من الحارس أعقبه صوت عيار ناري ، شعرت بأن برقا أصاب يدي اليسرى ، تمددت على الأرض وقد نسيت أمر الأرنبة ٠ بعد قليل نادى الحارس بي ، فأجبته بأنني علي بطه الذي يقذف له أرغفة الخبز ٠ عندذاك قال لي بلغتي أن أرجع من حيث أتيت زحفا على بطني وإلا سوف يطلق علي النار مجددا ٠ زحفت مستديرا نحو الخلف ساحبا معي خيطا من دمي إلى أن وصلت البيوت – أعوذ بالله من الرجل الذي يكذب - فحملني رجال كانوا ينظرون إلي وأعادوني إلى بيتي ٠ تعالى صوت أحدنا : احمد الله ياعلي أنها لم تصب رأسك ٠ قال بحشرجة خرجت من صدره بالكاد : ياليتها أصابتني وأراحتني ٠ ثم سعل قليلا وأردف مستعيدا بعض صوته : اطلاق النار علي في كف ، وخسارتي للأرنبة في كف ٠ هربت مني وتركت حسرة في قلبي ، ولا أظن أن هذه الحسرة ستطلع إلى يوم القيامة ٠ سأقول لكم كيف وقعت هذه الحسرة في قلبي ، منذ السنة الماضية ركبت دراجتي النارية واتجهت إلى البرية لأصطاد الأرانب فكانت هذه أول أرنبة أصادفها ، سبحان الله ما إن وقعت عيناي على هذه الحيوانة الأليفة حتى اشتعلت في نفسي شهوة للحمها ٠ ثم مد يده إلى فمه وهو يخفي بسمة قفزت إليه وأردف : تذكرت وأنا أنظر إليها أم الأولاد عندما ركبنا الطائرة وذهبنا نقضي شهر العسل في العاصمة ، عندها شممت رائحة خبز التنور ونحن نحلق في السماء ، اشتهيت الخبز وقلت لأم الأولاد : يا امرأة الشهوة أكلتني ، لابد أن آكل رغيفا بأي ثمن ٠ قالت : كيف يصلك الرغيف ياعلي ونحن في السماء ؟ ٠ ناديت السائق بأن يهبط قليلا نحو التنور ، فهبط إلى أن صرنا فوق المرأة التي تخبز ، عندذاك مددت يدي من نافذة الطائرة وصحت بها أن تقذف لي رغيفا ، فرفعت المرأة رغيفا ، التقطته وعادت الطائرة للارتفاع – أعوذ بالله من الرجل الذي يكذب - قلت لنفسي : لن أترك الأرنبة حتى أمسك بها وأجعل أم الأولاد تشويها لي في التنور ٠ لحقتها بدراجتي دون أن أستخدم البندقية حتى لايفسد لحمها ، وآخذها إلى البيت

حية،ابتعدتْ عني ووجهت الدراجة إليها ، طارتها نحو ساعتين حتى حاصرتها في حفرة بدولاب دراجتي الأمامي ٠ نزلت من الدراجة و مددت يدي إلى الحفرة ، لكنها عضتني فسحبت يدي وخلعت المحرمة من رأسي ، واستطعت أن أسحبها بواسطة المحرمة ٠ عندها امتلأت نفسي نشوة وأنا أنظر في عينيها المستسلمتين بين يدي ، فقد اشتهيت في حياتي كلها حاجتين وظفرت بهما ٠ فربطتها جيدا ووضعتها في خرج الدراجة حتى لاتهرب وقررت العودة إلى البيت وأنا مسرور كأنني صدت عشرين أرنبا، أخرجت علكة من جيبي وبدأت أمضغها مع تدخين سيجارة بدلا عن الشاي ٠ووجهت الدراجة إلى طريق العودة ، مشيت مسافة بدراجتي وأحسست بأنها تتباطأ في سرعتها ، ففطنت على الفور أن ملاحقتي للأرنبة لمدة ساعتين قد أنفذ البنزين ، وعندذاك توقفت الدراجة وانطفأ محركها ٠ فتحت غطاء / الخزان / وحركته ، كان ناشفا كأنه لم ير البنزين أبدا ٠ فتحت الخرج ونظرت في الأرنبة التي بادلتني نظرة استياء ولا أدري كيف صفعتها على وجهها بظاهر كفي وأنا أوجه لها شتيمة ، ثم أعدت إغلاق الخرج وقد استبد بي شعور بأنني سوف أبات الليلة في البرية وأنا أنظر في لون الغروب ٠ بركت بجانب دراجتي مستسلما لهذا القدر منتظرا الصباح كي أمضي بدراجتي سيرا لعلي أبلغ الطريق العام الذي خمنت بأنه يبعد مسافة خمسين كيلومترا عني ٠مرت دقائق قليلة – أعوذ بالله من الرجل الذي يكذب – وكأني سمعت هدير طائرة ، رفعت رأسي وبالفعل وقعت عيناي على طائرة تحلق في السماء ٠ قلت : جاءك الفرج ياعلي ٠ وأخرجت بندقيتي بأقصى سرعة ، صوبتها نحو خزان وقود الطائرة وأطلقت طلقة فنزل البنزين كحبل إلى خزان دراجتي حتى امتلأ ، وكي لاينفذ وقود الطائرة – أعوذ بالله من الرجل الذي يكذب – أخرجت علكتي من فمي بأقصى سرعة ، وضعتها في فوهة البندقية وضغطت على الزناد فسدت ثقب الخزان ٠عاد إلي أمل العودة إلى البيت والنوم مع أولادي ، وعندذاك شعرت بأنني ظلمت الأرنبة عندما صفعتها ووجهت لها شتيمة ، فمددت يدي وفتحت الخرج ، داعبت رأسها برفق وأنا أعتذر عن الصفعة

والشتيمة ، ثم ملت بفمي لأقبلها من خدها حيث وقعت الصفعة فحركت يديها المربوطتين بحركة خاطفة وخرمشتني من وجهي حتى ركضت وأنا أمسك بوجهي ، وفي أثناء ذلك ارتمت الدراجة على الأرض وانسال بعض البنزين منها وخرجت الأرنبة مربوطة من الخرج ٠ عدت راكضا إلى الدراجة وأعدلتها ، ولكن الدماء التي انسالت من وجهي ولدت في نفسي شعورا بالفزع من الأرنبة ، فأخرجت كيس الخيش من الخرج وأمسكت به الأرنبة المربوطة ، وضعتها في الكيس ، ووضعت الكيس في الخرج ووجهت الدراجة مجددا صوب درب البيت٠ نحو منتصف الليل وصلت بيتي حاملا أرنبتي وكا ن أهل البيت قد ناموا ، أخرجتها من الكيس وتركتها مربوطة في الغرفة التي أنام فيها وأنا أقاوم شهيتي للحمها لأن الوقت متأخر ٠في الصباح أول مافعلته بعد الصلاة هو أن ناديت أم الأولاد وطلبت منها أن تحضر سكيناحادا وتأتي لتمسك لي برأس الأرنبة لأذبحها ٠فصوبت نظرة إلى الأرنبة وقالت : غبت عن البيت يوما من أجل أرنبة واحدة ، أين كنت ياعلي ٠٠ أرنبة واحدة وتريد أن تذبحها قبل أن تفطر كمن لم يذق طعم اللحم منذ سنتين ٠

قلت : ياامرأة هذه الأرنبة أثارت شهيتي مذ أن وقع نظري عليها ، لوتعلمين بأي حال جلبتها إلى هنا ٠٠ أرنبة ولا كل الأرانب ، لم يسبق لي أن اشتهيت لحم حيوان كشهيتي للحم هذه الحيوانة ٠
فناولتني السكين الحادة ، ومدت يدا إلى رأس الأرنبة والأخرى إلى يديها ، ومن ناحيتي وضعت قدميها تحت قدمي ٠ قلت : باسم الله ٠ ومددت السكين إلى حلقها وفجأة انفجرت أم الأولاد وهي تترك الأرنبة : مهلك ٠٠ مهلك ياعلي لاتذبحها ٠

انتفضت الأرنبة لتهرب فأمسكت بها جيدا وأنا أوجه بصاقا لأم الأولاد : ابنة الكلب ، كادت الأرنبة تفلت مني ٠ فقالت : ياعلي الأرنبة حامل وبعد أيام سوف تضع سبعة أرانب ٠ رميت السكين جانبا وأنا ألمس بطنها : سبعة أرانب ، مادام الأمر فيه سبعة أرانب أجّل شهيتك ياعلي

وستظفر بطعام سبعة أرانب ، لابد أن لحم أرانبها سيكون بلذة لحمها الذي صار حسرة في نفسك ياعلي ٠
عندذاك قمت بحفر حفرة في الحوش وتركتها تكمل الحفر ، وصرت ألملم لها الأوراق الخضراء والحشيش وأحيانا أنزل سوق الهال أشتري بقايا الجزر والخس لها حتى مضى شهر ورأيناها تخرج فتبحث عن الصوف والأقمشة المهترئة والخيوط وتمزق الأكياس لتأخذ إلى الحفرة ٠ بعد ذلك اختفت أرنبتنا أياما قليلة لنتفاجأ بصغاراها تخرج للحظات وتعود ٠ فقالت أم الأولاد : هاقد عوضك الله على صبرك خيرا وبركة ياعلي ٠ قلت : ألم يحن الوقت ، شهوتي صارت تأكلني يا أم الأولاد ، أشعر بأن صبري نفذ ٠٠ أحضري السكين ، يكفي كل هذا الصبر ٠

فقالت أم الأولاد : الصبر جميل ياعلي ، لقد منّ الله علينا برزق وأنت تريد أن تقطعه ، هذه الأرنبة لو ذبحتها الآن ، سوف تقطع علينا نهرا من الرزق ، أما إذا جلبت لها ذكرا فسوف تلد سبعة أرانب أخرى ويصبح لدينا أربعة عشر أرنبا ، وعندذاك ستكون أرانبنا السبعة هذه على وشك الولادة ، فتنزل كل أسبوع إلى السوق وتبيع جوزا من الأرانب ، ياعلي يمكن أن نجمع رأسمالا من هذه الأرانب ، تخيل ياعلي بعد سنة كم من الأرانب سنبيع ونأكل ونذبح لضيوفنا ٠ اجلب لها ذكرا من سوق الأرانب وأعدك أنها عندما تضع سوف أذبحها لك وسوف أذبح واحدة لنا حتى لايشاركك أحد بلحم أرنبتك ، سوف أشويها لك في التنور ٠٠ وفجأة تناولته نوبة سعاله الحادة حتى ظننا بأنه سوف يذهب معها ، لكنه واصل الحديث وهو يتجاهل النوبة الحادة التي أدمعت عينيه وقال : وإذا بقي منها شيء سأخفيه لك لليوم التالي ، سوف يكون لحمها كله لك ، تمهل يارجل ولا تقطع علينا رزقا أرسله الله لنا من أجل شهوة عابرة ٠

استطاعت مرة أخرى أن تقنعني ، فنزلت يوم الجمعة إلى سوق الأرانب واشتريت لها ذكرا ٠ ثم وجه كلامه إلى ابنه بشيء من التوبيخ : قم ياولد اجلب للضيوف قهوة ، كم مرة صرت تسمع هذه القصة اليوم ٠

فنهض الابن إلى الباب ووجه صوته إلى غرفة النساء : قهوة ٠٠ قهوة ٠٠ وخرج ليعود بها بعد قليل ٠ قذف جارنا علبة تبغه الضخمة إلينا وأعاد قذف سجائر ملفوفة إلى كل واحد مكملا حديثه : ٠٠ لن أطيل عليكم ياجماعة ٠٠ صبرنا حتى ولدت الأرنبة مرة ثانية فانتظرنا خروجها ليكون الخروج الأخير ٠ فذهبت ساعة العصر إلى العشب الأخضر ، تمددت عليه تحت أشعة شمس العصر وبقدرة قادر أخذتني غفوة رأيتني معها أستيقظ في فسحة خضراء يمر بجانبي نهر رقراق أمام قصر ضخم كأنه صنع بكامله من الذهب الصافي ، ورأيت أناسا لايشبهون ناسنا ، أمسك بي اثنان منهم وقاداني إلى باب القصر – أعوذ بالله من الرجل الذي يكذب – اتجها بي إلى باب كبير مفتوح ،بعد قليل انفتح الباب وانحنى لي رجال على رؤوسهم ريش طاووس ، أوصلوني إلى رجل ممدد في فراش من ريش النعام ،حوله صبايا جميلات فتيات إلى جانب أشخاص ينتظرون منه أي اشارة لينفذوها ، و رأيت آثار النعمة في وجهه رغم مرضه الشديد البادي عليه ٠ قال لي الرجل : أنت الآن ياعلي في مملكة لم يدخلها أحد من الإنس قبلك ، وأنا ياعلي ملك هذه المملكة ، اجتاحني مرض فقال لي الأطباء أن دوائي الوحيد هو عند إنسان يدعى علي ٠ فأمرت باحضارك إلى مملكتي ، إن أعطيتني هذا الدواء فسوف أشفى وأعطيك ما تشاء من الذهب والجواهر ، نحن ليست لدينا صلاحيات ولا امكانيات لنسلب الإنسان ممتلكا ته ، فأنت يا علي حر في أن تعطي أو تمتنع ٠

قلت متعجبا : دواؤك عندي ٠٠ أي دواء هذا ؟

قال الملك : الدواء هو لحم الأرنبة التي اصطدتها من البرية ياعلي ٠ فشرحت له شهيتي للحم هذه الأرنبة وأنني إن لم أنل هذه الشهوة قد يصيبني مرض أخطر من مرضه ، لأن الحسرة سوف تبقى تأكل قلبي حتى أموت ٠ فقال : لابأس ياعلي ، لن أترك الحسرة في قلبك ، اذبحها ياعلي ، ونتقاسمها ، دع نصفها لك واجلب لي نصفها مشويا ، وعندما أتناوله سوف أشفى فأعطيك ما تشاء مما وعدتك به ، ووعد الملوك دين في رقابهم ٠ قلت له بأنني موافق – أعوذ بالله من الرجل الذي يكذب -

وطلبت أن يرشدني إلى طريق الذهاب وجلب الأرنبة ٠ فأشار إلى رجل ممن حوله ، وعلى الفور أحنى الرجل رأسه لي ودعاني للذهاب معه ، فاتجه بي نحوالفسحةالخضراء التي رأيتني فيها أول مرة ٠ وقفنا في المكان وقال : تمدد ياعلي واغمض عينيك ، سوف تكون ممددا في المكان الذي أتيت منه ، اجلب نصف الأرنبة مشويا وعد إلى مكانك ، تمدد هناك واغمض عينيك وسوف تكون هنا ، سنأخذك إلى ملكنا لتطعمه اللحم الدواء بيدك ، وسوف تكون ضيفنا ، لن تخرج قبل أن نكرمك ويفي ملكنا بوعده لك ٠ تمددت على الفسحة الخضراء وأغمضت عيني فرأيتني مرة أخرى في مكاني الأول الذي غفوت فيه ، نهضت غير مصدق إلى البيت وأنا أرسم أحلاما وآمالا كبيرة سوف تحققها لي هذه الأرنبة ، لدى وصولي إلى البيت ، ذهبت إلى أم الأولاد وشكرتها على حكمتها بتأجيل ذبح الأرنبة وشرحت لها ما وقع معي وأنني سوف أعود ومعي ما أريد من الذهب والجواهر ، وطلبت منها أن تتكتم على الأمر حتى لايطمع بنا الطامعون ٠ ثم اتجهنا إلى الأرنبة التي كانت في حفرتها ، تحايلت عليها مرارا وتكرارا وبليونة محببة حتى خرجت وأمسكت بها ٠ داعبت رأسها بلطف وطلبت من أم الأولاد أن تحضر موسا حادا وتجهز اشعال التنور لأن ملَكي المريض بانتظارعودتي في أقصى سرعة ، فهرولت أم الأولاد إلى المطبخ وفي أثناء ذلك لاأدري كيف تملصت الأرنبة من بين يدي وأخذت تجري إلى الخارج ٠٠ طار عقلي وأنا أطارد ها وأقذف عليها الحجارة وهي تتجه صوب الحدود، خاطرت بنفسي حتى آخر خطوة ، لكن الحارس الملعون قال بأنني لو خطوت خطوة أخرى سيجعل جسدي غربالا ، فبقيتْ الأرنبة أمام عيني ملتصقة بالسور وأنا أنظر إليها وأعود زاحفا أتجرع مرارة خيبتي ،أعوذ بالله من الرجل الذي يكذب٠

انفرج شق الباب ودخل أناس غيرنا من الجوار ، فنهضنا لنفسح لهم مكانا ، تقدمنا إلى غرفة النساء ننادي نساءنا ، عندها تناهى إلينا صوت زوجة علي بطه وهي تقول للنساء : أعوذ بالله من المرأة التي تكذب ٠

قفزت ضحكة مشتركة إلى الجميع وقال موسى : ياله من رجل ظريف ٠ فقال بشري وهو يخفف من موج الضحك الذي أتاه : قبل أن ينهض روى لنا قصة ثانية بعد أن ألححنا عليه أن يبقى بعض الوقت ، فأحضرنا له إبريقا من الشاي وقدمنا له السجائر ٠ فقالت ذكرى : ليتك تسمعنا هذه القصة يابشري ٠ فقال بشري : لن أرويها قبل أن تقدمي لنا قهوة ٠ نهضت ذكرى صوب المطبخ ونهضت معها خورشيدة ، ثم عادا بالقهوة ٠ تناول بشري رشفة من الفنجان قائلا : عند الساعة السابعة والنصف من صبيحة يوم السبت كان جابر خلف الموظف لدى مديرية الأوقات الضائعة يهم بالخروج مع دراجته الهوائية ماسكا بيد مقودها وبالأخرى مديرا الباب خلفه ،هجم عليه ثلاثة أخوة من البيت المجاور له ، فأدرك جابر أنهم كانوا في انتظار خروجه ، لم يدعوا له فرصة لقول كلمة ، ولا لوضع الدراجة على وقافتها ، وفي غمضة عين وأخرى انهالت عليه لكمات كرصاص مجهول فارتمى مستسلما للأقدام التي تدوس عليه وتركله بعدوانية ٠ مع مواصلة اللكمات التي تسدد على انحاء جسده دون تمييز ، أبرز أحدهم / مشرطا / كذاك الذي لدى الحلاقين وصوبه نحو أنف جابر ، لكن جابر ومع الرعب الذي اعتراه من تصويب المشرط نحو أنفه انفجر بصراخ غريب يشبه عواء ذئب ، كان الصراخ غريبا على الأسماع فشعر الأخوة بفزع وتراجعوا عن جابر المرمي على الأرض والذي يصدر منه صوت خافت غريب حتى اعتقد الأخوة بأنه تحول من إنسان إلى مخلوق آخر ، أو أن مخلوقا آخر كان يسكنه فمات جابر من إثر اللكمات وظهر فيه ذاك المخلوق الذي يصدر صوتا لايشبه صوت إنسان ، عندها لاحظ الأخوة أن الجيران خرجو على صراخه الأول الذي أفزعهم فلم يتردد أحد الأخوة من إظهار سكين وتهديد الذي يقترب من الجيران لانقاذ جابر منهم ، وقالوا بصوت جماعي بأن لهم ثأرا عند هذا المارد ولن يتركوه قبل أن يثأروا منه ٠ بعد نحو نصف ساعة انطفأ أنين جابر الخافت الغريب فاقتربوا منه مرة أخرى وهم يحذرون الجوار من الاقتراب ، دنا حامل المشرط وقبض على أنف جابر باصبعيه في غفلة وقد تمكن من الأنف ، وبذات السرعة ضرب المشرط

نحو الأنف لكن جابرا استطاع أن يبدي حركة غاية في السرعة برأسه في آخر هنيهة مما أدى إلى بتر إبهام حامل المشرط ،وصار الإبهام يتقافز على الأرض والدم ينز منه بغزارة كأنه لن ينقطع ، قذف شتيمة في وجه جابر ، ثم بصق عليه وراح يهرول نحو البيت ، لكنه قبل أن يدخل الباب عاد إلى إصبه المبتور فحمله في جيبه واتجه جاريا نحو البيت ٠

تناول أحد الأخوين المشرط من الأرض ودنا من أنف جابر قائلا بحشرجة : تفعلها بنا إن تركناك بأنف هذا اليوم يا رزيل ، مثلك يجب أن يمشي بدون أنف في الشوارع ٠ ووقع عليه الأخ الثاني بالضرب وقد امتلأ غضبا بعد بتر إصبع أخيه وراح يمسك بشعره قائلا : سوف تحلم ياجابر أنك كنت ذات يوم بأنف ٠ وقبض على أنفه بشراسة وجابر مستسلم من أثر اللكمات التي انهالت عليه ، لكنه يحرك رأسه في كل الاتجاهات ويبصق ويشتم ويستغيث ، بينما الجوار تجمعوا على شكل تظاهرة يتفرجون عن بعد دون أن يجسر أحد منهم الاقتراب لانقاذ الرجل ٠ دس الأخ إصبعيه في خياشيم جابر وكأنه يريد أن يخلع الأنف بيده وأشار لأخيه أن يسدد الضربة بشكل جيد إلى الأنف ٠ طمأنه حامل المشرط بثقة وعلامات فوران الدم تتصاعد إلى وجهه المحتقن ، وبسرعة خاطفة أوقع الضربة إلى الهدف ، ومرة أخرى بدا جابر أكثر حذرا فانتفض هذه المرة بكامل جسده وكأنه بركان صغير انفجر وأبعد القابع عليه جانبا ،فأصاب المشرط جانبا من أنفه وترك فيه خدشا ٠ عادا إليه بهزيمة وإصرار أشد وعلى الفور قبض ذات الشخص على الأنف وقد برك على بطن جابر الممدد ، دس إصبعيه في ثقبَي الأنف ، قبض الثاني بشعره مثبتا الرأس وسدد الضربة ليقع الأنف هذه المرة في يد أخيه ٠ أحسا بأنهما نفذا المهمة بصعوبة ، تنفسا الصعداء وهما يصوبان نظرات النشوة إلى وجه جابر الذي خلا من الأنف ٠ أخذا الأنف معهما وتواريا عن الأنظار ٠ في اليوم التالي أبلغت الشرطة مديرية المشفى بأن الموقوفين رموا الأنف المبتور في إحدى المجاري ويتعذر البحث عنه ، فاضطر الطبيب الجراح الذي تولى إجراء العملية أن يبتر قطعة

لحم من مؤخرة جابر ويلحمها موضع أنفه ، بينما جابر تنازل عن ادعائه الشخصي عليهم قائلا : لاشيء في العالم بمقدوره أن يعيد إلي أنفي ٠ أمضى شهرا في البيت يتردد من الخروج بلا أنف ، وبين يوم وآخر يجري اتصالات بالعمل يقول بأن وضعه النفسي لايسمح له بالخروج من البيت ٠ يمضي جابر معظم وقته أمام المرآة يمعن التحديق في القطعة الملحومة فترتسم مؤخرته في وجهه ، يزداد استفزازا وغليانا ، تتدخل أمه وتبعده عن المرآة قائلة : هذا نصيبك ياجابر ، احمد الله أنهم لم يبتروا عضوا أكثر خطورة ، كان مستقبلك كله سيضيع في أوقات أخرى يفكر بخطيبته التي خطبها قبل الحادث بشهر على أن يتزوج في ظرف شهرين قادمين عندما يحصل على قرض ولكن المفاجأة وقعت عليه بعد مرور شهر ونصف على الحادث عندما أرسلت خطيبته الخاتم والهدايا إليه مع أخيها ليبلغه كلام أخته: لقد انخدعنا بك ياجابر ، لكن حقيقتك بانت في وجهك ٠٠ لاأريد أن أرى وجهك الأسود بعد الآن ، العودة من منتصف طريق الهلاك أفضل من الاستمرار ٠أراد جابر في تلك اللحظة الفورانية أن ينقض عليه ويقرض أنفه بأسنانه ليصبح زميلا له ، بيد أن الكلمات هي التي كانت سباقة : لايشرفني الاقتران بهكذا امرأة تقرر قرارا مصيريا كهذا مستندة على كلمات سمعتها من الناس ٠ خرج الأخ وعاد جابر إلى المرآة يحدث نفسه بخفوت : يبدو أن الخسارة لم تكن في الأنف فقط ياصاحبي ، هاهو الأنف جر معه الخطيبة التي كنت تمضي معها أجمل الأوقات بعد منتصف الليل على الهاتف ، وهل ستنتظر من تفكر بالزواج من رجل بلا أنف ، وهل ثمة امرأة بلاأنف في هذا العالم كله لتقبل الاقتران بك ٠ لوكان البتر في أي عضو آخر ٠٠ أذنك مثلا ، يدك ، قدمك ، حتى لوفُقأت عين ٠ ثم أخذ صوته الغريب يعلو قليلا ، هذا الصوت الذي يخيف السامع ، حتى أن أمه عندما تسمعه فإنها تخرج من البيت وتقول للجوار بأن كائنا آخر يسكن غبنها ولا يظهر إلا في أوقات الشدة : عندما تخرج ياجابر فان الناس سوف يحدقون بك ويتهامسون ، يتغامزون على سبب قطع أنفك ، إنه سبب وحيد لاغير يميز كل الذين بُترت آنافهم ٠ كيف ستجلس في مجتمع ياجابر وتحكي عن العفة كما

كنت تتحدث طوال عمرك ٠ بعد مرور شهرين أحس بأن البقاء في البيت يكتم نفسه ، وأنه لولم يخرج سيجن ، فقرر الخروج على استحياء ، ارتدى بدلته الوحيدة ذات السنوات السبع من العمر التي اشتراها عندما قبض أول راتب من مديرية الأوقات الضائعة ، عقد ربطة العنق الحمراء الرفيعة وأمسك بمقود دراجته الهوائية ، فتح الباب لأول مرة منذ شهرين فجفل وهو يتذكر آخر خروج بذات الطريقة عندما هجم عليه جواره الثلاثة ، مد رأسه قبل أن يدفع الدراجة ، تأمل الشارع والرعب يسري في عروقه ، هل ينتظرون ليقوموا باعتداء آخر عليك ياجابر ؟ إنهم مجانين ، كل شيء وارد في هذا العالم ياجابر ٠ لم يثن هذا الرعب عزيمة الإصرار على الخروج ، فدفع مقود الدراجة إلى الشارع بينما أمه توصيه أن يكون حذرا ٠ قاد الدراجة بيديه عدة خطوات دون أن يركبها فنادته أمه أن الإطار الخلفي مفروغ من الهواء ٠ عاد بها إلى الباب ، أوقفها على الوقافة ومد يده إلى المنفاخ المعلق في موضعه على الدراجة الزرقاء اللون ، وضع رأس المنفاخ في موضع الهواء في الإطار وغدا جابر يعلو ويهبط ويلهث وبين لحظة وأخرى يمد يده إلى الإطار ليتفحص حجم الهواء الداخل ، وبذات اللحظة تتسرب منه نظرة سفلية خاطفة إلى حيث بيت هؤلاء الثلاثة المقابل ، بينما أمه واقفه جواره ٠ توقف جابر عن دفع الهواء وقد أدرك كفاية الإطار عن حاجته ، ولمح إذذاك خروج الجوار وهم ينظرون إليه يضع لاصقا طبيا على أنفه ويركب الدراجة بدل أن يقودها بيديه ، فلم يسبق لأحد أن رأى جابرا يركب الدراجة ، إنه دوما يقودها بيديه ، يمشي معها كما يمشي مع صديق طريق وهو يدرك بأنه اعتاد هذا الصديق ولايستطيع المشي بدونه حتى لو ذهب لمشوار قصير في زيارة خاصة٠ لقد أصبحت جزءا منه وهو لايخرجها ليركبها ، بل لتمشي معه ، فعندما يقول أي شخص من الجوار : رأيت جابر ، سيضيف : يمشي مع دراجته الزرقاء ٠ وحتى في حالات السرعة فهو يدفعها بعجالة ويهرول معها ٠ عندما مضى جابر راكبا الدراجة وهي ظاهرة غريبة استوقفت الجيران إضافة لمظهر الشاش الطبي على أنفه ، تناهى صوت مسموع من أحد أطفال الحي :

جابر ٠٠ جابر يسوق البسكليت بابا ٠ فأصبح كل مَنْ في الطريق يصوب إليه نظرات مطولة وهو يمر غير مسلم لأول مرة منذ ثلاثين سنة عندما سكن هذا الحي ٠ قال البعض : لاتؤاخذوه ياجماعة ، عذره في وجهه ٠ وعلّق البعض : قليل الحياء والاحترام ، لقد وصل لحقه ٠ وقال رجل : أقبّل اليد التي قطعت أنفه ٠ واصل جابر طريقه ولم يقف إلا أمام رصيف الدائرة . نزل من دراجته وقادها نحو باب الدائرة لكن الحارس منعه من إدخالها ، فقال : أنا جابر خلف ٠٠ موظف هنا ٠ فقال الحارس : كنت جابر خلف الموظف هنا ٠
أوقف جابر الدراجة على الرصيف ، وهم بالخروج ، رأى شخصا يجلس على مكتبه ، وفي دقائق قليلة اكتظ المكتب بالموظفين والموظفات يتفرجون على جابر مقطوع الأنف ٠ فاتجه إلى مكتب المدير مغتاظا يقول بأن الموظفين يسخرون منه ، لكن المدير قال بأنه فصل من عمله نتيجة غيابه لمدة شهرين دون عذر ، وكذلك لأسباب تمس الأخلاق ، لأن الموظف عليه أن يتمتع بأخلاق حميدة ٠

خُرج جابر من دائرته مطرودا لايعرف أين يتجه ، وقد بدا أمامه الرجوع إلى البيت كالرجوع إلى هاوية ٠ عندئذ وقف على الرصيف جوار دراجته وقد مد يده إلى مقودها يسترد وقائع يوم العطلة المشؤوم عندما تفاجأ بجارته خولة تقع عليه في غرفة نومه صباحا ٠ انتفض من الفراش قائلا : ما أتى بك هنا ياخولة ؟! ٠ قالت وهي تقف في المدخل : لماذا تهرب مني ياجابر ، ألستُ جميلة ٠
قال : اخرجي ، هذا لايجوز ، أنا رجل خاطب ٠ تأتين لزيارة أمي أهلا وسهلا ، أما أن تلعبي بذيلك معي فلا أسمح لك دخول هذا البيت بعد اليوم ٠
قالت : بل أدخل هذا البيت من أجل أن أراك وأسمع صوتك ياجابر ، أمك هي حجة لأدخل ٠
قال : اخرجـي يابنة الحلال ، لاأريد أن تدخلي بيتي بعد اليوم ٠
قالت مستاءة : لن أخرج وافعل ماشئت ٠

وكضربة السوط وقعت كفه على خدها ٠ قالت : ستدفع ثمن صفعتك غاليا ياجابر ، ستندم طوال عمرك على هذا الصفعة التي صفعتها لخولة ، أنا خولة ياجابر، أخت ثلاثة شباب ٠ انتفض من خياله وهو يرى خولة أمامه على الرصيف المقابل للدائرة ،قال في نفسه : هل راقبتني عندما خرجت من البيت ، وما الذي تريده مني ٠ فاشارت خولة إليه ليلحقها ، قاد جابر دراجته ومضى وهي تسير بخطوات متسارعة ، سار جابر خلفها نحو ساعة إلى أن دخلت حيا شعبيا ووقفت أمام أحد البيوت ، تقدم جابر إليها ، ولكنه عندذاك اكتشف بأنها ليست خولة ٠

# الفصل الثامـــن

تقضي ذكرى أثرى الأوقات في التأمل بقراءة كتابها المبارك ، تحلق بخيالها في فضاءات من نور ، وتحس أن الكلمات تجري على لسانها أطيب من شهد العسل ، تشعربأ ن نور الكلمات يجري في عروقها فتكون في حالة صفاء هائلة ، وحالة صلح عظمى مع الله الذي أكرمها بالانفتاح على قراءة هذا الكتاب قراءات تجعلها تشرق كوردة في ربيع غني .
كل شيء يغدو أمامها ككتاب قابل للقراءة ، وقابل للاستيعاب ، وياله من يوم بائس ميت ذاك الذي يمضي دون أن تقرأ فيه شيئا من كتابها فتقول : المدينة التي لايُقرأ فيها الكتاب هي مدينة تموت من البرد ، الإنسان الذي لايتدفأ بنور قراءة الكتاب هو إنسان يموت من البرد الروحي .

هل سيمهلك العمر ياذكرى للارتواء من هذا الكتاب ؟ إن الذي أنزله يتعهد بأنه لن يتحول إلى كتاب منفذ الصلاحية في أي زمان ومكان . لن يكون بوسعك الارتواء منه ولا أخذ كل شيء منه ياذكرى لأنه عند ذاك سيكون قد أدى مهمته ونفذ مفعوله ، لن تمدي يدك إليه لأنه لن يحمل لك جديدا ، وستكونين كائنة باهتة لن يكون ثمة جديد في انتظارها ، ولن تكون هناك متعة الاكتشاف ، ودهشة الإنفتاح على العالم ، ولن تنجبي الأولاد لأنهم لن يعرفوا شيئا جديدا .

كتاب الله المفتوح لكل إنسان يفتح عينيه لأول مرة في الحياة ، وتفسيره مفتوح ليفسره كل إنسان من أي عصر تفسيرا لم يُفسر من قبل .
مهما أوتي مفسر من قوة معرفة وفقه فإنه لايدعي وضع تفسير ثابت لآية لاتفسير بعده لأن هذا المفسر لو عاش الف سنة سوف يكتشف تفاسير جديدة في عامه الألف لم يكن اكتشفها من قبل .
كما أن الكتاب لاينغلق في وجه أحد فإن تفسيره كذلك لايقتصر على شارح .
بيّن سيد الشراح في قوله بأن الله يبعث على رأس كل قرن من يجدد للأمة أمر دينها .

هذا التجديد ينبثق من الكتاب الغني ذاته . حتى الطب ليس بوسعه أن يأتي بنظرية ثابتة ياذكرى ، لأن لاثبات في الطبيعة ، يمكن ألا تنجب المرأة في سن الخصوبة ، وتنجب في سن اليأس ، يمكن ألا يهطل المطر في الشتاء ويهطل في الصيف ٠ويمكن أن يطول عمر الإنسان عن الذي أقره له الله عند خلقه ،ويزداد رزقه ، كأن أعطاه الله ستين سنة ، ولكن هذا الإنسان عمل صالحا فيهبه الله سنوات أخرى إضافة إلى عمره ، ويرزقه رزقا إضافة إلى رزقه ٠ كان النبي يقول أن الله يزيد في رزق واصل الرحم ويطيل في عمره ٠

نحن على الأغلب ندعو للطيبين بطول العمر وهذا ليس عبثا ولا مزاحا ٠ ويمكن للدعاء أن يرد القدر كما أتى النبي بأ ن القدر عندما يحل يتصارع معه الدعاء فلبث الدعاء يصارعه ويمنعه إلى يوم القيامة ٠
القراءة عبادة ياذكرى ، لكن أي قراءة ، هل هي قراءة للقراءة فحسب ، أم أن العبادة تتحقق بشكل أكثر رسوخا في قراءة الاكتشاف ، في قراءة المعرفة ، قراءة الاقتراب من الله ، التي تقربك من الله وتقرب الله منك ، تجعلك تنظرين إلى الله ، وتجعل الله ينظر إلى قوة معرفتك به ٠ يالها من بيوت ميتة تلك التي لاينفتح الكتاب فيها ، يا لها من نفوس مظلمة تلك التي لم تشرق بنور القراءة ٠ عندما يخرج هذا الكتاب من بيتك ستفوح منه رائحة المقابر ، وعندما يخرج من نفسك ستفوح منك رائحة الموت ٠ حتى الحيوانات الضارة فإنها تكون أقل ضررا في بيت تتلى فيه سطور هذا الكتاب المبارك ٠

فتشفق على شخص ينام بالمهدئات والأدوية المنومة والكتاب في ظهرانيه ، وتتذكر كيف أنها تغفو بعد صلاة وقراءة قريرة العين والفؤاد ، لاتظن أن هناك من يستمتع بحالة النوم الغارقة ، نوم طبيعي لاتساويه كل مهدئات العالم في تلك الأوقات الاسترخائية التي يغرق كل عضو وكل ذرة فيها في نوم عميق ، وتأتي لحظات الاستيقاظ المشرقة لتتوج كل تلك الساعات المستغرقة بانفتاح جديد على حياة كاملة وكأنها استيقظت فيها

للتو ، كل صباح يعقب ذاك النوم الهادئ يكون بمثابة ولادة جديدة لها على حياة جديدة بكل لحظاتها وثوانيها ، حتى الطعام تشعر بأنها تتناوله لأول مرة ، وبشري تشعر بأنها تكتشفه وتنظر إليه لأول مرة .
تحتضن كتابها وتيقن أن علاقة الإنسان بكتابه أنه إذا دناإليه فإنه يدنو متدرجا إلى أن لاينساه ، وإذا ابتعد عنه فإنه يبتعد متدرجا إلى أن ينساه ٠ لذلك فإنها كل صباح تطلق صوت مقرئ يتلو آيات من سطور كتابها المبارك الذي يبارك حتى في اللبس والطعام والآثاث والآيات تتلى عليها ، فتشعر ذكرى بأنها تحلق بمعاني الكلمات إلى ربها و وتزداد إيمانا على إيمانها وهدوءا على هدوئها وراحة نفس على راحتها ٠

*  *  *

ينفتح بشري على أحاديثها الإيمانية كما تنفتح شجرة في صحراء بوابل المطر فيقول لها : لم أكن أهتم بتفاصيل هذه العلاقة بين الله والإنسان ، ولم يخطر ببالي أن أتعمق في هذه العلاقة ٠ تعلمت منك قوة عدل الله ، وهذا أمر غاية في الأهمية يحقق لي التوازن الذي كنت أفتقده ، أحيانا كنت أرى أشكال الظلم ، أو أشكال اللاعدل في الناس ، لكنها تحولت إلى مسار عدلي بعد تعرفي بك ٠ هذا أمر مؤلم ، لكنه الحقيقة ، وأظن أن ألم الحقيقة هو أهون على المرء من ألم اللا حقيقة ٠ علينا أن ننظر إلى الحياة نظرات أكثر جدية وأكثر واقعية ، كنت أحيانا قبل تعرفي بك أفتقد الواقعية وأتجنبها ٠

أمر آخر تعلمته منك هو التردد من عقد آمال على أولئك الذين لديهم تاريخ من السوء ، وألا نفرط في تفاؤلنا لانتقالهم إلى أناس إيجابيين ٠ أما أولئك الذين لديهم تاريخ من الرقي فعلينا ألا نمررهم باختبارات تعجيزية متكررة وكأننا نقودهم إلى الأخطاء لنصطادها فيهم ٠تعلمت منك أن الرجل يتعلم من المرأة ، ويمكن أن تتحول الزوجة إلى معلمة وموجهة حكيمة لزوجها إذاتشجع الزوج وقبل أن يمنحها هذا الدور وقبل أن يكون تلميذا في مدرسة زوجته .

غدوت الآن أنظر إلى الأشياء نظرات تأملية بعد أن كنت أنظر إليها نظرات شكلية تفتقد أي شكل من التأمل ، وهو تأمل ينعش القلب ويضفي غنى على بهجة النظر في جماليات الأشياء .
كنت تقولين لي : عندما تنظر إلى الإبل لايفوتك أن تتأمل جمالية الخلق فيه ، وعندما تنظر إلى السماء لايفوتك أن تتأمل جمالية ارتفاعها ، وعندما تنظر إلى الجبال لايفوتك أن تتأمل جمالية انتصاب قوامها ، وعندما تنظر إلى الأرض لايفوتك أن تتأمل جمالية تسطحها ، / ألم تر إلى ربك كيف مد الظل / ٠
تقول ذكرى : دوما يأتي الله ليقف إلى جانب الإنسان ويبعد عنه الأذى ، كنا نرى على النهر أن السمكة عندما تفسد فإن الله يبعث فيها رائحة

كريهة حتى يتجنبها الإنسان ، فإن فقد الإنسان حاسة الشم ، بعث الله لونا يبيّن فسادها أمام ناظريه، فإن فقدهما ، أمرها الله أن تبعث إلى فيه طعما فاسدا يجعله يلفظ هذا الطعام الفاسد ٠
المجتمع الإنساني يشكل عائلة بشرية كبرى هي عائلة الله ، وهو رب هذه العائلة ومعيلها ، يوصي عياله ألا يؤذوا بعضهم وألا يتفرقوا ، وأن يتكاتفوا ويصلوا أرحامهم ويتجاوروا ويتسامحوا ويتحابوا ، وألا يدع جار جاره جائعا إذا استطاع ، وأن يزيحوا الأذى من الطرقات ، وأن يلقوا السلام على بعضهم البعض ويتحاضنوا ويتباوسوا ٠
إنهم عيال الله وهو الذي يطعمهم ويسقيهم ويكسيهم ٠ واعلم يابشري أن الإنسان عندما ينادي من أعماقه : يا رب .
فإن الله من سمواته يجيب : لبيك عبدي ٠

أحست ذكرى أن شمسا أشرقت في أعماقها وملأت حواسها بنور الله ، عندذاك نزلت دموع من عينيها زادتها خشوعا فنهضت إلى الغرفة الثانية تصلي بخشوع هائل لم تذق حلاوته من قبل ٠ ثم عادت تبرك مطرحها فقال بشري : غدا سأتقدم بطلب إلى نقابة المحامين أطلب فيه عودتي إلى عملي، أظن أن الغبار سيكون متراكما على آثاث ذاك المكتب المهجور، أظنه بحاجة إلى يد تنفض ماتراكم عليه من غبار .